

فِي عَمَلِ النَّصْلِ

مذكرات سليمان فاضل

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



في غمرة النضال

مذكرات سليمان فاضلي

(In the Midst of political struggle).
Faidhi, Sulaiman.

It is a history of Iraq since 1900.

Presented to the Columbia University
Library by the daughter of the author.

Laila Faidhi
New York University.
Oct. 1953.

بغداد

١٩٥٢

طبع

مركز التجارة والطباعة والمطبعة
شابع الملك فيصل الاول - الكرخ - بغداد

956.7

F147

الأهدى

فى كل ثورة للانعتاق ، وفى كل جهاد للتحرر ، جنود
مجهولون .. يؤثرون الصمت على التهريج .. مكانهم فى الطليعة
أبداء ، لا يثنىهم عن عزمهم ضر ولا بأساء .. فهم بين الشهداء الأوائل ،
ونصيبهم من الغرم وافر .

واذا ما كتب للثورة النصر .. وتهالك الناس على المغنم ...
انصرفوا هم عنها زهداً وترفعاً .. حسبهم من الفوز ما يصيب
الشعب من خير ، وما تجنيه الأمة من عز .
فالى أولئك الجنود ..

الأموات منهم والأحياء

أهدى هذا الكتاب .

سليمان فيضى

المقدمة

شاءت قدرة الباري عز وجل ، أن أبتلى بداء عضال يلزمنى فراشى
لا أفارقه إلا لأعود اليه ملزماً مجبراً • وشاءت قدرته تعالى أن يكون فى هذا
المرض فرصة ، لعلها الوحيدة ، لاخراج هذه المذكرات الى حيز الوجود
وتقديمها فى كتاب الى القارئ الكريم •

ولقد وجدت فى العمل على جمع ما تبعث من هذه المذكرات وما تفرق
من مستنداتها وما عفا من وثائقها وأخبارها ، أقول وجدت فى ذلك العمل
لذة لا تعدلها لذة • فكان سلوتي فى وطأة المرض ، وشفاء لسقامي المضنى ،
وبلسماً لآلامى المتמادية • وكنت اذا استرسلت فيه وقضيت الساعات الطوال
منكباً على الاوراق التى علاها الغبار ونسج بينها العنكبوت شباكه ، لامنى أهل
بيتى وأطباءى ، وأهابوا بى أن أخلد الى الراحة والسكينة • فاذا انصعت اليهم
يوماً أو بعض يوم استبد بى اليأس والقنوط وغلبتنى الهموم • فكانوا يشفقون
على من هم ثقيل ويأس مرير ، ولا يرون حينذاك مناصاً من التصريح لى
بممارسة التأليف • فأندفع ثانية الى فردوسى ، ما بين الاوراق والاضابير ،
أشد فيه السلوى والتسلية : فأستغرق فى تأملات لذيدة عن الايام الخوالى ،
وأفنى فى الذكريات البعيدة ، وأواكب العهود السعيدة •

ومرت أيام المرض ، منها الشديد ومنها الهين ، وتكدست بمرورها
صفحات الكتاب الى جانب سريرى • فاذا بها كثيرة وطريفة ، أو على الاقل
انها كذلك فى نظرى •

نما الكتاب وكبر حنى وقف على رجليه ، أما أنا فكنت لا أزال مسجى
فى فراشى • ولكن روحى كانت تنمو مع كتابى ، فلما انتصب هو واقفاً تجاملت
هى على نفسها فوقفت الى جواره معتمدة عليه • لقد ربأت بها أن تتوارى خلف
جسمى الهزيل السائر فى طريق الاضمحلال ، فأودعتها صفحات الكتاب
وسطوره لتتحيا ما حيا ، وتعيش ما عاش • تركتها تساب من بين أضلعي الواهية

لتكمن فى ثنايا كتابى الفتى ، تحاور قراءه وتحديثهم الاحاديث الشجية والاخبار الحفية عن الجيل الاول فى النهضة العربية الحديثة .

فروحي وهذا الكتاب صنوان لا يفترقان ، لا لانه أحسن كتبى ، بل لانه كتابى الأخير .. أو قل أنها رسالتى الأخيرة التى طالما وددت نشرها منذ سنين ولشد ما خشيت أن تعاجلتى المنية قبل ذلك . فيها هى اليوم جاهزة مكتملة ، وها أنا اليوم لا أمل لى فى طول سلامة .. فما أسعدنى بها .. وما أهناؤنى اذ تمت فصولاً .

ولما بلغ التردى فى صحتى مبلغاً عظيماً اشتدت حاجتى الى من يعيننى فى تهية الكتاب وفى نسج فصوله . وهكذا وجدت فى ولدى عبد الحميد وابنتى ليلى ذلك المعين . فلولاهما لما تمت الرسالة ، ولولاهما لكنت بذلت من الجهد ما يطيح بقواى المتداعية فى أمد قصير .

كانت ليلى تكتب ما أملئ ، وتجمع لى المصادر ، وتستسخ الوثائق والرسائل . ولم أكن أعنى فى تنميق الحديث حين ألقى به اليها ، بل كنت أمله فى لغة مبسطة وعلى شكل مقالات مستقلة ، اذ لم يكن ذهنى المكدود ليتحمل عبء تزويق الحديث وصناعة الكلام .

ثم يأتى دور عبد الحميد ، فكان ، بعد فراغه من عمله اليومى ، ينكب على تلك المقالات يهذب ألفاظها ويصوغ عباراتها ويحكم ربط أوصالها ببعضها ، فيقدم أو يؤخر ، ليسكبها فى قالب قصصى متسلسل . وكان ينفق فى عمله هذا معظم ساعات الليل دون أن يعتوره الضجر أو أن تفتر همته ، ثم يعيد الى الفصول التى أنجزها ، فأمر عليها للمرة الأخيرة ، منقحاً ، ولا أدعها جانباً حتى تروق لعينى .

وهكذا تضافرت جهودنا - نحن الثلاثة - لاتمام هذا الكتاب ، فكلنا نعمل فى تناسق ونظام كما يعمل أفراد فريق الكرة لاصابة الهدف . وانى لفخور اذ أعترف بجهودهما العظيمة هذه . كما ان القارئ الكريم سيجد فى هذا

الاعتراف تعليلاً شافياً لما سوف يللمه من اختلاف بين الاسلوب الذى كتبت به هذه المذكرات والاسلوب الذى طبعت به مؤلفاتى السابقة • وأعتقد أن لى من مرضى عذراً مقبولاً لديه •

ولقد توخيت الصدق والصراحة فى كل حرف من هذا الكتاب ، ولكنى تحاشيت ذكر ما يثير الحواطر ويبلبل الافكار • فمررت على بعض الحوادث المثيرة من الكرام ، لا خوفاً ولا تهيباً ، انما حرصاً على المصلحة العامة ودفعاً للمشقق •

واذا لمس منى شخص ، أو طائفة معينة ، أو أهل مدينة بعض التقرير والانتقاد فى أحد فصول الكتاب فليحملوه محمل حسن القصد ، وصفاء النية ، وسلامة الطوية • فما كنت لأرتضى لنفسى خدش شعور الآخرين ، بل كنت أسعد لو انى استطعت أن أقيل عثرات الناس أجمعين •

هذا والله أسأل أن يهب المخلصين بأساً وعزماً ، وأن يهدى المخطئين الى سواء السبيل ، وان يحفظ البلاد من نوائب الدهر ويلبسها رداء العز ، انه سميع مجيب •

سليمان فيضى

كتب ببغداد فى ١٦ كانون الثانى ١٩٥١



تمهيد الناشر

« هذه رسالتى الاخيرة التى طالما وددت نشرها منذ سنين ، ولشد ما خشيت
أن تعاجلنى المنية قبل ذلك • »

هذا ما قاله أبى فى مقدمة الكتاب وهو ما كان يردده كلما تحدث عن
آماله وأمانيه ••• مدلاً على شدة تعلقه بمذكراته واعتزازه بها • أما آماله
وأمانيه فكانت تلتقى دائماً فى نهاية واحدة ••• فى هذا الكتاب •

أترأه أدرك دنو أجله فلم يتعلل بالبعد من الآمال •• أم تراه يرم بالحياة
فلم يوغل فى القصى من الاحلام •

قال مرة أنه ليتوق الى انجاز طباعة هذا الكتاب فى الربيع • ثم أطرق •
تلك الاطراقة •• كانت تحز فى نفسى ، الا انى لم أثنأ أن أعكر صفوها عليه ،
بل تركته غارقاً فى تأملاته ••

فى الربيع •• حين تتفتح الزهور •• يجلس ، حيث كان فى سريره
قبالة النافذة ، يستقبل النسائم الدافئة •• بصحة موفورة •• حاملاً بيديه
كتابه العزيز ••

يا له من حلم لذيذ •• وأشرق وجهه بالرضى وارتسمت على محياء
الحبيب تباشير البهجة والسرور ، ثم قال جذلاً :-

« أجل فى الربيع •• بحول الله وقوته »

•••••

ثم ••• بعد ثلاثة أيام ••• حين كانت أنفاسه تقترب من الهمود ، وشعلة
الحياة فيه تنخبو الى العدم •• راح يجيل الطرف بين أهله وذويه ، وهم وقوف
حوله ، يشجعهم بسمات مقتصة - كأنه يريد أن يهون عليهم المصاب -
وما درى أن بسماته تلك أطلقت فيضاً من الدموع الحبيسة والأنين المكتوم •

وحانت منه التفاتة الى أوراق الكتاب المقدسة بجواره فأطرق .. لكن
اطراقه - هذه المرة - قوطعت بنشيج أليم .. وزفرات مكلومة ..

ثم فاضت روحه الطاهرة الى بارئها الكريم ...
كان ذلك فى التاسع عشر من شهر كانون الثانى عام ١٩٥١ •

فهذا الكتاب دين فى عنقى ، نشرته بأمانة ، وحرصت على أن لا يتبدل
فيه حرف مما يغير القصد أو يفسد المعنى •

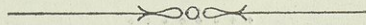
وانى بنشره أبتغى مرضاة أبى • فى قبره •

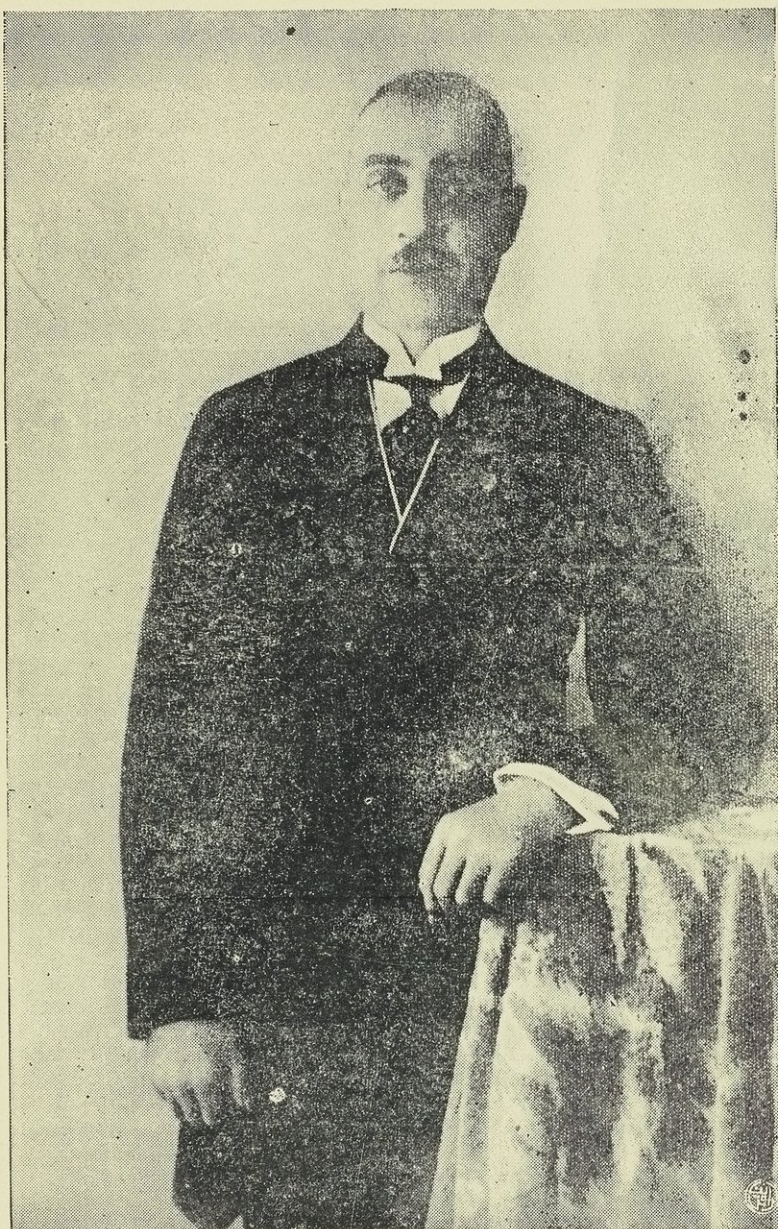
وانى بنشره أسعى الى هناء روحه • • الحالدة فى نفسي خلود نزعته الخير
فى سيرته • •

وعندما يتم طبع الكتاب • • فى الربيع • • حين تتفتح الزهور • • سيسعد
أبى • • ويكمل هناؤه •

عبد الحميد سليمان فىضى

٦ كانون الثانى ١٩٥٢





المؤلف عام ١٩٤٥

۱۱۱۱ ۵۲ ۵۳۴۱

بداية السبائك

الموصل عام ١٨٨٥ م

عندما أذنت الشمس بالمغيب وزحف الظلام رويداً على المدينة ، فاكتنف أزقتها الضيقة ومبانيها الحجرية الداكنة بجلبابه القاتم ، أحاط جمع من النسوة بأمي يرتقبن الحادث السعيد . بينما جلس أبي الحاج داود بن الشيخ سليمان القصاب العوادي ^(١) ، الامام في مسجد الامام ابراهيم في الموصل ، في الغرفة المجاورة يخفي قلقه بالتسييح في انتظار ولادة ابنه الاكبر سليمان .

ولم يطل انتظاره طويلا ، فقد زفت اليه البشري بولادتي بعد ساعة . وحين اجتاز فناء الدار لتقر عينه برؤيتي كان البدر قد اعتلى كبـد السماء الصافية ، فغمر بنوره المدينة النائمة . حدث ذلك في الموصل ، في الرابع عشر من شوال عام ١٣٠٢ الهجرى المصادف لليوم السادس من تموز عام ١٨٨٥ الميلادي .

كان أبي ، شأن أهل ذلك العصر ، يتيمن بالمولود الذكر . فلا غرو أن تبدو هيأته بعد ذلك اليوم طافحة بالبهجة والاستقرار . امتدت الحال هذه بالأسرة الصغيرة تسعة أشهر فقط ، اذ أصيبت أمي بحمى طارئة . واشتدت عليها وطأة المرض ، ولم تكن في ميسور أهل ذلك العصر وسائل الطب الحديث ، فوفيت تاركة وراءها زوجاً مكولماً ورضيعاً يتيماً .

استبد الحزن بأبي أشهراً واستحال استقراره قلقاً وبهجنه كمداً ، اذ كان يفكر في كثير ، أنا البريء الذي نال من العقاب أشده . أما أنا فلم أع ، بالطبع ، شيئاً مما جرى حولى ، ولو أن وفاة أمي كانت نقطة تحول حاسمة في مجرى حياتي . فقد كفلتني جدتي وحتى على حنو الأم على طفلها العزيز . وتزوج أبى بعد أمد ، ونشأت أنا في غير بيت أبى ، وترعرعت في أحضان الجدة الشفوقة . وسعدت بطفولتى بعض الشيء ، وكنت في أعماق نفسى أكن لأبى الاحترام ولجدتي الحب .

(١) نسبة الى جدنا الأعلى عواد العشائرى المتصل نسبه بالسيد أحمد الرفاعى .

مرت السنون فاذا بى صبي هادىء الطبع صلب العود • لقد اثر تيمى
فى طباعى كثيراً ، فلم أعد بالمدلل المترف شأن بعض أترابى الذين أفسدتهم
أساليب التربية فى ذلك العصر •

كنت أُلجأ الى نفسى كلما جدت لى مشكلة ، فجدتى المسنة لم تكن قادرة
على تفهم نفسية طفل صغير • وهكذا نشأت عصامياً منذ نعومة أظفارى ، ولطالما
خلوت الى نفسى أفكر فيها وأستعرض آمال الطفولة وأحلامها • شعرت برغبة
أكيدة فى تعلم الاشياء ، رغبة أشبه بالفضول • كنت أتوق الى المدرسة والى
الانخراط فيها • ولكنى أطعت والدى حين أدخلنى كتاب الحى ، نحفظت
القرآن الكريم ، وأذكر من رفاقى فيه السيد عبدالغنى النقيب ومصطفى
الصابونجى • وتعلمت بعد ذلك شيئاً من أوليات الفقه والتجويد من والدى ،
والاجرومية فى مدرسة جمشيد الوقفية • وحلا لأبى أن أواصل الدراسة
الدنية فى مدارس الاوقاف على أن أزاوول حرفة يختارها لى هو بعد أوقات
الدرس ، شأن أكثريه طلاب العلم آنذاك • اذ لم تكن ساعات الدرس التى

تبدأ قبل طلوع الشمس لتعيق
التلميذ عن طلب الرزق • ثم
ان أبى ، كسائر الآباء يومئذ ،
كان يرى فى أى دراسة أخرى
عدا الدينية هذه الحادا • ولا
غرو فهو الرجل الذى عرف
بالتقوى والزهد •



الحاج داود القصاب

فكرت فى اقتراح والدى
طويلا فشعرت بالخيبة
والخذلان • ان الطريق التى
رسمها لى أبى فى الحياة لم
تكن لتقضى على آمالى
الغالية فحسب بل انها

أساءت الى شعورى اساءة بالغة ، أنا الذى أفقدتلى الظروف أمى العزيزة يوم كنت فى المهد ، وهاهى الآن تجبرنى على السير فى ركاب الأجيال السابقة • وتجسمت لى الحياة الرتيبة التى كنت سأحيها لو استمعت الى نصح أبى • وهالنى السير فى دائرة مفرغة لا أول لها ولا آخر • وازداد ايمانى بنفسى وتمسكى بمطالبي ، فطرقت كل باب لاقناع أبى • ولجأت الى آباء أترابى وأقربائى أسألهم العون ، حتى انصاع والدى أخيراً لهذا الاصرار • وهكذا دخلت المدرسة الاعدادية الاميرية فى شوال عام ١٣١٢ هـ الموافق لشهر تشرين الاول عام ١٨٩٥ م تغمرنى الغبطة والثقة بالفوز •

فى المدرسة الاعدادية الملكية

كانت المدرسة الاعدادية قد أنشئت بدلاً من المدرسة الرشدية الملكية ، وهى ذات خمسة صفوف • دخلت الصف الاول وأنا فى العاشرة من عمري ، وبسرعة عجيبة تألفت قلوب الصغار القلائل فى الصف ، والذين أذكر منهم : مولود مخلص ، عارف العارف ، ناظم العمرى ، اسماعيل سنشل ، داود الحيدرى ، قاسم الشعار ، وأكرم العمرى • وبغلق أبواب المدرسة الرشدية الملكية ذات الصفوف الثلاثة ، انضم خريجوها الى الصف الرابع من مدرستنا لاكمال تحصيلهم فيها • وأذكر منهم :-

داود الحلبي ، محمد رؤوف العطار ، داود سليم ، على جودت ، قاسم محمد على ، محمد على مصطفى ، صديق الدملوجى ، فاروق الدملوجى ، وأمجد العمرى وغيرهم •

اكتمل عقد الطلاب وسارت الدراسة فى المدرسة سيراً حثيثاً • وكانت العلوم كلها تدرس بالتركية ، حتى اللغة العربية وقواعد النحو والصرف ، ولما كنت أجهل حتى مبادئ هذه اللغة فقد وجدت فى دراستها بادية الامر

مشقة كبرى • وأنست في زملائي سعيًا وجدًا فلم أشأ أن أتخلف عنهم ،
فكنت في الطليعة دائماً • وأقبل الاساتذة على التدريس بشوق حين لمسوا في
طلابهم النباهة • وكانوا على جانب كبير من الفضل ودمامة الخلق • فمديرنا
توفيق بك استأنبولى كان الى جانب شدته وصلابته رقيقاً حليماً • وكان ابراهيم
أفندى معلم العقائد الدينية واللغة العربية عالماً فاضلاً • بينما كان الحاج أحمد
أفندى الجوادى تقياً ورعاً ، وأحمد أفندى آل قاسم أغا معلم التركية
أديباً بليغاً •

ولم تكن الحياة في المدرسة لتخلو من الهزل والمرح ، فكثيراً ما نظم
أساتذتنا السفرات في البرارى المحيطة بالمدينة ، حيث كنا نتمتع بالطبيعة الخلابة
ونرقب النهر وهو ينساب برفق بين التلال المكسوة بالشقائق والازهار • وكان
يحلو لنا مشاهدة الموصل عن بعد وقد بانَت ما ذُهِبَ الشاهقة وتناثرت قب
المساجد هنا وهناك •

وكانت العادة الجارية يومذاك أن يهتف الطلاب ثلاثاً بحياة السلطان كلما
حان وقت الانصراف : (ياد شاهم چوق يشا) ؛ ولبثت أياماً أردت الهتاف بصورة
مغلوبة ، كالبيغاء التى تقول ما لا تفهم : (باطشان قاطشان) • ولشد ما سرنى
بعد ذلك أن أحدا لم يكتشف خطأى الفاحش فأنازل بسببه العقاب •• اذ كيف
لا يدعو طالب صغير للسلطان بقلبه ولسانه !•

وان أنس لا أنسَ يوم شربت الشاي لأول مرة فى حياتى • كان ذلك
فى صباح يوم دافئ من أيام الربيع ، وبينما كنت فى طريقى الى المدرسة، دلفت
الى دار صديقى محمد زين العابدين ليصحبنى ، فإذا بى أمام منظر غريب • كان
أهله واخوته الجالسون فى فناء الدار يحيطون بشيء شديد اللمعان خلاب
المظهر ، وكانوا يفتحون حنفيته الجانبية ليملاؤا أقداحهم الزجاجية الأنيقة
يسائل أحمر اللون يتصاعد منه البخار ، ثم يعبون فى أجوافهم بلذة ذلك
السائل الغريب •• ولما لاحظ أهل البيت دهشتى ، دعونى الى مشاركتهم •
فتناولت الكأس وشربته بنهم • لم يكن هذا السائل الغريب سوى الشاي ••

والجهاز اللامع لم يكن الا السماور •• أما الاقداح فكانت الاستكانات • كل هذه الاشياء كانت قد جلبت من ايران ، اذ لم يكن أحد من أهل البلد ليعرف الشاي أو ليشربه • ولم تكد تمر بضع سنوات على الحادث حتى صار تناول الشاي عادة شائعة ، يقدم في المقاهي والاندية ويشربه الغنى والفقير •

مرت الايام سراعاً فاذا بى أتم السنة الرابعة من دراستى • وفى ذات يوم همس أحدهم : لماذا لا نذهب الى بغداد لنخرط فى المدرسة العسكرية ؟ • وسرت الهمسة بيننا مسرى النار فى الهشيم • من منا لا يحلم بملايس انضباط الأنيقة ، وبسيوفهم المهيبة •• وبذلك الانجم اللامعة على الاكتاف والازرار المذهبة التى تخطف الابصار • وتبلورت لدينا الفكرة فأزمعنا على الرحيل •

حزمت أمتعتى البسيطة وأنا جذلان ، وقابلت اعتراضات أبى وأهلى بعناد واصرار • فلم يروا بداً من الرضوخ • وأزف يوم السفر فكان وداعاً حاراً وكانت دموعاً سخينة • وهناك على شاطئ دجلة اجتمع حشد صغير من الاهل والاقرباء والاصحاب لتوديعنا ، وكانت (الاكلاك) فى الانتظار • أما رفاقى فى السفر فهم :

على جودت ، وداود سليم ، وقاسم محمد على ، ومولود مخلص ، وتوفيق فكرت ، ومحمد شيت ، ومحمد على مصطفى الامام ، وشهاب الدين ، وسليمان حكمت •

بغداد عام ١٨٩٩ م

انسابت الاكلاك مع التيار المنحدر فلبثت صامتاً أقرب المدينة الجميلة وهى تبعد رويداً رويداً • وشعرت بالوحدة للمرة الاولى كأن نشوة الفرح بالرحيل قد انقشعت فجأة • ولكن وحشتى لم تدم طويلاً ، فقد شغلت بعد حين بالمنظر الجميلة على ضفتى النهر وبمراقبة أعواد الكلك وقربه وهى تترنج مع الامواج كلما هب النسيم • كان ركوب الكلك اعتيادياً آنذاك ، الا انه فى حد ذاته مغامرة طريفة • فحين تشتد الريح يخرج الركاب من عرشهم ليرقبوا الربان

ومساعديه وهم يدفعون الشاطئ الصخري بعصيمهم الطويلة خشية الاصطدام به . مرت خمسة أيام ونحن على هذا المنوال ، حتى استقبلتنا بغداد بما آذنها العديدة وقصورها الرابضة على ضفتي النهر . وكان التعب قد أخذ منا مأخذه ، فاستغرقنا في سبات عميق وأصبنا من الراحة قسطاً وافراً .

وبكرنا في صباح اليوم التالي بمراجعة المدرسة الرشدية العسكرية ، فلم نلق الترحيب الذي كنا نتظره ، بل أقيمت في وجهنا العراقيل . ولم يتم قبولنا في المدرسة المذكورة الا بعد مخاضات طويلة مع وزارة الحربية في استنبول .

لم تكن بغداد في ذلك الحين بالمدينة الكبيرة . فالعمران فيها يكاد ينحصر بين باب المعظم شمالاً وبين منطقة السيد سلطان على جنوباً . وما عدا ذلك فبساتين تفرقت بينها دور القنصليات المشادة على ضفة النهر . ولم يكن في المدينة حتى ولا شارع واحد بل مجموعة من الازقة الضيقة المتوية التي يشاهد مثلها الكثير في الاحياء القديمة اليوم .

لم يكن يسمح لنا بالخروج من المدرسة الا في أيام الجمع والعطلات الرسمية . وكان الواحد منا يحار في قضاء هذه الاوقات على قصرها بسبب انعدام وسائل التسلية آنذاك . كنت أفضل الذهاب الى جامع السيد سلطان على لمشاهدة حلقات الذكر التي كان يحييها المرحوم الشيخ ابراهيم الراوى عصر كل يوم جمعة ، أو نذهب زمراً للتفرج على الوحوش الكاسرة التي كان محمد باشا الداغستاني يحتفظ بها في اصطبلاته في باب المعظم . وكنا اذا أضربنا الجوع أسرعنا الى الصابونية حيث الكباب المشهور . ولم يكن أحدنا ليجرأ على التزهر في البساتين المتاخمة للمدينة خوفاً من السلب في وضح النهار .

في المدرسة الاعدادية العسكرية

استقر بنا المقام في القسم الداخلي من المدرسة الاعدادية ، ونسبت الادارة التحاقنا بالصف الثالث الرشدي . وكانت أبنية المدرسة الرشدية تشغل الحيز الذي تشغله الثانوية المركزية في الوقت الحاضر ، بينما كانت الاعدادية العسكرية تشغل بناية دار المحاكم القائمة حتى اليوم .

وفى اليوم الاول بعد افتتاحها تلا المعلم أسماء الطلاب الجدد ، فلما ورد اسم سليمان الموصلى أجاب طالبان فى وقت واحد بالحضور ، اذ كان لى زميل موصلى اسمه سليمان • فرأى مجلس المدرسين ، منعاً للالتباس ، أن يختار كل منا لقباً يضاف الى اسمه • فاختار صديقى لقب حكمت وصار يدعى سليمان حكمت ، أما أنا فقد ارتأى مدير الاعدادية تسميتى بسليمان فيضى ، تيمناً بأسم المشير العثماني أحمد فيضى باشا • ومنذ ذلك الحين عرفت بهذا الاسم •

كانت الدروس فى الرشدية العسكرية تنقسم الى المحاضرات النظرية ، والتدريب العملى ، مع الاهتمام البالغ بالرياضة البدنية ، حتى كنت ترى ساحة المدرسة مليئة بالأجهزة والأدوات الرياضية • وكنا نقضى الساعات الطوال فى مذاكرة دروسنا فى الأمسيات • وكنت أسرف فى المطالعة لعلمى بما سيصينى من انتكاس لو قدر لى الفشل • وأثرت هذه المجهودات المضنية تأثيراً سيئاً فى صحتى ، يضاف الى ذلك تبدل المناخ على وضعف بنيتى فى الأصل ، حتى أصبت ذات يوم بدوار شديد الجأئى الى الفراش • ومنذ ذاك والدوار يتكرر بين حين وآخر وهو يزداد شدة عن ذى قبل ، حتى جاء اليوم الذى فقدت فيه وعيى ، ثم وجدت نفسى مسجى على سرير فى المستشفى محاطاً بزملائى • وكان المستشفى الوحيد فى بغداد فى ذلك الحين ويشغل القسم المخصص لدار التمرىض من المستشفى الملكى القائم اليوم •

لبثت فى المستشفى بضعة أيام • وكان للراحة التى أصبتها هناك فعل السحر فى استرداد صحتى ونشاطى ، فعاودت الدراسة • وحالفنى النجاح فى السنة الاولى والثانية من الرشدية العسكرية ، فانتقلت وأترابى الى الاعدادية العسكرية ، وتدرجت الى الصف المنتهى من المدرسة المذكورة •

لقد وثقت هذه السنين الخمس بين أبناء صفنا أوامر الأخوة والمودة ، وأزالت الفوارق الاقليمية بين الطلاب القادمين من شتى أنحاء القطر • فكان من زملائى فى الصف عدا الموصليين : نورى السعيد ، عبد اللطيف نورى ، طه الهاشمى ، عبد الحميد الشالجي ، نظيف الشاوى ، أحمد رشدى ، رؤوف الكيسى ، خليل زكى ، وخالد الزهاوى •



المغفور له جلالة الملك فيصل الاول

واقتربت الامتحانات النهائية فازداد بأقترابها سعيها واجتهادها • كنا نتوق الى جنى ثمار الأتعاب الطويلة التي بذلناها في هذه المدرسة • وأوشكت آمالنا بالسفر الى استانبول ، للالتحاق بالكلية الحربية ان تتحقق بعد أيام قلائل ، لولا أن حدث ما لم يكن في الحسبان • فقد حدثت مشادة كلامية بين اثنين من زملائي ، ثم تطور النزاع الى الضرب ، وحين أمعن أحدهما بضرب الآخر ضرباً مبرحاً لم يسع رفاق هذا الا مناصرته ، فخف زملاء الاول أيضاً الى مؤازرته وتوسعت شقة النزاع •

اتتهى النزاع بتدخل المسؤولين ، وقدم الطلاب الثمانية المتخاصمون المذكورة أسماؤهم أدناه الى مجلس المدرسين لمحاكمتهم :-

مولود مخلص (الموصل : تخرج ضابطاً وارتقى الى رتبة أمير لواء وهو الآن عضو في مجلس الاعيان •) شاكر وفي (الموصل : تاجر أثاث) مصطفى عزيز (استانبول : مهندس ميكانيكى) سليمان فيضى (الموصل : المؤلف) سعيد سارة (بغداد : مزارع) عبدالرزاق حلمي (بغداد : موظف أوقاف متقاعد) اسماعيل حقي (بغداد : الأخ الأكبر للمرحوم ابراهيم كمال وزير المالية الأسبق) فؤاد نظيف (الشام : موظف متقاعد) •

أحال مجلس المدرسين أوراق التحقيق الى نظارة الحربية في استانبول فأصدرت حكمها بفصل الطلاب المذكورين فصلاً نهائياً من المدرسة ، على أن يلحق من هم في السن القانونية للجندية بالخدمة الفعلية فوراً ، ويؤجل من لم يبلغها حتى بلوغه السن المذكورة بعد ربطه بكفالة •

لم يكن أحدنا لينتظر مثل هذا الحكم القاسى بسبب تهمة تافهة • ان قرار الفصل المذكور لم يكن الا مثلاً واحداً لآلاف المظالم التي كان يرتكبها المسؤولون يومذاك بحق المواطنين • لقد كانت الصدمة عنيفة ، شعرت بوطأتها حين التفت حولى فوجدتني وحيداً في خضم الحياة القاسية • فقدت آمالي بالتخرج ضابطاً ، وضاعت أتعابى دفعة واحدة ، وتلاشت أحلامي كما تتلاشى ذرات الملح في قطرات الماء • ولم يفت في عضدى شيء كما فت فيها خوفاً

من الانخراط فى الخدمة العسكرية • وساعدنى على تأجيل الخدمة المذكورة كون ولادتي كانت مسجلة بدفتر النفوس عام ١٨٨٨ • فلجأت الى المرحوم الحاج عبدالله التوحلا التاجر الموصلى المعروف سائلاً عونهُ ، فأبدى الرجل من الشهامة ما هدأ خاطرى ، ووقع الكفالة على الفور وأنقذنى من ورطتى •

كانت الخدمة العسكرية لامثالنا تسمى (الزجرى) • وهى ست سنوات متوالية غير قابلة للتخفيف بالبدل النقدى • ولا ينجو من شرها أحد الا بارادة سنية من السلطان ! • فكيف السبيل الى ذلك • أعملت الفكر أياماً فهدانى الى طريقة ربما أفادت • وهى ان أسعى الى وساطة الامير عبدالعزيز الرشيد ، أمير نجد فى ذلك الحين ، الذى كان ذا حظوة لدى السلطان • فعزمت على الرحيل الى نجد والدخالة عليه •

فى الطريق الى نجد

راحت الباخرة النهرية تتهدى فى دجلة وقد ازدحمت سطوحها وغرفاتها بالمسافرين • واستغرقت الرحلة الشاقة ستة أيام ، وحين أشرفنا على القرنة بانت على الجانبين غابات النخيل الكثيفة ، وامتدت هذه الكتل النباتية الخضراء حتى وصلنا البصرة •

رست الباخرة فى العشار فأنزلت أمتعتى ودخلت المدينة ، وبادرت بالسؤال عن خان أضع فيه أمتعتى ، اذ لم تكن الفنادق لتوجد فى ذلك الحين • فاذا بالصدف تسوق الى الحاج طه الموصلى الذى كان يعرفنى من قبل وكان صديقاً لوالدى ، وهو الذى أقام فى البصرة واشتهر فيها بتجارته الواسعة وشمائله الطيبة وكرمه الخاتمى ، حتى أن داره كانت محط رحال الغادين والرائحين • فدعاني بالحاح لا يقبل الجدل للاقامة فى داره ، فلم أر مناصاً من قبول دعوته • لم أطل المكوث فى البصرة ، اذ كان جل همى الوصول الى نجد بالسرعة الممكنة ، فرحلت عنها فى شوال سنة ١٣٣١ هـ المصادف كانون ثانى سنة ١٩٠٤ م مع أول قافلة للحجاج •



الحاج طه الموصلي

غادرت القافلة الزبير مع طلوع الشمس • وكان الوقت شتاء وقد تدبرنا باللبسة الصوفية اتقاء البرد ، فاستقبلتنا نسائم الصحراء النقية المنعشة • وسارت الابل في نسق بديع وهي تلقى بأخفافها على الرمل فتطبع عليه صوراً متشابهة ، وكان لوقوعها خفيف بديع • • • • • انصبت اليه فاذا بي أعود الى أعماق الماضي السحيق • ان هذه الالحان الرتيبة لم تخفت يوماً منذ ان وجدت الابل في

الصحراء ، أنها توقع المحن ذاته في ذهابها وايابها منذ آلاف السنين • وهذه التلال الرملية المتموجة التي لم تمتد اليها يد انسان منذ الأزل كانت تذكرني بأمواج النهر المتلاطمة • • • • • لله ما أروع الطبيعة • • انها لم تعدم حتى هذه الرمال المقفرة الجمال والبهاء •

وأوغلت القافلة في ذلك الخضم اللانهائي من الرمال البيضاء وهي تحت الخطى لتبلغ نبعاً قبل حلول الظلام ، والدليل البدوي يسوسها بدراية الخبير الوائق • فكان يبدل الوجهة كأنه يتبع آثاراً وعلائم خفت عن عيوننا • وصلنا البشر أخيراً ، فحطت القافلة الرحال ، وأسرعنا الى البشر ندلى بدلائلنا فيها • وكانت مبنية بالحجر بناءً محكمًا ويقال أنها ، وكل الآبار الأخرى في طريق الحج ، حفرت في زمن العباسيين • وانقسم المسافرون زمراً ، فكنت ترى الكل في شغل شاغل بين محطب ، وموقد للنار ، وطاه ، وخباز ، ومورد للابل ، وناصب للخيام •

رأيت فى تلك الليلة أشياء طريفة من جملة الطريفة التى يحضر بها البدو خبزهم • فالعجين يلقى على قطعة من الجلد المدبوغ يدعى النطع ، وتحفر فى الأرض حفرة مستديرة يوضع فيها النطع لكى يأخذ العجين شكل قرص سميك • وعلى جانب من الحفرة توقد النار ويلقى القرص برفق عليها • ثم يهال الحطب فوقه ويوقد أيضاً • وهكذا تعمل النار فى وجهى القرص وعند نزوجه يكون قد استحال الى قطعة سوداء لا تخطئه بالرماد والفحم ••• حينئذ يضرب بالعصى لتنفذ عنه تلك الشوائب •

قضينا ليلة هادئة ، وكان الرجال يتناوبون الحراسة حتى الصبح • وقبل بزوغ الشمس استأنفت القافلة سيرها ، حتى اذا ما جن الليل خلدت الى الراحة حول بشر أخرى • وفى الايام التالية رأينا من أعاجيب الصحراء الشئ الكثير ، فثارة نشق طريقنا بين الرمال الحمراء ، وأخرى بين رمال بيضاء كالديق ، ثم اذا بنا نجتاز أرضاً مشبعة بالحصى أو مغطاة بأشواك الشيح ، والرمث ، وأدغال القيصوم •

مررنا بواحات خصيبة كثيرة الحفرة حلوة المياه ، وبمضارب للبدو الرحل فى جوف الصحراء ، ونزلنا بقرى صغيرة يعيش فيها الناس كما عاش أجدادهم قبل آلاف السنين ، وشاهدنا أسراب الطباءة تورد من مياه المطر •

وبعد مرور أربعة عشر يوماً قضيناها فى سير حيث لاحت لنا مشارف حائل فهلل القوم بشراً وسروراً • دخلنا المدينة فاذا بها عامرة تكتظ أسواقها ببشتى أصناف البضائع ، وفيها مساجد ومدارس ، دورها كثيرة وجلها مشيد بالطين • تحيط بها النخيل وأشجار الفواكه المثمرة • ويتاخم المدينة جبلا (طى) و(أجا وسلمى) وعند الاول كان يقيم حاتم طى الجواد الشهير (جد أولادى لأئهم) • وفى حائل علمت ان الامير عبدالعزيز الرشيد كان قد غادرها على رأس جيشه الى جهة مجهولة للملاقاة جيش الامام عبدالعزيز السعود الذى كان قد دخل الرياض فاتحاً واندفع بجيش الوهابيين جنوباً للسيطرة على ما تبقى من نجد •

ولدى سماعي النبأ تجسمت لى المصاعب التى ستعرض سبيلى * اذ لم تكن مقابلة أمير نجد فى ذلك الظرف العصيب وتلك الحرب الضروس بالأمر الهين * الا أن شبخ (الزجرى) كان أبدأً يلاحقنى ويهيب بى أن أنجز ما بدأت به ، فعولت على مواصلة السير * وبينما تابعت القافلة الكبرى سيرها الى مكة المكرمة ، توجهت أنا فى قافلة ، تتألف منى ومن اثنين آخرين فى صحبتى ، الى عنيزة * وأوغلنا أياماً فى القفار المنبسطة شمالاً ، فوصلناها بعد أن مررنا فى طريقنا بريدة •

وعنيزة هذه مدينة ليست بالصغيرة * هواؤها عليل ومياهها غزيرة ، تكتنفها الاشجار من كل صوب ، وتحيط بها قرى صغيرة * يمتن أهلها الزراعة حيث تتوفر الآبار وعيون الماء •

نزلت ضيفاً على الحاج عبدالله البسام ، اذ كنت أحمل اليه رسالة من ابنه الحاج ابراهيم فى البصرة * ولقيت منه ومن أنجاله الثلاثة على وفهد ومحمد اكراماً عظيماً وترحيباً فائقاً •

أقمت فى عنيزة ثمانية أيام أنست فيها بصحبة مضيفى الكرام * وكنت أصحب أنجالهم الى العروضات حيث يرقص الرجال بالسيوف والبنادق على قرع الطبول ، وكانت هذه العروضات تكاد لا تنقطع ليل نهار ، اذ هى بمثابة الدعوة الى التفرغ العام * فجيئش ابن السعود كان يزحف جنوباً كما ذكرت ، وكانت مدن نجد الجنوبية التى لا تزال تحت أمرة آل الرشيد تنهياً للدفاع عن نفسها •

بعد لائى علمنا على وجه التحقيق الارض التى نزل بها الامير وجيشه ، فاستأجرت ذلولاً وصاحبها وغادرت عنيزة برفقة أربعة من أهاليها ، أحدهم الشيخ سليمان الرشيد أحد مشاهير العلماء فى نجد ، وكانوا يقصدون الامير أيضاً • وحين ودعت آل البسام زودني الحاج عبدالله بكتاب شخصى الى الامير لتسهيل مهمتى •

تحررت بنا القافلة فى صباح يوم عرفة ، فلما حلّ يوم العيد الأضحى

الاول وصلنا قرية (حنيطل) ، واذا بالاهازيج والعرضات على أشدها • ورحب بنا القوم وأصروا على مشاركتنا أيامهم في غذاء العيد فاستجبنا دعوتهم • ثم حتى اذا كان المساء مررنا بقرية (أبى الدود) وتناولنا عشاء العيد مع أهاليها نزولاً عند رغبتهم • ان المرء ليعجب من كرم أهل نجد ، فهذا الشعب الفقير كان يبدى من اكرام الضيف أمثلة رائعة •

وبعد صلاة العشاء استأنفنا السير ، وكان الهواء عليلًا يبشر بطلائع الربيع ، وكنا نسرى عن أنفسنا بتبادل الاحاديث الطلية والمطاردة بالأبيات الشعرية • وكثيراً ما حدثنا رفقاؤنا من البدو عن مغامرات وحوادث طريفة وقعت لهم • وانك اذ تستمع اليهم يحدثونك عن أسرار هذا الحضم الرملى الكبير يتسرب حبه الى قلبك ، وتود لو انك عشت عمرك في هذا الجو الذى يتميز بالبساطة والطهر •

كانت قرية (أبى الدود) آخر معالم الحضارة فى وجهتنا الجديدة • اذ مرت علينا خمسة أيام فى سير متواصل لم نر فيها بشراً أو طيراً • وفى صباح اليوم السادس ، بينما كانت الجمال تسرع الخطى بين الاشواك ، لاح لناظرنا شبح رجل ساجد بين الاعشاب • فلما اقتربنا منه الفيناه فى الرmq الأخير ، فأسعفناه بجرع صغيرة من الماء ، ثم عصرنا له التمر بالماء وسقينا من العصير جرعة صغيرة • فتفتحت عيناه وحاول الاعتدال فى جلسته فأعنا ، وأوماً بيده يطلب المزيد فأعطيناه شيئاً قليلاً • وتحسنت حاله بعد حين ، ولكنه لم يكن قادراً على النطق بعد ، فرأينا أن نحمله معنا الى من نصادف فى طريقنا من أهل البادية • وأركبناه ناقه ، فاعتدل على ظهرها ببعض النشاط وأمسك بزمامها ، ثم طلب تمراً فأعطيناه • وبعد أن أكل بضع تمرات سقط من ظهر الناقة ميتاً لا حراك به • واريناه التراب واستأنفت القافلة سيرها المعتاد • ورحت أعجب من أمر هذا الرجل الذى كتب له أن يبقى حياً حتى يستوفى رزقه من الماء والتمر قبل أن يموت • وبعد مسير يوم كامل لقينا بعض الاعراب فاذا بهم أهله ، وقالوا انه فقد من القافلة قبل خمسة عشر يوماً • وحين بلغهم نبأ موته لم يبكون ولم يولولوا ،

قتلك سنة الصحراء • • والموت لابد مصيب كل من يضل سبيله • أما أنا فقد
عاهدني التفكير فيه • • كيف عاش الرجل خمسة عشر يوماً في ذلك المكان ؟
لا بد أنه كان يقتات على الاعشاب ويشرب من مياه الامطار • ترى كم قاسى من
الآلام : الجوع ، والعطش ، والوحدة القاتلة ، والأمل المفقود • •

مع ابن الرشيد

فى صباح اليوم الرابع عشر بعد مغادرتنا عيزة لاحت لنا فى الأفق البعيد
نقاط بيضاء يتخللها السراب ، حتى ليتوهم الناظر انه مخطئ فيما يرى • ولكن
ها هى ذى النقاط تكبر شيئاً فشيئاً • • انها بلا شك خيام ابن الرشيد • اذن
فقد وصلنا أخيراً • • يا للفرحة الكبرى • ها هى ذى الآمال تتحقق ، وسيساعد
على تحقيقها خلود الامير الى الراحة وتفرغه الى أمور الرعية بالاضافة الى
أمور الجيش المرابط •

كان المعسكر المترامى الاطراف ينبىء ناظره بضخامة جيش ابن الرشيد •
وقد قضينا وقتاً ليس باليسير فى طريقنا بين الخيام المتناثرة الى مقر القيادة الواقع
فى قلب المعسكر • وهناك جرى استجوابنا من قبل رجال الجيش عن هوياتنا
وأغراضنا من القდوم • ثم أنزلنا فى خيمتين هيئت لنا فيهما الأفرشة اللازمة •
ولما أتى أحد كتاب الامير ليسجل أسماءنا ومقاصدنا أعطيته كتاب البسام •
وعاد بعد ساعة وأخبرنى بأن الامير سوف يقابلنى عصر ذلك اليوم •

وفى تمام الساعة الرابعة حضر الكاتب ورافقنى الى خيمة الامير • كان
عبدالعزیز الرشيد يجلس مع بعض وزرائه ومقربيه على الارض المكسوة
بالسجاد ، وقد اتكأ على شداد ذلول مغطى بجلد الماعز الابيض المسمى (جاعد) •
سلمت على الامير فرد السلام مرحباً وأشار الى بالجلوس فجلست • وعندما
زال الاضطراب الذى أصابنى حين ولجت الخيمة ، تطلعت جيداً فى وجهه
فراغنى ما هو عليه من قوة الشخصية •

كان شاباً فى الخامسة والثلاثين ، أسمر الوجه ، ذا هيئة ووقار وعينين
قاسيتين ونظرات نفاذة ، معتدل القوام صلب البنية ، تتوسم فيه الاقدام والجرأة

لأول وهلة • اذا جلس وضع السيف في حجره ، واذا مشى حمله بيده •



الامير عبدالعزیز الرشید ونصري باسم القائد العام
للجيوش العثمانية في العراق

وبعد أن هنأني على سلامة الوصول واستوضح عن تفاصيل الحادث الذي وقع لي في المدرسة أطرق قليلاً ثم قال :-

(ابشر بنجاح مظلومك ان شاء الله ، استرح عندنا يا سليمان حين ما نتكرب من السماوة ونيتل^(١) لهم باللي تريده) •

(١) نبرق •

فشكرته كثيرا • ثم سألنى عن الوساطة التى حملتنى اليه ، فأخبرته بأنها
ذلول مستأجرة فقال : (رخص الذلول يا ولدنا وحنا نعطيك وحدة) •

وأمر باحضار الكاتب المدعو عبدالله الحمود ، فأوصاه بانزالى فى خيمة
مناسبة مع من أشاء من رفاقى ، وبالعناية بطعامى ، وبتخصيص ذلول تكون فى
امرتى مع رجل يعنى بها • فاستأذنته وانصرفت وانا اكاد اطيّر من شدة الفرح •
لقد تبدلت الحياة فى نظرى بعد تلك المقابلة من العتمة الى الاشراق ،
وشعرت كأن كابوسا ثقيلا قد أزيح عن كاهلى •

وفى اليوم التالى ودعنى صاحب الذلول بعد ان زوده بمأموّر التموين بما
يكفيه من السمن والدقيق والرز •

كان ركب الأمير يسير أربع ساعات كل يوم • وكان منظر زحف ذلك
الجيش اللجب ، الذى يتجاوز مدى البصر شرقا وغربا ، مثيرا فى حد ذاته •
أما الغبار المتصاعد من حوافر الركائب فكان يرتفع الى غنان السماء ، وكنت
تسمع صوتا ، كدوى النحل لا ينقطع ، ما هو الا مزيج من أوامر القادة
وأحاديث الرجال وحديثهم وصهيل الخيل ورجاء الابل •

وفى الليلة الثالثة جاءنى الكاتب عبدالله الحمود وطلب منى مرافقته الى
مقر الأمير • وجدت الأمير جالسا فى العراء مع بعض وزرائه ، وبيده ثلاث
برقيات مطولة تعسر على كتابه قراءتها ، اذ كانت مكتوبة بخط ردىء ، وطلب
منى قراءتها • كانت احداها من تحسين بك رئيس ديوان السلطان ، والثانية
من وزير الحربية ، والثالثة من احمد فيضى باشا مشير بغداد • فلما أمعنت
فيها النظر انجلت لى معمياتها ، فنال ذلك من الأمير غاية الاستحسان ، وعرض
على البقاء فى معيته ، فشكرته واعتذرت واستأذنته بالانصراف •

وفى يوم ١٦ محرم عام ١٣٢٢ - ٣ نيسان عام ١٩٠٤ قابلت الأمير ،
وكنا قد اقتربنا من السماوة ، فأطلعت على رغبتى فى السفر اليها على جناح
السرعة لارسال البرقية العتيدة ، فاستصوب رأيى وأمر بحضور أحد كتابه ،
فلما حضر أملى عليه نص البرقية التالية :

(باش كتابة ما بين همايون تحسين بك • استانبول

ادام الله وجود افندينا المعظم سليمان فيضى الموصلى كان بمكتب بغداد
صنف ثالث اعدادى عسكرى واخرجوه من المكتب ونظاما الذى يخرجوه
من المكتب يعملوه عسكر زجرى والمذكور طب علينا وترجا منا تعريفكم برفع
الزجرى عنه وتعملون له معاش ودمتم سالمين •

عبدالعزیز الرشید

٢٢ مارت سنة ١٣٢٠ رومى

ثم ختمها وناولنى اياها وقال :-

لا أقصد من تسليم البرقية اليك معنى الايدان بالسفر ، انما انت مخير
بالبقاء معنا ريثما يرد الجواب • فلما رجحت السفر الى البصرة ، أشار عليّ
بمراجعة معتمده فيها خالد باشا العون شيخ الزبير للاستفسار منه عن جواب
البرقية عند ورودها • فشكرته وانصرفت •

كان هذا آخر عهدى بالأمر عبدالعزیز الرشید • اذ لم تسمح لي
الظروف بملاقاته ثانية كما سيأتى ذكره فى الفصل التالى • لقد قال المؤرخون
عنه أشياء كثيرة ، ورأوا فيه آراء شتى • اما انا فقد رويت قصتى معه بأمانة ،
تلك القصة التى تؤكد شهامة الرجل وكرمه •

العودة الى العراق

أخذت مكاني على ظهر الذلول وشمس اليوم التالى لم تبرز بعد • ووليت
وجهى شطر السماوة ، ورحت أتسلى بالحديث مع الرجلين اللذين ارسلهما
الأمير لمرافقتى الى هناك • كان ذلك فى صباح يوم ١٧ محرم سنة ١٣٢٤ هـ
المصادف يوم ٤ نيسان ١٩٠٤ م • وصلنا السماوة بعد يومين كاملين ، فأذنت
للرجلين بالعودة ، وزودتهما بكتاب شكر للأمير • وأسرعت الى دائرة البرق
فأرسلت البرقية • ولبت فى المدينة يومين ريثما تهيأت لى سفينة شراعية ميممة
شطر البصرة • فالتحدرت بنا المهيلة^(١) مناسبة بين الأهوار المكتظة بالقصب

(١) اسم يطلقه أهل الجنوب على السفينة الشراعية •

• والبردى • وكانت اذا عاكستنا الريح نزل الملاحون الى البر وجروها بالحبال •
 كنت أرقب القرى المتناثرة فى عرض الهور ، وأكواخها المشيدة بالقصب
 والبوارى ، حيث يحيا الانسان والبهائم حياة واحدة تحت سقف واحد •
 وكانت الزوارق المطلية بالقار (المشاحيف) تقوم بين القرى مقام القطر
 والسيارات ••• وكانت تلذ لي مراقبة المعدان^(١) فى صيدهم بالفالة^(٢) التى
 قلما تخطى سمكة مهما ضال حجمها •

استغرقت الرحلة أحد عشر يوما ، فوصلت البصرة متعبا • وفور وصولي
 قابلت الشيخ خالد باشا العون شيخ الزبير ورويت له الحكاية وبلغته توصية
 الأمير فوعدنى باعلامى بالنتيجة حال وصولها •

لبثت فى البصرة ستة أشهر وجواب البرقية لم يصل بعد •• يا له من
 انتظار شاق • وكنت أقيم كل هذه المدة فى دار الحاج طه چلبى الموصلى ،
 وأعمل مترجما بالوكالة فى القنصلية الايرانية نظرا لامامى بالفارسية واتقانى
 التركية • ولم استحسن مراجعة خالد باشا لعلمى بالطرف العصب الذى يحيط
 بالأمر ابن الرشيد وبالحرروب الطاحنة التى كانت تدور رحاها آنذاك مما يشغله
 عن برقيتى • وصادف يوما أن قدم البصرة الشيخ سليمان الرشيد ، رفيقى فى
 معسكر ابن الرشيد ، فبشرنى بورود جواب البرقية ، وقال انه بعد حوالى
 العشرة أيام على مغادرتى المعسكر ، وبينما كان هو جالسا فى مجلس الأمير ،
 اذ وردت عدة برقيات كان مضمون احداها أن (افدينا السلطان أظال الله
 عمره) •• قد استثنانى من الخدمة العسكرية وخصص لى راتبا شهريا قدره
 ثلاث ليرات •

سرتنى هذه البشرى كثيرا ، وشعرت بالاطمئنان بعد طول قلق • وأصبح
 من الضرورى أن أضع الأسس لمستقبلى بعد كل ذلك التبلل • وكانت
 الخطوة الاولى هى الحصول على صورة خطية للأمر الاستثنائى • لذا سافرت

(٢) قصبة ذات اسنان حديد •

(١) سكان الاهوار •

الى بغداد ، وبذلت فيها جهودا مضنية لم أفر منها بطائل ، بسبب اشغال المشيرية بأمر الحرب في نجد . فعوّلت على السفر الى السماوة ثانية ، لعلّ أوفق للحصول على صورة البرقية الجوابية . وفعلا سافرت ، ولكن جهودى فيها ذهبت أدراج الرياح ؛ فقد اعتبرت دائرة البرق هناك جميع المراسلات بين ابن الرشيد واستانبول اسرادا حربية لا يسمح بالاطلاع عليها . الا أن احد الموظفين العاملين فى الدائرة المذكورة قال انه يذكر ورود برقية بهذا المعنى .

عدت الى البصرة وفضلت التريث . ثم أعدت الكرة ثانية بعد شهرين ، وشددت الرحال الى بغداد فحالفنى التوفيق هذه المرة . وقرأ على احد موظفى دائرة الأركان ، المدعو محمد افندى ممش اغا ، الشرح التالى الذى وجده على هامش عريضتى :

«بناء على التذكرة الواردة الى وزارة الحربية - سر عسكر - من رئاسة كتابة المابين الهمايونى المتضمنة صدور الارادة السنية ذات الشرف الاسمى من لدن مقام الخلافة العظمى المتقضى بموجب منطوقها المنيف استثناء سليمان فيضى الموصلى - المتخرج من الصنف الثالث من المكتب الاعدادى العسكرى فى بغداد - من العسكرية . فقد وردت من الوزارة المشار اليها الى مقام المشيرية برقية بتاريخ ٨ نيسان سنة ١٣٢٠ رومى الموافق ليوم ٣ صفر ١٣٢٢ هجرى ويوم ٢٠ نيسان ١٩٠٤ ميلادى تنبىء بتنفيذ مقتضى الارادة السنية المنوه بها واعلام الوزارة بقيد قرعته وكنيته . ولدى السؤال من المكتب الاعدادى المذكور ورد الجواب بتفصيل كنيته المستخرجة من سجلاتها . ولما كان المرقوم من مواليد سنة ١٣٠٤ رومى لذا أجل تجنيده . وقد اخبر مقام المشيرية الوزارة المشار اليها بذلك برقيا فى ١٧ مايس سنة ١٣٢٠ رومى واستنادا الى بيان دائرة الأركان الحربية صدر الأمر الى شعبة التجنيد بتدوين شرح الاستثناء على قيد المرقوم » .

ولأول مرة منذ سنة التفت ورائي فلم أجد أثرا لشبح الزجرى . . .
فتنفس الصعداء وحمدت الله على حسن المآل . . . أما الراتب فلست
بسائل عنه .

الغاء قرار الفصل

بعد أن حدث الانقلاب المشهور في البلاد العثمانية ، ودخل الجيش
استانبول معلنا الدستور الجديد الذي ارغم السلطان عبد الحميد على تنفيذه في
العاشر من تموز عام ١٣٢٤ رومى ، أدرك الزملاء الذين سبق أن فصلوا معي
من المدرسة العسكرية ، أدركوا ان الفرصة قد واتتهم لنقض قرار الفصل
بفضل تبدل السياسة العليا في استانبول . فتقدم مولود مخلص بعريضة الى
وزارة الحرية يتظلم فيها من القرار المجحف ويطلب رفع الحيف عنه وعن
زملائه السبعة . وفعلا أعيد النظر في القضية من قبل مجلس عسكري برئاسة
وزير الحرية على ضوء ما جاء في الاضبارة من الوقائع . فلما ظهر للمجلس
تفاهة الحادث ، أصدر حكمه بالغاء قرار الفصل ، وباعطاء الخيار
للمستدعى ورفاقه باكمال دراستهم في المدرسة الحرية ، على أن يعوضوا عن
تأخيرهم هذا بمنحهم حق القدم عند التخرج . وهكذا التحق مولود مخلص
بالمدرسة الحرية . وبعد اكماله الدراسة عين بنفس الرتبة التي وصل اليها
زملاؤه من غير المفصولين في الاعدادية العسكرية .

ويوم علمت نبأ القرار المذكور ، كان آخر خيط يربطني بالعسكرية
والجيش قد انقطع منذ أمد بعيد . فمهنة المحاماة كانت تدر عليّ أرباحا طيبة ،
كما انني كنت أصدر جريدة (الايقاظ) ، وأدير مدرسة (تذكار الحرية) التي
أسستها في البصرة .

ليسمح لى القارئ الكريم اذا استوقفته عند هذه النقطة ، لأعرج به على
موضوع آخر ليس في صلب مذكراتي وانما على هامش تلك المذكرات . ذلك هو
موضوع الدعوة الوهابية والحروب الرهيبة التي أعقبتها . وانى لم أكن
لأتطرق الى هذا الموضوع لو لا ان تاريخ نجد الحديث يكاد يكون مبهما

وغامضا لدى الكثيرين ، كما ان القليل من القراء يعرفون عن جغرافية نجد
معلومات صحيحة ، ويعلمون ان في الصحراء العربية الكثير من المدن الآهلة
بالسكان والقرى الخصبة ♦

وبعد فلا شك في أن القارئ الكريم سيجد في الاطلاع على هذا الفصل
بعض المتعة واللذة ♦



رمل و دم

أما الرمل فرمل الجزيرة العربية وأما الدم فدم ابنائها •

بقيت الصحراء العربية مسرحا لحروب طاحنة مدة قرن ونصف • ، ولم تكن الحرب لتنتهى حتى لتتشب أخرى ، ولم تكن الدموع لتكفكف والجراح لتبرأ حتى تذرف دموع جديدة وتشن جراح أخرى •

دارت كل تلك الحروب من أجل السيطرة على الجزيرة العربية واخضاع اماراتها • وكان للدسائس التى حاكها الاستعمار ، والرغبة الجامحة لدى بعض الامراء فى الاستئثار بالحكم عن طريق الاغتيالات السياسية ، ولاساليب الحكم البدائية التى اتبعها الحكام المختلفون ، اقول كان لذلك كله آثار بعيدة فى عدم الاستقرار والبلبلة المتמادية فى الوضع السياسى • واستمرت الاحداث الجسيمة فى عنفها مائة وخمسين عاما تبادلت خلالها العوائل القوية الحكم مرات عديدة •

الدعوة الوهابية

كانت نجد منقسمة الى امارات صغيرة تتمتع كل منها بقسط من الاستقلال الداخلى وتخضع كلها اسميا للامبراطورية العثمانية • وكان أبرز هذه الامارات واحة الدرعية ونواحيها وقد كانت تحت حكم آل سعود ، والرياض تحت حكم آل دواس ، وبريدة وقراها تحت أمرة آل مهنا ، وعنيزة وملحقاتها بأمرة آل سليم ، والاحساء تحت حكم آل خالد • وتكاد تكون اماراة الدرعية أكثر هذه الامارات سكانا ومساحة ، ويكاد يكون أميرها آنذاك محمد السعود أكثر أمراء البادية المعاصرين له حزما وعزما وأوسعهم اطماعا وآمالا • فلا غرو أن يحدو به طموحه الى غزو الامارات الاخرى وتوحيد البلاد العربية فى دولة قوية تتكر للسلطنة العثمانية وتنفض عنها رداء الخنوع الذى أخنى عليها الدهر به منذ قرون • فأخذ يعد العدة لهذا الغزو سرا • وصادف ان جاءه ذات يوم الامام محمد بن عبدالوهاب صاحب الدعوة الوهابية مستجيرا من اضطهاد أهل (حريملة) ، مسقط رأسه ، بسبب اعلانه لمبادئه الدينية • فرحب به محمد السعود وأكرم مثواه ، ولم يلبث أن اعتنق مبادئه ، وتعاهدا على بث



جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود

الدعوة بكل ما أوتيا من قوة • • • محمد بن عبدالوهاب بنفوزه الديني ، ومحمد ابن السعود بجيشه وخيله •

اشعل محمد السعود نار الحرب ، فزحفت جموع الوهابيين المتحمسين بقلوب مستميتة وهمم عالية ، ودحروا المدافعين عن المدن والقرى • فانهارت أمامهم مقاومة الامراء الواحد تلو الآخر ، حتى انبسط حكم آل سعود على نجد بكاملها • وانتشرت الدعوة الوهابية بين الاعراب ، فلاقت هوى في نفوسهم لما كانت تبشر من زهد وتقشف يلائمان طباعهم وأسلوب حياتهم •

ولما بلغ السلطنة العثمانية نبأ هذه الانتصارات أوجست خيفة وخامرتها الهواجس من أن يتفق محمد السعود مع أمير الحجاز فينازع السلطان العثماني الخلافة • فأصدر السلطان محمود أمره الى سليمان باشا الكبير والى بغداد بتجهيز حملة كبيرة من الجيش والقبائل لمحاربة ابن السعود وتحطيم قواته • نظم سليمان باشا الحملة ، وقادها بنفسه الى نجد ، وهناك التقى بجيش محمد السعود • وبعد معارك دامية اندحر الوهابيون ، فراح سليمان باشا يتعقب فلولهم حتى وصل الاحساء ، حيث التجأ اليها ابن السعود وأعوانه وتحصن فيها • طال الحصار واستمات المدافعون في القتال ، بينما نفدت ذخائر جيش سليمان باشا وسأم جنوده الانتظار ، فعاد أدراجه الى بغداد • واستغل محمد السعود هذا الانسحاب ، فأسرع بجمع جيوشه وتوجه بها الى العراق واحتل كربلاء ، فخرج اليه سليمان باشا لملاقاته بجيشه النظامي وبعض القبائل العراقية ، ولكن الغلبة هذه المرة كانت لابن السعود ، وتراجع الجيش الى بغداد • ولم يشأ ابن السعود أن يندفع نحو قلب العراق بل فضل العودة الى نجد •

بعد عودة محمد السعود الى نجد استتب له الأمر وخشيت الامارات المجاورة سطوته • وحدث في تلك الآونة ان اختلف الشريف غالب وأخوه الشريف عبدالمعين على اماراة الحجاز ، فاستعان الشريف غالب بمحمد السعود على أخيه • وسار ابن السعود على رأس جيشه فاحتل مكة المكرمة ، ثم المدينة

المنورة ، ونصب الشريف غالباً أميراً على الحجاز ، بينما لاذ الشريف
عبدالمعين بالفرار •

وباحتلال الحجاز دانت الجزيرة العربية لابن السعود • وهنا تساءل
السلطان : أين ستقف اطماع محمد السعود • • ؟ • بقي هذا السؤال يقض
مضجعه ، واعتقد ان مخاوفه وهواجسه ستحقق لا محالة اذا استمر هذا الفاتح
العربي في غزواته الموفقة • فأعمل الفكر وشاور أعوانه ووزراءه وخرج
بالحل • • • وكان لعمرى حلا صائباً • •

لا يفـل الحـديد الا الحـديد

يوم كانت الدعوة الوهابية في عنفوانها ، والفتوحات السعودية في شدتها ،
لم تكن هذه الدعوة لتقلق السلطان وحده ، بل شاركه قلقه محمد على باشا
الكبير حاكم مصر يومذاك • فمحمد على كان يحلم هو الآخر بتوسيع رقعة
سلطانه • فلا بدع في أن تتعارض الفتوحات الوهابية مع رغباته • وكان
السلطان في ذات الوقت يرقب استفحال أمر محمد على في مصر ويتمنى
لو استطاع أن يقضى على هذين الخطرين اللذين يهددان ملكه ، ابن السعود • •
ومحمد على • فرأى أن يحرض محمد على باشا على مقاتلة ابن السعود ، ويكون
بهذا قد قضى على احد الخصمين وأضعف الآخر • تلقى محمد على أمر
السلطان بسرور وارتياح ، وجهاز حملة عظيمة سارت الى نجد بقيادة ابنه
ابراهيم باشا • وقبل أن تغادر هذه الحملة أرض مصر ، جاءت الاخبار من
نجد تنبئ باغتيال الامير محمد السعود أثناء الصلاة على يد رجل فارسي •
فخلفه ابنه الأمير سعود ، وأقسم أن لا يتوانى عن تنفيذ خطة أبيه في الفتح
ونشر الدعوة الوهابية • وعقد النية على أن يبدأ هذه المرة بغزو العراق • •
وما كاد يفعل حتى بلغه خبر وصول الحملة المصرية الى ينبع ، فأسرع بتوجيه
جيشه نحو الشمال ، ولاقى المصريين في الحجاز • وبدأت سلسلة من المعارك
الدامية انسحب على أثرها الوهابيون الى نجد واستأنفوا الدفاع عنها • وفي
تلك الاثناء وافت المنية الأمير سعود ، فخلفه الأمير عبدالله ، وقاد

السعوديين ببسالة • وجرت في بقاع نجد أهول المعارك ، انتصر فيها المصريون فتم لهم احتلال الحجاز ونجد بكاملها ، ووقع الأمير عبدالله وأفراد أسرته آل السعود أسرى بيد المصريين •

جاءت أوامر السلطان تقضى بإعدام عبدالله السعود ، وبسجن أفراد الأسرة السعودية وعوائلهم سجنًا مؤبدا • وأمام حشد من الناس في أحد ميادين استانبول تدلت جثة الأمير عبدالله السعود بجبل المشنقة ، بينما قضى أفراد الأسرة نجبهم في سجنهم بمصر • وبأمر من محمد علي باشا الكبير أعمل الجنود المصريون الهدم والتخريب في مدينة الدرعية عاصمة آل السعود ، لاستبسالها في الدفاع ومقاومتها الرائعة للجيش المصرى ، حتى لم يبق فيها حجر فوق حجر ولا شجرة قائمة •

صفا الجوالأمرآء نجد بعد القضاء على آل السعود ، فاستأثر بالحكم فيها عبدالله بن ثنيان ، الذى توهم ان آل سعود لن تقوم لهم قائمة بعد الذى جرى لهم على يد الجيش المصرى • الا أن الانباء سرعان ما وافت بفرار الأمير فيصل بن تركى السعود من معتقله فى مصر • وبين عشية وضحاها دعا فيصل هذا أهل نجد الى النضال من أجل استرجاع المجد المسلوب ، فلبى الناس دعوته ، وسار على رأس جيش كبير لمقاتلة عبدالله بن ثنيان وغلبه • وهكذا عادت نجد ثانية فى قبضة آل سعود كأن الحرب لم تكن •

لقد عاصرت الدعوة الوهابية فتوحات محمد على الكبير الرائعة على يد الجيش المصرى فى فلسطين وسوريا ولبنان • وقد قال الوهابيون انهم انما حاربوا لكي يبقذوا البلاد العربية من نفوذ الاتراك ، ولينفذوا الدين الاسلامى من الشوائب التى أفسدته ، اذن فالدعوة الوهابية كانت تهدف الى اقامة دولة واسعة تشمل الاقطار العربية الخاضعة للنفوذ العثمانى • وبالقضاء عليها قضى على أهم حركة عربية فى التاريخ الحديث •

وقال ابراهيم باشا أن أباه ما حارب وفتح الا ليضم شتات العرب — المنكوبين بالاستعمار التركى — فى امبراطورية عربية عظيمة ، وانه لو لا تدخل

الدول الأوروبية واجباره على سحب الجيوش المصرية من سوريا وفلسطين
لشهدنا قيام دولة عربية حديثة موحدة • وبفشل محمد على فى تحقيق اهدافه
هذه ، تكون الحركة العربية المهمة الثانية فى التاريخ الحديث قد قبرت
فى مهدها •

نجد فى ظل آل رشيد

بعد أن استقرت الأمور فى نجد نصب آل سعود حكاماً فى المدن المختلفة
حسب العادة الجارية • فعينوا آل رشيد أمراء على جبل شمر ، أى على حائل
وملحقاتها وأمراء للحج • وآل مهنا على بريدة • وآل السليم أمراء على عنيزة ،
وغيرهم على الامارات الاخرى • واستقامت الصلات الودية مدة طويلة بين
آل سعود وعماهم • الا انه فى سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٥ م ثار أمراء القصيم على
آل سعود فاستقل حسن المهنا ببريدة ، وزامل السليم بعنيزة ، ومحمد
الرشيد بحائل •

كان محمد الرشيد جبارا عادلا ، أحسن السيرة مع الناس وأكرمهم ،
ومالاً الدولة العثمانية وأبدى لها الطاعة والاخلاص ، حتى توثقت بينه وبين
السلطان عبدالحميد وأصر المودة • فكان ابن الرشيد يقدم الى السلطان
الخيول العربية الأصيلة ، والسلطان يغدق عليه الذهب والسلاح ، ويحرضه
على العصيان على ابن السعود عدو السلطنة اللدود •

وفى سنة ١٣٠٨ هـ - ١٨٩١ م ، فى عهد الامام عبدالرحمن الفيصل
السعود ، زحف محمد الرشيد على رأس جيشه ، فاستولى على القصيم
والرياض والزلفى وغيرها ، حتى دانت له جميع نجد ، واضطر الامام الى
الالتجاء الى الكويت عام ١٣١٠ هـ - ١٨٩٣ م •

ولما توفى محمد الرشيد سنة ١٣١٥ هـ - ١٨٩٨ م ، خلفه ابن أخيه
الأمير عبدالعزيز متعب الرشيد ، مقتفيا أثر عمه فى مهادة العثمانيين • وزاد
حب السلطان عبدالحميد لآل الرشيد بعد أن رفعوا عنه كابوس آل سعود ،

فأكثر من عطاياء لهم ، وزودهم بما يحتاجون اليه من سلاح ، ورحب بفكرة تعيين معتمد لهم فى استانبول يقوم بمثابة سفير لديه •

أما الامام عبدالرحمن السعود ، فأقام فى الكويت مع اولاده ، وخصص له السلطان عبدالحميد راتباً ضئيلاً لتأمين معيشته • حدث ذلك فى عهد الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت ، الذى كان يضمر لآل الرشيد الشر ، للعداء القديم المستحكم بين آل صباح وآل رشيد •

لم يستطع مبارك كتم نغمته طويلاً ، فجهز حملة فى عام ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م من اهل الكويت ، وسار بها الى نجد لمقاتلة عبدالعزيز الرشيد • وفى البقعة ما بين الصريفة والطرفية ، تلاقى جيش ابن الصباح بجيش ابن الرشيد فى معركة طاحنة انهزم فيها الشيخ مبارك وذووه تاركين جيشهم بين قتيل وجريح وأسير • فلما أسكرت نشوة الانتصار الأمير عبدالعزيز الرشيد بهزيمة أعدائه ، أمر جيشه بتعقيب فلول الكويتين وأعمال السيف فيهم ، وفى الأسرى والجرحى ، فكانت مجزرة بشرية هائلة استهجنها عقلاء نجد وولدت فى نفوسهم نفرة من آل رشيد •

لقد أطفأ عبدالعزيز الرشيد ظمأه الى الدماء بذبح الجيش المغلوب على أمره ، الا انه بذر فى نفوس أهل نجد بذور كرههم ومقتهم له • وسوف نرى عما قريب كيف نمت هذه البذور • فاذا بها أشواك تملأ طريق الأمير الظالم •

العودة الى الحرب

ضافت الدنيا ، على رحبها ، بعين الامام عبدالعزيز عبدالرحمن السعود • ورأى ان اقامته فى الكويت ملتجئاً مذلة له ، فأزمع على التحرك من سكونه وصمته • وجهز حملة سرية مؤلفة من ذويه ، وأصحابه ، وعبيده ، وسار الى نجد • فدخل الرياض متكرراً فى ليلة ظلماء ، واحتفى مع أصحابه فى دار امرأة من اقربائه • حتى اذا ما انبلج الصبح تربص لأمير الرياض فى طريقه الى دار الحكومة وقتله ، ثم أتم احتلال المدينة دون مقاومة تذكر ، وذلك لميل



الأمير عبدالعزيز السعود والشيخ مبارك الصباح - الكويت عام ١٩٠٩

أهلها إلى آل سعود ومقتهم لآل رشيد ، فالتفوا حوله وعقدوا لنصرته
 الخاصر • وكان أول ما عمله بناء سور متين للرياض يقيها غارات الأعداء •
 وجاءته من الشيخ مبارك بعض المساعدات المالية ، فتحصن داخل الأسوار ،
 واستعد لصد العدوان المنتظر • حدث ذلك في عام ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م •
 ووقعت الغارة المنتظرة ، إذ أحاط جيش عبدالعزيز الرشيد بالرياض وراح
 يهاجمها بقوة • فدافع الامام وأعوانه دفاعاً رائعاً عن المدينة من خلف أسوارها
 المنيعة ، حتى ارتد جيش ابن الرشيد خاسراً ، تاركا أسلأه القتلى مكدسة تحت
 أسوار المدينة العتيقة •

ثارت ثائرة ابن الرشيد لهذا الفشل ، وتجسم له الخطر الكامن وراء
 أسوار الرياض ، فالتجأ إلى السلطان عبدالحميد مستنجداً به • وسرعان ما أجاب
 السلطان طلبه ، ووعدته بإرسال حملة كبيرة للقضاء على العدو المشترك • أوعد
 ابن الرشيد إلى حكام المدن والقرى بالاستعداد للحرب ، وما العروض التي

شهدتها في غيزة وقراها الا من مظاهر هذا الاستعداد • ولما كانت المخابرات تجرى بين نجد واستانبول بالمراسلة البريدية ، مما يؤخر قدوم النجدة ، توجه عبدالعزيز الرشيد بجيشه الى قرب السماوة ، كما سبق ذكره في الفصل السابق ، ليتسنى له الاتصال البرقي بالسلطان • وبغيا به عن نجد سحت الفرصة لابن السعود باحتلال مدنها وقراها من دون كبير عناء • حتى انه اتم احتلال البلاد كلها ، باستثناء حائل ، والنجدة العثمانية لما تأت بعد •

وفي مايس عام ١٩٠٤ م وصلت الى السماوة الحملة العثمانية بقيادة الحاج شكرى بك • وهى تتألف من أربعة أفواج بكامل عدتها ترافقها بطرية من مدافع الصحراء • وكان الطابور (الفوج) يتراوح بين الثمانمائة والالف رجل ، جلهم من أبناء العراق ، فاستقبلهم ابن الرشيد استقبالا حافلا •

استأنفت هذه الطواير تقدمها داخل نجد ، بصحبة جيش ابن الرشيد ، على الجمال التى كان قد هيأها لهذا الغرض • وكان جيش ابن السعود متهيئا لنزالها • • فالتحم الفريقان فى اليوم التاسع من شهر تموز عام ١٩٠٤ ، واحتدم القتال من طلوع الشمس حتى غروبها ، فأسفر عن مقتل القائد شكرى بك واثنين من أمراء افواجه ، ونفاد عتاد بعض المدافع ، وتشتت الجيش العثمانى • وقد زاد الطين بلة تدخل ابن الرشيد فى قيادة الجيش تدخلا أرتجاليا أفقده ما تبقى له من الضبط والانظام •

تفرقت فلول الجيش المنهزم فى الصحراء تبحث عن سبيل للنجاة ، ولما نفدت مؤونتهم أكلوا بذور الحنظل ، ولحوم الدواب الميتة ، وفتك الموت بهم فتكا ذريعا •

وان أنس لا أنس يوم وصلت هذه الفلول مدينة البصرة ، فى حالة يرثى لها من الجوع والعري والمرض • لقد عم الحزن البصرة يومذاك ، وأبدى اهلها فى مؤاساتهم أبلغ الكرم •

حنق ابن الرشيد لهذه الخيبة ، وراح يؤكد للسلطان ضرورة ارسال حملة كبيرة أخرى • فأمر السلطان بتجهيز حملة كبيرة بقيادة المشير احمد

فيضى باشا الذى ورد ذكره فى الفصل السابق • وتألفت الحملة هذه المرة من ثمانية أفواج مشاة ، وبطريتين من المدفعية ، وسرية خيالة تقدمتها فرقة موسيقية كبيرة • لقد كانت الحملة كبيرة حقا ••• الا ان احدا من ضباطها وجنودها لم يكن ليحرب بالاشتراك فى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل •• وحتى المشير أحمد فيضى باشا نفسه ، لم يكن متحمسا لهذه الحرب ، بل انه على العكس ، حاول مرارا أن يشيى السلطان عن عزمه بذكر المصائب التى ستعرض سبيله : من نفاذ المؤونة ، وقلة الماء ، وبعد خط المواصلات ، وضعف عزائم الجيش العثماني • ولكن السلطان لم يكن ليصغى لنصائحه ، بل أصر على استمرار الحملة فى زحفها • فلما وصل الجيش قرب القصيم نفذت معظم مؤونته ، فاضطر المشير الى تخفيض ارزاق الجنود الى النصف ، مما أثار حنق الجنود وسخطهم على ابن الرشيد الذى اعتبروه المسبب لهذه المتاعب •

وفى المقابلة الوحيدة التى جرت بين ابن الرشيد والمشير فيضى باشا ، نصحه الثانى بالحذر من الجنود وعدم الاقتراب منهم لأنهم ناقدون عليه • فوضح لابن الرشيد عدم رغبة الجيش العثماني فى التعاون معه ، وغدا الانسجام بين الجيشين مستحيلا • فسار الجيش العثماني بمفرده الى عنيزة ، واحتلها دون مقاومة ، ورفع الراية العثمانية على قلعتها ونصب أميرها قائممقاما • ثم تقدم الى بريدة ، واحتلها بنفس السهولة • ثم أبرق المشير الى السلطان ينبئه باحتلال القصيم ، ويقترح عودة الجيش الى العراق • فكان جواب السلطان أن نقله الى اليمن ، فغادر نجد تاركا القيادة الى صدقى باشا •

وفى هذه الفترة اصاب الجيش العثماني من المصائب والمحن ما اصاب الحملة السابقة •

وصل القائد الجديد سامى باشا العمرى والفى الوضع السيئ الذى صار اليه الجيش ، فأصدر أوامره بمنتهى الجراءة الى الافواج العراقية بالعودة الى العراق ، تحت قيادة مظهر بك ؟ واستصحب معه الافواج السورية الى المدينة المنورة • ولما كان النقل فى البداية متعسرا بدون الجمال ، طلب المعونة من ابن

السعود لمدّه بما يلزم من الابل ، فأجاب هذا طلبه • وهكذا غادر الجيش
العثمانى البلاد النجدية • • فكان ايذاناً بتخلى العثمانيين عن حليفهم ابن الرشيد •
تأثر ابن الرشيد غاية التأثير لهذه الطعنة ، والتفت يمينه وشمالاً ، فلقى
نفسه وحيداً بعد أن تخلى عنه حلفاؤه • واندفع اهل نجد فى التطوع بجيش
الامام ابن السعود تشفياً من ابن الرشيد ، الذى أبدى فى أكثر من مناسبة
الظلم والقساوة ، فأدرك هذا ان الساعة قد دنت ليطلق آخر سهم فى كنانته •

النصر الحاسم

فى ليلة ١٩ صفر ١٣٣٤ هـ - ١٩٠٦ م ، وفى الارض المسماة (روضة
مهنّا) الواقعة بالقرب من قرية (البكيرية) ، التحم جيش ابن السعود وجيش
ابن الرشيد فى معركة طاحنة لم تشهد لها الصحراء مثيلاً منذ قرون • واستبسل
الفريقان فى الكر والفر ، لعلم كل منهما بانها المعركة الحاسمة التى ستقرر
مصير نجد بأكملها •

ورجحت كفة السعوديين ، وتضعع جيش ابن الرشيد ، فاقتحم الفرسان
السعوديون صفوف العدو ، وألقى الامير عبدالعزيز بن الرشيد نفسه بين
كوكبة من الفرسان المهاجمين ، فدافع دفاع الابطال حتى استشهد ، وحلت
الهيزيمة بجيشه فنشئت شمله •

عندما أطلت الشمس بنورها كان كل شىء هادئاً فى الصحراء العربية ؛
جث مضرجة تكسو وجه البسيطة ، ورمال امتزجت بالدماء • • فأرتوت منها
بعد طول ظمأ • • ولم يكن ليعكر صفو السكون غير أنين الجرحى الخافت •

أسلفنا ان حائل كانت توالى آل رشيد فى حروبهم وتواسيهم فى محنتهم •
فحين التجأ اليها أبناء عبدالعزيز الرشيد الكبار : متعب ، ومشعل ، ومحمد ،
مع بعض ذويهم آوتهم عن طيب خاطر ، وتولى متعب امانة حائل وتوابعها •
ولكن المتاعب ظلت تلاحق آل الرشيد ابداً • فقد كانت المؤامرات تحاك فى
السر للفتك بهم ، وكان المتآمرون هم ابناء خالهم حمود العبيد السبهان وهم ؛

سلطان ، وفيصل ، وسعود ، واخوانهم ، وضارى الفهيد • وفى اليوم الثانى عشر من ذى القعدة عام ١٣٢٤ هـ المصادف للثالث من كانون الثانى سنة ١٩٠٧ م ، دعا المتآمرون الامير متعب الرشيد وأخاه مشعل ووزيره طلال الناييف الى نزهة صيد ، فلما انفردوا بهم فى الصحراء قتلوهم غيلة • فلما صار الحكم بأيديهم نصبوا سعود بن حمود اميرا على حائل • ولبثوا يتربصون لثالث أبناء عبدالعزيز الرشيد محمد ، حتى قتلوه بعد شهرين •

لم يبق من أبناء عبدالعزيز الرشيد غير سعود ، وهو صبي فى الثامنة من عمره • فخاف عليه خاله حمود العبيد السبهان ، الذى كان حائقا على تصرفات اولاده ، وزامل العبيد السبهان من غدر اولئك السفاكين ، فأخرجاه وأمه من حائل خلصة وأوصلاهما الى المدينة المنورة •

أثارت هذه الجرائم المنكرة غضب أهل حائل ، وودوا لو استطاعوا وضع حد لهذه المجزرة • فكاتبوا بعض شيوخ شمر الذين تربطهم بآل رشيد صلة العمومة ، وحرصوهم على الثأر للدم المسفوك ، فقدمت جمهرة منهم الى حائل ، عاضدها أهل المدينة على الامير الغاصب ، فألقوا به فى السجن •

وهناك فى المدينة المنورة ترعرع سعود عبدالعزيز الرشيد وترعرع معه الظمأ الى الانتقام لآخوانه • فعاد الى حائل فى أواخر سنة ١٩٢٥ هـ - ١٩٠٨ م ودخلها بمعونة شيوخ شمر • وكان اول عمل قام به الأمر بقتل سعود الحمود ، فلقى هذا حقه بضربة لازب • • وعلى الباغى تدور الدوائر • • •

هذا ما كان من أمر آل رشيد بعد خذلانهم • اما آل سعود ، فقد استقامت لهم الامور ، وهيمنوا على نجد والاحساء ، ثم على الحجاز وعسير ، واستمر حكمهم فيها حتى اليوم كما يعلم الجميع • وقد تولى الملك بعد أبيه الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود أمد الله بحياته •



في عهد السلطان عبد الحميد

مهنة حرة

انتهينا في الفصل الاول الى اشتغالى في القنصلية الايرانية في البصرة مترجما بالوكالة . وقد أفدت منها الشيء الكثير باطلاعى على معاملات الدولة الرسمية ومكاتباتها ، وتعرفى على كثير من الموظفين المحليين . وبالتحاق المترجم الأصيل بدائثرته انفككت انا عنها ، ورأيت ان اعمل في بعض دوائر الولاية لمجرد اكتساب الخبرة في شؤون الادارة والمحاكم . فداومت اياما في قلم محكمة الجزاء ، وفي قلم محكمة الحقوق ، ثم في قلم المدعى العام ، وأبدت من النشاط ما أثار إعجاب رؤسائي ، فعرض على رئيس كتاب محكمة التجارة معاونته في اشغاله فلم أرفض . وبعد ايام قلائل فزت بثقة رئيس المحكمة ، فصار يعتمد علىّ في الامور الدقيقة ، والتي تحتاج الى معرفة جيدة باللغة التركية ، وكفأني على خدماتي بأن حصر الوكالات المسخرة عن الغائبين في عهدي بعد ان كانت توزع على المحامين ، فأصبح ذلك لى موردا لا بأس به . والتف حولى المحامون من الذين يجهلون التركية أترجم لوائحهم الاستثنائية والتميزية ، فكان هذا موردا آخر .

ومنذ ذلك الحين نشأت لدي الرغبة في درس القوانين وشروحها نمهدا لمزاولة مهنة المحاماة ، اذ كان تعاطى هذه المهنة في العراق وسوريا حرا لا يحتاج الى شهادة مدرسية . فجمعت القوانين الحقوقية والجزائية وغيرها ، وانكبت على دراستها ليل نهار ، وكنت أستعين بالقدامي من المحامين والحكام لشرح ما يتعسر علىّ فهمه . وكان أكثرهم تحمسا لمساعدتي في هذا المضمار المغفور له ناجي السويدي الذي كان رئيسا لمحكمة التجارة في البصرة .
عام ١٩٠٨ م

وفي عام ١٩٠٥ م عرض علىّ السيد احمد الاوقاتى الاشتراك معي في المحاماة على أن تكون حصتي ثلث الايراد فوافقت . ولم يكن السيد احمد يتقن التركية ، فاستفاد من مشاركتي كثيرا ، وأصبحت حصتي في نهاية سنة ١٩٠٦ م النصف . وفي عام ١٩٠٧ م فسخنا هذه الشركة ، رغبة مني

حتى الاشتغال بمفردى • وصادف أن طرأ هبوط فاحش فى اسعار الاموال المستوردة فى سنتى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، مما أدى الى اشهار افلاس عدد غير قليل من التجار ، ولما كانت امانتى فى العمل قد اشتهرت فى الاوساط التجارية ، انتخبني الدائنون سديكا فى أكثر المعاملات الافلاسية ، وبهذا رسخت قدمي فى مهنتى الجديدة • وكنت بين حين وآخر أشعر بحاجة الى اتقان قواعد اللغة العربية اذ كنت ، كسائر أبناء جيلي ، اجهل من هذه القواعد حتى اولياتها ، لانها لم تكن لتدرس فى المدارس الحكومية آنذاك • فبادرت الى دراستها على العالم الفاضل المرحوم السيد عبدالعزيز التكريتى الناصرى فى المدرسة الحلية للاوقاف • فكنت أؤم حلقة الدرس قبل طلوع الشمس ، حتى اذا ما آتت ساعة الدوام فى دوائر الحكومة سعت اليها للقيام بمهام المحاماة • ولبثت على هذا المنوال منذ اوائل عام ١٩٠٦ م حتى اواخر عام ١٩٠٨ حصلت بعدها على شهادة من العالم الجليل •

قد يود القارئ الكريم أن أسرد له وصفا للأوضاع السائدة فى ذلك الزمن • كما انى اعتقد أن اطلاعه على تلك الاوضاع يعينه كثيرا على المطالعة بانسجام تام مع الحوادث التى سيأتى ذكرها فى الفصول القادمة •

الجبار الظالم

ان الله ليمن على بعض الحكام والملوك بالحزم والدهاء والاقدام ، فمنهم من يسخر هذه المواهب لخدمة الصالح العام واعلاء شأن البلاد ، ومنهم من يستغلها لاشباع اطماعه وتحقيق اغراضه الشخصية • وان الله ليفتح باب السلطة والحكم لبعضهم ، فمنهم من يرقى اليها على جماجم الاحرار واشلاء الضحايا ، ومنهم من يدخلها وسواعد الشعب ترفعه وقلوبهم ترعاه •

لقد قال المؤرخون فى السلطان عبدالحميد انه كان من دهاة الملوك ، بل هو أدهى معاصريه • وقد قال فيه الشعب انه ظالم متجبر ، خنق الحريات ، وأزهق الاحرار ، وأنفق مال الدولة على بطانته الفاسقة • لقد عشق الحكم وتمسك بالعرش ، فحكم البلاد حكما فاسدا مدة ثلاث وثلاثين سنة ، ذاق فيها

الامرين فعمها الخراب ، وقضى المخلصون نجبهم فى أعماق السجون • • •
 والمنافى • • • وعلى أعواد المشانق • كان السلطان وحاشيته يعمون بالترف فى
 قصور استانبول • • • وكان الشعب يرسف فى قيود الذل والعبودية • • • أما
 أصوات الغوث والاستجداء فلم تكن لتطرق سمع السلطان ، اذ حال بينه
 وبين المستغيثين ستار منيع من رجال البلاط والجواسيس ، ممن أجزل لهم
 السلطان العطاء ، وأغدق عليهم من نعمه وآلائه ، وترك جبل الحكم لهم على
 غاربه • • • فحالوا بين الرعية والراعى ، ووسوسوا له بالخوف من مطالب
 الأمة ، وارتكبوا باسمه المنكرات والموبقات • وهو رغم كل هذا يريد من
 الناس أن يقصدوه ويسبحوا بحمده على ما أسبغ عليهم من نعم الجور
 والاستبداد • حتى ليصح فيهم قول الرصافى :-

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
 وأعجب من ذا انهم يرهونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

بطانة السلطان

قلت ان السلطان عبد الحميد لم يكن ليعوزه الذكاء والدهاء • وقد أدرك
 ان ارضاء الشعوب والأقوام المختلفة التى تستظل بالراية العثمانية تدبير حكيم ،
 وانه فى اليوم الذى تنفض هذه الشعوب عنها سطوة العثمانيين سيكون هلاكه
 وانهيار عرشه • لذلك حرص على أن يضم الى بطانته وحاشيته عناصر من هذه
 الشعوب المختلفة جمعاء • وأصبحت المناصب الكبرى مشاعا للجميع بصرف
 النظر عن القومية والدين • والى القارىء الكريم الامثلة التالية :

- الصدر الأعظم - (رئيس الوزراء) - فريد باشا - البانى
- وزير النافعة - (الاشغال) - نجيب ملحمة باشا - عربى مسيحى
- وزير الغابات والمعادن - سليم ملحمة باشا - عربى مسيحى
- مدير الأمن العام - شفيق باشا الكورانى - حلبى
- السكرتير الثانى للسلطان - عزت باشا العابد - شامى
- ناظر الخزينة الخاصة - أوخانس باشا - أرمنى

وكان أقرب المقربين الى السلطان الشيخ محمد أبو الهدى افندى الصيادى وهو حلبى • وبهذه المناسبة أود أن أروى قصة الشيخ ابى الهدى الطريقة :-

فالشيخ المذكور الرفاعى النسب والرفاعى الطريقة كان أحد مشايخ الطرق المحترمين فى حلب • شد الرحال الى استانبول مع ثلاثة من مريديه ، فلما وصلها اتخذ له مسكنا ، وأعلن عن قيامه بحلقة للذكر وبعض الاعمال الرفاعية فى ليلى الجمع • فاجتمع الناس حوله وراحوا يعجبون للأعمال الخارقة التى يأتونها من لعب بالنار ، وضرب بالسيوف والخناجر • فاشتهر أمره وذاع صيته • ولم تكد ليلة الجمعة التالية تزف حتى كان جل زائريه من العظماء والوزراء ، يتراحمون لمشاهدة الاعيىه المدهشة • فلما بلغ السلطان أمره رغب فى مشاهدته • وفى حفل عظيم فى القصر السلطانى ، وعلى قرع الطبول ونقر الدفوف ، أتى الشيخ أبو الهدى من الخوارق ما أدهش الحاضرين • فقد ادخل فى اجسام مريديه سيوفا وخناجر من أسلحة رجال القصر ، وأخرجها دون أن تترك أثرا ، ولعب وتلامذته بالصاج الذى استحال جمرا من شدة الحرارة ، وغير ذلك من الحركات المثيرة ، حتى ضج القوم بالتكبير ...

ناسين وجود السلطان بينهم • وهنا اعتقد السلطان ان هذه الاعمال ما هى الا منكرات الأولياء ، وان الشيخ أبا الهدى لا محالة من أولياء الله الصالحين • فأمر له بقصر فخم ، ولمريديه برواتب ضخمة ، وقربه اليه وصار يستشيريه فى أموره ومشاكله ، ولم يكن يريد له طلبا أو رجاء • ومنذ تلك الليلة ودار أبى الهدى منتدى للوزراء والكبراء ، ومحجلا لأبناء العرب الذين يقصدون استانبول للدراسة أو لقضاء الحاجات • وقد كان الشيخ ، حقا ، ذا عقل ناضج ودراية ولباقة عظيمتين • دأب على مساعدة المتجئين اليه من بنى قومه ، وعلى أعداق النعم من رواتب ، وأوسمة ، وألقاب ، ومناصب على الرفاعيين فى سوريا والعراق والبلاد العربية الاخرى • وسارت الامور على هذا المنوال حتى حدوث الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ ، اذ ألقى الاتحاديون القبض على الشيخ ، وسجنوه مع من سجنوا من وزراء عبدالحميد الذين لم يستطيعوا الهروب •

خلق الحريات

الحرية ، هذا الاسم الحبيب الى قلوب الناس ... ذلك السور الذى
تحتفى به الاكثريّة المغلوبة على أمرها من ظلم الاقلية الغالبة ... وتلك الثروة



السلطان عبد الحميد خان الثانى

التي ان ملكها الجائعون أحسوا
بالشبع ، وان تدثر بها العراة
أحسوا بالدفء ... وذلك
الاكسير الذى بدونه تصبح
الحياة جحيماً لا يطاق . أقول
ان الحرية كانت عدوة السلطان
وأعوان السلطان . اسمها محرم
لفظه ، وممارستها جريمة
لا تغفر ، والحر الأبي في
نظره غول مخيف ، والعبد
الذليل في اعتقاده مواطن
صالح . فالحرّيات بأنواعها
المختلفة لم تكن لتباح

فى ذلك العهد : كحرية الكلام ، وحرية النشر ، والصحافة ، والتأليف ، وحرية
العمل الحزبى .. الخ .. حتى بلغ بالمسؤولين التطرف فى كتبها ان
حرموا ذكر الكلمات التالية لفظاً أو تحريراً :-

الحرية ، الدستور ، القانون الاساسى ، جمهورية ، خلع ، ثورة ، انصاف ،
ظلم ، الخلافة ، استبداد ، الحكم المطلق ، برلمان ، نواب الامة ، سلطة الامة ،
العدل أساس الملك ، الظلم مرتعه وخيم ، وغير ذلك من الكلمات والتعابير المماثلة .

ومن طريف ما يذكر بهذا الصدد ان الاسماء التالية حرم اطلاقها
على الاشخاص : سلطان ، خليفة ، عبد الحميد . فمن كان اسمه سلطان وجب

عليه أن يبدل الطاء بالتاء فيدعى سلتان ، ومن كان اسمه عبد الحميد حوره الى حامد أو حميد ، ومن كان اسمه خليفة اضطر الى استبداله باسم آخر •

وكان الخوف من وشايات الجواسيس قد كم الافواه ، واضطر الناس الى أن يقولوا بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وان يتقبلوا الجور والارهاب بصبر واستكانة خشية أن يساقوا الى المنافي والسجون • وكانت هناك فئة من الناس اعتادت النفاق والملق ، وتمرغت على عتاب الحاكمين حبا في الجاه وتطمينا للمنافع الذاتية ، حتى أصبح هذا النفاق وذلك التمرغ طبيعة متأصلة في نفوسها ، زاولته حتى بعد انقضاء عهد الاستبداد وفي دور الحكم الوطني • وقد وردت في كتاب (عبرة وذكرى) لمؤلفه سليمان البستاني الرواية التالية التي تكشف النقاب عن الاعمال الانتهازية التي يرتكبها بعض من بيدهم مقاليد الأمور •

قيل أن مدحت باشا حين قدم بغداد والياً جمع مجلس الادارة ، واقترح على أعضائه أن يكتبوا الى الباب العالي استئذاناً بزيادة الضرائب للقيام ببعض الإصلاحات • فوافقوه على اقتراحه ، وكتبوا المحضر وختموه بأختامهم •

وبعد أيام عاد المجلس الى الاجتماع ، فاذا بمدحت باشا يقول انه وجد الضرائب الحالية ثقيلة على أبناء الشعب ، وانه ليس من الانصاف ارهاقهم بضرائب جديدة ، واقترح أن يكتبوا قراراً آخر يبينون فيه للباب العالي تسرعهم في اسداد قرارهم الاول • فوافقوه على اقتراحه وختموا المحضر بأختامهم • وهنا اخرج مدحت من جيبه القرار الاول الذي تعمد عدم ارساله ، لعلمه باجحافه ، ومزق القرارات أمام الحاضرين ••• ثم القى عليهم درساً في الكرامة والوطنية •••

أما حرية الصحافة فقد أصابها من الخنق والاضطهاد أوفر نصيب • كانت هناك صحيفة واحدة في مركز كل ولاية ، يديرها موظف حكومي مسؤول ، تشغل معظم صفحاتها بمديح السلطان والدعاء له • وكانت الصفحات الاولى من هذه الصحف تبدأ بالدعاء الروتيني : (أطال الله عمر مولانا أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين خادم الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين السلطان بن السلطان والحقان بن الحقان عبد الحميد خان أدام الله عزه وأعز جنده وأسعد عهده ونشر على بلاد الاعداء راية نصره ••• الخ) •

ولم تكن الحكومة لتمنح امتيازاً لآية صحيفة أخرى مهما كان نوعها • غير انه كانت تصدر في بيروت جريدة الاقبال لصاحبها عبدالباسط الانسى ، ولعلها كانت الصحيفة الاهلية الوحيدة التي تصدر في سوريا والعراق • وقد استطاع صاحبها أن يحتفظ بامتيازها بكثرة دعائه للسلطان والاشادة بذكره • أما الجرائد الاجنبية والمصرية فقد حرم دخولها الى العراق وسوريا ، سواء كانت معارضة أم مؤيدة ، وكان عقاب من يطالعها أو يقتنيها السجن أو النفي • وقد حدث مرة للشيخ مبارك الصباح أمير الكويت ، وكان مشتركاً في جريدة « الخلافة » التي يصدرها في لندن بعض أحرار الترك ، ان كلف معتمده في البصرة عبدالعزيز السالم البدر بتحويل بدل الاشتراك الى ادارة الجريدة المذكورة بواسطة البريد وتسجيله في دفتر حسابات الشيخ • وبناء على وشاية جاسوس ، تحررت الحكومة دار السيد عبدالعزيز وعثرت على المخابرات بشأن الاشتراك المذكور ، فأوقفته ، ثم حكمت عليه بالنفي الى ديار بكر عشر سنوات • فبذل اصدقاؤه بعض الجهود لابدال المنفى المذكور بغيره • واستغرقت المخابرات بين الولاية والصدارة أربع سنوات قضاه المسكين في الموقف • ثم حدث أن وصلت فلول الجيش العثماني الفارة من نجد الى الكويت ، فأبدى أمير الكويت تماهلاً في تجهيزها بالمؤونة ، فكان لابد للحكومة العثمانية من اقتناع الأمير بالعدول عن موقفه هذا • حينئذ نسب والى البصرة مخلص باشا أن يطلق سراح عبدالعزيز السالم ، لكي يذهب الى الكويت للتأثير على الأمير • فسافر اليها ، وهياً أسباب سفر الجنود الى البصرة ، ولكنه لم يعد خوفاً من نفيه ثانية • • بل بقي في الكويت حتى اعلان الدستور العثماني •

هذا ما كان من أمر الصحافة • أما التأليف ، فكان على ندرته محفوفاً بالمخاطر • فكانت المؤلفات تعرض قبل طبعها على مجلس المعارف الأعلى ، وويل للمؤلف أو الطابع ان تغير في الكتاب حرف أو زيدت كلمة ، وويل له اذا أقلل من الدعاء للسلطان والتسبيح بحمده • •

فقدان الأمن

كان من نتائج سوء الادارة ان فقد الأمن في ربوع البلاد ، وأصبح للصمصوم وقطاع الطرق في مأمن من العقاب ، يرتكبون جرائمهم في وضح النهار دون خوف أو وجل . وكانت الحال في المدن الكبرى ، مثل بغداد والموصل ، أهون شرا منها في النواحي البعيدة ، اذ لم تكن الاعمال الصمصومية فيها لتتعدى السرقات الفردية في جنح الظلام . ولكنها في البصرة بلغت حدا خطيرا ، حتى ساد فيها قانون الغاب ، وأصبح هم الناس أن يحرسوا ممتلكاتهم بأنفسهم ، وأن يدافعوا عن حياتهم بسلاحهم ، كأن لم تكن حكومة وكأن لم يكن قانون . واني لا أزال أذكر جيدا تلك الحوادث المؤلمة التي كانت تروغ سكان المدينة الآمنة بين حين وآخر . أذكر كيف كان بعض الرجال المدججين بالسلح يدخلون السوق الرئيسية في وضح النهار ، فينهون أموال الصيرفيين ، ويفتكون بهم ، ثم يخرجون آمين . وأذكر ايضا تلك الأمسيات القاتمة ، عندما تهاجم عصابة من أربعين أو خمسين رجلا مسكن أحد الاثرياء أو مخزنا تجاريا كبيرا ، فيقلعون الابواب والنوافذ ويدخلون الدار عنوة ، ويفتكون بساكنيها ، لا فرق عندهم بين كبير أو صغير . ثم يحملون ما استطاعوا حمله من مال ورياش في حين يقوم أعوانهم بحراسة مداخل الطرق المؤدية الى تلك الدار . فاذا ما انتهى الغزو ، حملوا المسروقات الى البساتين المتاخمة للمدينة لاقتسام الغنائم . . . وهم يرددون الهازيج . . . ويطلقون الرصاص اعتباطاً . كل هذا والحكومة ساهرة على الأمن وأعز الله السلطان !! . . .

وأذكر يوم اغتيل الحاج منصور جلبى السلطان ، عميد أسرة السلطان المعروفة في البصرة ، بينما كان جالسا في مقهى النجار المكتظة بالوجوه والاعيان . وكيف سار الشقيان الهويني بعد اقتراف جريمتها المنكرة ، وتواريا عن الانظار آمين . وبصورة مماثلة أغتيل خالد باشا العون شيخ الزبير آنذاك في عرض الشارع المؤدى الى جامع (ذى المنارتين) في البصرة .

بقي الأمن في البصرة مزعزا زمنا طويلا ، حتى قدمها فخرى باشا الوالى الجديد ، الذى كان قائدا عاما للجيش العثمانية في العراق قبل ذاك .

فعلما استلم مهام منصبه راعه وضع الأمن ، وهالته الجرائم التي سكت عنها اسلافه • فعمد الى كسر شوكة الشقاة وقطع دابرهم • ولم تكد تمر ليلتان على وصوله حتى هاجم ، صحبة فريق من جنوده ، مائة اللصوص وفتح عليهم نارا حامية ، فقتل منهم ستة وجرح خمسة وفر الباقون •

وفى صبيحة اليوم التالى صحا الناس على صوت مناد يدعوهم للتفرج على الجثث المكسدة فى احد الميادين ••• فاستبشروا وزايلهم بعض خوفهم • ثم دعا المختارين فى المدينة وقراها وهددهم بالسجن ان لم يقضوا اليه بأسماء المجرمين • فلم يكد يمر النهار حتى توفرت لديه قائمة طويلة ، فسعى جنوده الى القبض عليهم ، فاستسلم الكثيرون وأودعوا السجن ، وقتل كل من حاول الفرار منهم • وحين بلغه أن بعض الفارين التجأوا الى المحمرة ، كتب الى أميرها الشيخ خزعل راجيا اعادتهم ، فأعيدوا الى البصرة مقيدين بالسلاسل • وبنيتجة هذه الحملة بلغ عدد القتلى من اللصوص واحدا وعشرين ، وضعت جثثهم داخل أكياس (كوانى) وألقيت فى النهر •• فظلت عائمة فيه •• ترتفع مع المد وتنخفض بالجزر ، فكان منظرها عبثا وعظة • ومن يومها وأهل البصرة ينعمون بالنوم اللذيذ بعد طول سهاد وقلق ، وهم يلهجون بالدعاء للوالى الجديد (أبو الكوانى) ••

وحين استتب الأمن عهد فخرى باشا الى المقدم وهبى بك بتولى أعمال الادارة • وكان هذا ذكيا ، حازما ، شجاعا ونزيها ، أصلح ما أفسده الدهر من شؤون الولاية وكشف عن تلاعب بعض الموظفين والحكام ، فزاول الحكم بنفسه فى القضايا الجزائية والحقوقية حتى شلت يد المحاكم تقريبا • وقد خلف فخرى باشا الوالى مخلص باشا ، الذى تمت على يده اصلاحات كثيرة • فبنى مخافر للشرطة فى المدينة وضواحيها ، وأنشأ ثكنة للجيش فى العشار لا تزال قائمة حتى اليوم ، وشق الطرق الواسعة ، وأقام فى منعطفات الأزقة أكشاك خشبية للحراسة لا يزال بعضها قائما ، وأحتم أعماله الجليلة فى صيانة الأمن بقتل الشقي المشهور عامر الذى كان عبدا مملوكا للسيد أحمد باشا النقيب ، وبمقتله انتهت آخر الاعمال اللصوصية المنظمة فى البصرة •

ان قصة الوالى فخرى باشا وخلفه الوالى مخلص باشا لهى قصة الاصلاح الذى يستطيع النزيه المخلص أن يقوم به فى كل مكان وزمان • أما الاعذار الواهية التى يبرر بها بعض المسؤولين قعودهم عن الاصلاح وتخاذلهم فى الحق •• فتمويه وتزوير • وللحاكم أن يختار لنفسه فى الحياة أحد سبيلين : التور ، أو الظلام •• والرجال اذا عاهدوا الله على خدمة الأمة صنعوا المعجزات ، وهم ان أرادوا التقاعس فى الزوايا متسع للمتقاعسين ••• انما الضمائر ليست سواسية ، والنفوس الكبار قلة •

الحالة الصحية والعمرانية

والمواصلات

اذا كانت حالة الأ من كما أسلفنا ، فمن الطبيعى أن تكون الحالة الصحية أسوأ بكثير • والحقيقة ان احدا لم يكن يفكر بالصحة ، فهى موضوع غير ذى بال فى دولة دب التفسخ فى كل أوصالها • والوقاية الصحية كلمة لا يفهم معناها أصحاب الشأن آنذاك • أما الاطباء فيندر أن يوجد منهم أكثر من واحد فى مركز الولاية • وحين انتشر وباء الطاعون والهيضة وفتكا بعشرات الالوف من الناس ، لم يكن أحد ليفكر فى وسيلة للوقاية غير الهرب ، ولكن الى أين •• فأينما يولى المرء وجهه فأين المرض يتبعه وروائح الجثث المتفسخة تملأ أنفه •

ولم يكن يوجد فى العراق كله غير مستشفى المجيدية الصغير فى بغداد الذى كان مخصصا للجيش ، ومستشفى ملكى صغير فى الكرخ • وقد أنشأ مدحت باشا هذين المستشفيات بضمن ما قام به من اصلاحات واسعة • كما انه لم توجد مشاريع اسالة الماء ، بل يشرب الناس من مياه الانهار ، وينقلونه منها الى بيوتهم بالقرب • وكان الاغنياء من أهل البصرة يشربون من مياه شط العرب ، ويشرب الفقراء الماء الآسن من نهر العشار نظرا لقلة تكاليفه ••

ولم تكن الشوارع مبلطة ، فهى فى الصيف مصدر دائم للغبار ، وهى فى الشتاء برك وأوحال • وكثيرا ما يغدو المشى متعذرا ، وليس من سبيل الى

اجتياز الطرق غير امتطاء ظهور الجمالين * * * وكانت الأزقة تضاء في الليل بالفوانيس الخافتة فيصعب تمييز الطريق على المارين ، وكم من عابر سبيل قضى ليلته وسط (خمرة) أو في قعر (بالوعة) * *

أما وسائط النقل الحديثة فلم تكن معروفة في ذلك الحين ، وكانت الوسائط الشائعة هي تلك التي استعملها أسلافنا في وادي الرافدين منذ آلاف السنين : الدواب والسفن الشراعية * *

وحين قدم مدحت باشا أسس مصلحة للبواخر النهرية بين بغداد والبصرة ، وأجاز لشركة لنج العمل في الخط نفسه * كما أنشأ خط الترام بين بغداد والكاظمية * وقد آلت تلك البواخر الى السلطان عبد الحميد الذي تملكها لنفسه عنوة كما تملك الكثير من الاراضي الزراعية الخصبة وأطلق عليها اسم الاملاك السنية * *

القضاء والادارة والتجنيـد

كانت المحاكم على ثلاث درجات : بدائية ، واستئنافية ، وتمييزية * فالمحاكم البدائية توجد في مركز كل ولاية ، وتتألف من : حاكم الجزاء ، وحاكم التحقيق ، ورئيس محكمة التجارة ، والمدعى العام * وهؤلاء يعينون بأرادة سنية * وتعين الوزارة نائبي حاكمين لكل محكمة * أما هيئة المحاكم فتتألف من اربعة اعضاء من الوجوه والاعيان (مسلمين ، ومسيحي ، ويهودي) تنتخبهم لجنة التفريق ويصادق على انتخابهم الوالى * *

ومحكمة الاستئناف ، التي مقرها بغداد ، تنظر في القضايا المستأنفة من انحاء العراق المختلفة * وهي تتألف من حكام معينين بأرادة سنية ، ومن هيئة من الأهلين ايضا * وفي حالة استئناف قضية تجارية فتحال الى محكمة الاستئناف التجارية العليا في استانبول مباشرة * أما محكمة التمييز فمقرها استانبول * *

لم يكن راتب العضو الاهلي في المحكمة ليتجاوز الليرتين ونصف ، ولكن الوجوه كانوا يتنافسون على هذا المنصب ويبدلون الرشوات بسخاء للحصول عليه * ومن الطبيعي أن يكون رأى هؤلاء صوريا بالنسبة الى رأى الرئيس ،

فهم موافقون دائماً على قرارات الحكام مهما شطت عن السبيل السوى .
 وإذا أردت وصف الإدارة فليست واجداً فيها محاسن تذكر ، وسأقصر
 همي على ذكر مساوئها العديدة . فالمناصب والوظائف كانت تمنح لغير
 مستحقها ، وكان القانون يتضاءل أمام رغبات المتنفذين ، وكانت المحسوبة
 والوساطة هما أمضى سلاح للتقدم . أما الرشوة فكانت طابعا ملازماً لكثير من
 الموظفين بدونها لا تنجز مهمة ولا تنتهي قضية . بالرشوة كان الأمي
 يعين في المناصب الكبرى ، والشرير في دوائر الشرطة ، والجاهل في
 الوظائف القضائية والثقافية . وبالرشوة كان الظالم يكسب دعواه الباطلة في
 المحاكم ، والكسالى يحصلون على رتب الباشوية والأوسمة ، والرئيس يتغاضي
 عن تلاعبات مرؤوسيه وسرقاتهم . ولا يظن القاري الكريم ان الحكومة كانت
 خالية من الموظفين الأخيار والحكام التزيهين والولاء المنصفين ، كلا ، بل كان
 هنالك الكثيرون منهم . ولكن الوضع كان ينطبق على المثل العامي : بسعر
 اليابس يحترق الأخضر .

وكان اذا عرف احد الوجوه بالشغب واثارة المشاكل ، ولم يرغب
 السلطان في ايدائه بسبب نفوذه ، عينه عضواً في مجلس شوري الدولة (١) ،
 حتى لو كان أمياً ، فيوفر له حياة مترفة في استانبول بعيداً عن الشغب
 والمشاكل .

ويروى في الرشوة طرائف كثيرة . منها ان قاضي الشطرة ، الذي انتهت
 مدته ، رغب في إعادة تعيينه في سوق الشيوخ أو الحي . فأبرق البرقية التالية
 الى قاضي بغداد يلتمس منه ترشيحه لأحد هذين المنصبين الشاغرين :-

« ان سقتم الشيخ الى السوق فممنون بخمسين ، وان أودعتم الميت الى
 الحي فممنون بستين » .

وأخيراً عين في الحي بعد دفع الستين ليرة . . .
 وصادف يوماً ان شكاً أحد المراجعين قاضي البصرة ، وكان سورياً ، الى

واليها مخلص باشا ، قائلاً ان القاضى تعمّد تأخير قضيته أشهراً ، كى يضطره الى دفع الأتاوة المعتادة • فما كان من الوالى الا أن أخرج خمس ليرات ذهبية وأشتر على حوافها بالجبر الأحمر ، وأمر المراجع باعطائها للقاضى كرشوة • وبعد هنيهة دعا الوالى القاضى الى غرفته وطلب منه أخراج كيس نقوده ، فوجد بينها الليرات المؤشرة ، فلما هم بضربه خرج القاضى راكضاً وهو يتمتم :
يخرب بيتو منقطها !...•••

كانت الحكومة تعامل الناس بقسوة وفضاظة ، وهى تنظر الى المفكرين والأدباء بعين الحيطه والحذر ، فلم يكن أهون عليها من نفيمهم أو سجنهم • ولو شاء جاسوس أن يوشى بأمرىء لما بات ليلته فى داره • وقد بلغ عدد الجواسيس فى أواخر عهد عبدالحميد رقماً خيالياً ، حتى ان الاتحاديين قد روا روايتهم بخمسة ملايين ليرة ذهبية سنوياً • ولما ضاق الأحرار ذرعاً بهذا الضغط على حرياتهم ، فرّ بعضهم الى مناطق الأمان ، ومنهم الكاتب الحر عبدالرحمن الكواكبى الحلبى الذى التجأ الى مصر وألّف فيها كتابيه المشهورين (أم القرى) و(طبائع الاستبداد) اللذين حضّ فيهما العرب على مقاومة الحكم العثمانى ، وعلان الاستقلال ، وتألّف الجمعيات السرية ، ونزع الخلافة من السلطان •

وبتهمة العطف على ابن السعود نفت الحكومة الحاج محمد الشعيبي وعبدالله العويد ومحمد الشبل ، من تجار البصرة ، الى قونية • ونفت كذلك من اشرف بغداد : العلامة الشيخ محمود شكرى الألوسى ، والعسافى الى ديار بكر • الا انهما حين مرا بالموصل ، فى طريقهما الى المنفى ، أبرق علماء المدينة وأعيانها الى السلطان يسترحمون ابقاءهما فى الموصل ، فأجابهم الى طلبهم •

أما سياسة التجنيد فى الدولة العثمانية فلم تكن واضحة المعالم • ففى الوقت الذى كان المجندون من أبناء العرب يرسلون الى سوح الحرب فى طليعة الجيوش العثمانية ، كنا نرى ان الاعفاء من الخدمة كان يشمل طبقات عديدة ومناطق واسعة من البلدان العربية • ويظهر ان خشية الحكومة من ارتفاع

نسبة العرب بين الجنود هي السبب في التساهل في تجنيدهم • وكان الاعفاء يشمل أهل نجد ، ومصر ، ولبنان ، والاحساء ، والكويت ، والحجاز ، وكر بلاء ، والنجف ، والزبير ، وأبناء العشائر السورية والعراقية ، وطلاب العلم ، والعلماء المجازين ، ومشايخ الطرق ، والسادة الرفاعيين • وكان الجندي العربي في أسوأ حال • فهو في زمن السلم مهان ومعرض لشتى أنواع العقوبات ، وهو في الحرب فدائي يرسل الى جبهات القتال البعيدة • وليست حرب القفقاس التي استشهد فيها مالا يقل عن ثمانين بالمائة من الجنود العراقيين ببعيدة عن الأذهان •

الثقافة والتعليم

كان للجهود التي بذلها محمد علي باشا الكبير في نشر التعليم في مصر وارسال البعثات العلمية الى اوربا أثر بالغ في رفع مستوى الثقافة وفي خلق طبقة من العلماء والساسة في ذلك البلد • وفي لبنان عملت المؤسسات الثقافية الأهلية والاجنبية على تعليم أبناء الشعب ، فارتفع فيها مستوى الثقافة والتعليم الى حد بعيد • وتأثرت سوريا ، لقربها من لبنان ، بالنهضة الثقافية فجارت أختها الى حد ما • أما العراق السيء الحظ فظل يتعثر في دياجير الجهل ، واقتصرت الحركة التعليمية فيه على مدارس الحكومة الاولى والاعدادية القليلة الموجودة في المدن الكبرى فقط ، بينما حرمت القرى والأرياف من التعليم حرمانا تاما • وكانت مناهج الدراسة في هذه المدارس بتراء لا تقى بالقصد ، ويكفيك ان قواعد اللغة العربية فيها كانت تدرس باللغة التركية • وقد جاء اهتمام السكان بتعليم ابنائهم متأخرا ، فكانت الأقلية من الطبقات الموسرة هي التي تعنى بتدريس ابنائهم • وقد يكون لهم في عزوفهم عن الدراسة سبب معقول ، ذلك ان الكليات والدراسات العليا كانت مركزة كلها في استنبول • ولا يخفى ما تتطلبه الدراسة هناك من نفقات باهظة واغتراب طويل • وهكذا ترى ان الذين تلقوا علومهم في استنبول من أهل المدن العراقية قليلون جدا • أذكر منهم :- انجال المرحوم يوسف السويدي الخمسة : ناجي ، وعارف ، وثابت ، وتوفيق ، وشاكر • وانجال المرحوم شوكت باشا : صائب ، وسامي ،

• نواجي • وحكمت سليمان ، داود سمرة ، نشأت السنوي ، موسى الباجه جي ، مصطفى التكرلي ، عاصم الجلبى ، نعيم زلحة ، حمدي الباجه جي ، داود الحيدري ، وداود الديبوني • ومن الاطباء : هاشم الوتري ، جلال العزاوي ، اسماعيل الصفار ، وفائق شاكر وغيرهم • ومن الاطباء في الموصل : عبدالكريم قليان ، داود الجلبى ، يحيى نزهت ، وعبدالله الدمولوجي • ومن البصرة : المرحوم عبدالعزيز المطير ، الذي درس القانون في كلية الحقوق في قونية على أثر تأسيسها •

أما الذين أتموا دراستهم العسكرية في استانبول فكثيرون ، بسبب توفر الأقسام الداخلية في الكلية الحربية •

وقد تمكنت من الحصول على احصاء رسمي للمدارس الحكومية في العراق عام ١٩٠٥ أورده باختصار :-

في بغداد

اعدادية ملكية ذات سبعة صفوف • واعدادية عسكرية ذات ثلاثة صفوف • ورشدية عسكرية ذات أربعة صفوف • وأربع مدارس أولية • ومدرسة واحدة للاناث •

وفي أقضية بغداد الاحدى عشر ونواحيها : احدى عشرة مدرسة رشدية ذات ثلاثة صفوف ، واحدى وعشرون مدرسة أولية •

في لوائى كربلاء والديوانية التابعين لبغداد وأقضيتهما الستة : ثمانى مدارس رشدية ، وخمس عشرة مدرسة أولية •

في الموصل

أعدادية ملكية ذات خمسة صفوف ، ومدرستان أوليتان • وفي أقضية الموصل الخمسة ونواحيها : خمس مدارس رشدية ، واثنى عشرة مدرسة أولية •

وفي لوائى كركوك والسليمانية التابعين للموصل وأقضيتهما التسعة :

تسع مدارس رشدية ، ست عشرة أولية ، ومدرسة رشدية عسكرية ذات أربعة صفوف في السليمانية تهىء خريجها للدخول في المدرسة الاعدادية العسكرية في بغداد •

في البصرة

في البصرة وقضائيا : مدرستان رشديتان ملكيتان ، واثنان عشرة مدرسة أولية • وفي لوائي العمارة والناصرية التابعين للبصرة وأقضيتهما السبعة ونواحيهما : خمس مدارس رشدية ، وخمس عشرة مدرسة أولية •

وكان ملاك المدرسة الأولى معلما واحدا ويندر أن يكون اثنين • ويبلغ المجموع الكلي لعدد الطلاب في هذه المدارس ، بما فيها العسكرية والملكية ٤٢١٠ طالبا و ٢٦٣ معلما فقط •

أما المدارس الأهلية في العراق فهي المدارس الاسرائيلية والمسيحية في المدن الرئيسية الثلاث ، وطلابها كثيرون ، والدراسة فيها أحسن حالا من المدارس الحكومية •

مدحت باشا

مدحت أبو الأحرار ، ومدحت المصلح ، ومدحت الشهيد •

فهو المصلح الكبير ، الذي تولى الولاية في بغداد في أوائل عام ١٨٦٩ م ، في عهد الظلم البغيض ، فأنجز من الاعمال الجليلة ما لا زالت آثارها باقية حتى اليوم • ان أمد حكمه القصير في بغداد ، الذي لم يزد على الستين ونصف ، كان مليئا بالمشاريع المفيدة والاصلاحات العظيمة • فقد قضى على الاعمال اللصوصية ، وأعاد الأمن الى نصابه ، ونظّم المحاكم بعد تسبب ، وأصلح جهاز الادارة بعد فساد ، وأشأ مباني ضخمة لدوائر الحكومة ، ونظّم ماليتها ، ودفع المتراكم من رواتب الموظفين ، وأزال ظلم البوليس وجوره ، وأسس مطبعة الحكومة ، وأصدر جريدة رسمية ، وأسس مدرسة صناعية واستورد لها الأدوات اللازمة ، ومدارس عسكرية وملكية أعدادية ،

ونظّم أعمال شركة البواخر النهرية ، وقام بتأسيس معمل لاصلاح تلك
البواخر ، وأنشأ العبخانة التي كانت تقوم بنسج البسة الجنود وبطانياتهم ،
وفتح الطرق ، وأسس مستشفى المجيدية ، وحول مجرى دجلة لاختصار
طريق البواخر في محل يسمى (القصة) ، ووضع مشروعات للرى والزراعة
بلائحته المشهورة (لائحة مدحت باشا) ، وربط ضريبة نخيل البصرة برسم
الجريب المقطوع ، وأسس نظام العقر في بعض المدن ، ووضع أصولاً لتوزيع
الاراضي الاميرية على المزارعين بطريقة الملكية الصغيرة ، وألّف شركة ترامواى
الكاظمية - بغداد ، وغير ذلك من المشاريع والاعمال المفيدة . .

وهو أبو الأحرار ، لان الدستور الذى أعلن في عام ١٨٧٧ م لم يتم
الا بمساعيه ومساعى رفقائه . فهم الذين حملوا السلطان على اعلان ذلك
الدستور وعلى فتح مجلس الأمة . الا أن ذلك لم يرق لبطانة السلطان والمتنفذين
حوله ، فصوروا له المخاطر التى سينجم عنها اشتراك الأمة في الحكم ،
وحببوا اليه الاستئثار بالحكم ، فتأثر بأقوالهم وحل المجلس وشتت شمل
أعضائه ، وألغى الدستور ، وأمر بنفى مدحت باشا الى الطائف .

وهو الشهيد لأنه مات خنقا بيد رجال السلطان ، الذى كان بقاء مدحت
باشا في قيد الحياة يؤرقه ويسهده . . . وقد سر السلطان حين بلغه نعى مدحت ،
فأمر بترفيه القتلة وهم :

المقدم بكر بك الجركسى الى رتبة أمير لواء ، الملازم ابراهيم الجركسى
الى رتبة عقيد ، العريف ميمش اغا الى رتبة مقدم ، العريف الزنجى على الى
رتبة رئيس ، والعريف محمود جاوش الى رتبة رئيس اول .

وبمقتل مدحت باشا طويت الصفحة الأخيرة من صفحات البطولة
والاخلاص في حياة هذا الرجل .

ثمالة الكاس

في أواخر عهد الاستبداد ، وقبل اعلان الدستور العثمانى بخمسة عشر
يوما ، أرسلت الى المشيخة الاسلامية فى استانبول برقية أشكو اليها تعسف

القاضي في إحدى الدعاوى التي كنت موكلًا فيها . فلما بلغ مسامع الوالي عبدالرحمن حسن بك خبر شكواي إلى المراجع العليا دون مراجعته هو ، غضب غضباً شديداً وأمر بتوقيفي ، ثم أوعز إلى المحكمة بسجنني ، فأصدرت حكمها عليّ بالسجن شهراً واحداً . ورغم استئنافي الحكم في محكمة الاستئناف في بغداد ، أبت المحكمة أن تطلق سراحني بكفالة كما تقضي القوانين ، اطاعة لأوامر الوالي الخاضع . فأرسلت مخفورا إلى بغداد لحضور جلسات الاستئناف . ولما وصلت الكوت رأيته مزدانة بالأعلام ، والمهرجانات قائمة على قدم وساق . فلما سألت عن الخبر ، قيل لي إن الدستور العثماني قد أعلن مؤذنا بزوال عهد الارهاب والظلم ولسوف ينعم الشعب بالحرية والرفاه . ففرحت أشد الفرح . وحين وصلت بغداد نظرت محكمة الاستئناف في قضيتي ، وقررت الافراج عني . وكان قرارها السريع هذا بتأثير من المرحوم عبدالرحمن جميل عضو المحكمة المذكورة والمرحوم الشيخ ابراهيم الراوي . وعند عودتي إلى البصرة علمت أن الوالي عبدالرحمن حسن بك فرّ على ظهر باخرة إلى الهند ، إلى غير رجعة ، خوفاً من عقاب الاتحاديين .

وهكذا ودعنا عهد الظلم والاستبداد ، بعد أن شربنا فيه كأس الغدر والمهانة حتى الثمالة ، واستقبلنا عهد الدستور الجديد .



في عهد جمعية الاتحاد والشرق

نحن الآن فى مستهل عام ١٩٠٨ • وقد بلغت الاحوال فى الامبراطورية المتداعية الدرك الأسفل ، وتمزقت اوصالها بفعل الغازات الاجنبية عليها • فاحتلت روسيا مقاطعة القارص وباطوم وأردهان • واستولت النمسا على البوسنة والهرسك • وسطت اليونان على تساليا وبيره • وانزلت بريطانيا جيوشها فى قبرص ومصر فسيطرت عليهما • واستقلت كل من رومانيا ، والصرب ، والجبل الاسود ، وبلغاريا ، وكريت • وتدفع الجنود الفرنسيون على تونس فطردوا منها العثمانيون •

أما النوضع فى الداخل فقد كان سيئا جدا ، وقد عم الخراب المملكة وهام أحرار البلاد على وجوههم خوفا من بطش الحكومة كما أسلفنا • ولكن هذا الخوف لم يمنع الاهلين من ابداء تدمرهم فى السر ، خاصة بعد أن سرت همسة فى ارجاء البلاد عن وجود جمعية سرية فى مقاطعة الرومللى بسلانيك تناوىء الحكومة القائمة وتبشر « بالحرية » و « المساواة » و « العدالة » •

نشوء جمعية الاتحاد والترقى واستيلائها على الحكم

قامت هذه الجمعية على أكتاف الضباط بادی الأمر ، فكان اعضاؤها يعملون فى الخفاء على بث مبادئها وللحصول على تأييد بعض القواد العسكريين وكبار الموظفين من المطالبين بالاصلاح • وقد ساهم فيها الانراك والعرب والاكراذ وأبناء الاقوام الاخرى على حد سواء ، فظفروا بتأييد الفريق هادى باشا العمرى ومحمود شوكت باشا وطلعت بك وجاويد بك وصلاح الدين جيمجوز وكثيرين غيرهم • أعلن نيازى بك العصيان فى منطقة سلانيك ، وتبعه انور بك وعاطف بك • وبهذا انتقل كفاح الجمعية من التبشير بمبادئها سرا الى الثورة • ووجهت الجمعية انذاراً الى السلطان باحتلال استانبول ان هو لم يعلن الدستور •

مادت استانبول لآبناء الثورة ، وتحركت فرقة من الجيش بقيادة شمسى

باشا نحو سلايك لآخاماد العصيان • ولدى وصولها المدينة المذكورة تقدم عاطف بك ، فدائياً متطوعاً ، وقتل بيده شمسى باشا قائد الحملة ، فأسقط فى يد ضباطه وجنوده ، وتبلبلت آراؤهم فلم يروا حلاً خيراً من الانضمام الى جيش الثورة •

وهكذا زحفت قوات انور ونيازى الى استانبول واحتلتها فى ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ ، واقت القبض على الوزراء ورجال البلاط والمتنفذين • وتشكلت الوزارة الجديدة برئاسة كامل باشا ، فأعلنت الدستور ، وأصدرت عفوا عاما عن المسجونين السياسيين والمنفيين • عمت البشرى جميع البلدان وأقيمت معالم الزينة والمهرجانات فى كل مكان •

انتقل مركز الجمعية الى استانبول ، وفتحت فروعا لها فى المدن العثمانية ، فانضم اليها المواطنون جماعات وافرادا ، آملين قيامها بالاصلاح المنشود وقضائها على الأوضاع الشاذة • وحين افتتح فرع الجمعية فى بغداد كنت قد قدمتها لاستئناف قضيتى ، كما أسلفت فى الفصل السابق ، فانتميت اليها بواسطة رشيد الخوجة رئيس أركان الجيش فى بغداد ورئيس فرع الجمعية فيها • وواظبت على حضور اجتماعاتها ، وكشفت لأعضائها عن تصرفات والى البصرة عبدالرحمن حسن بك واختلاساته ، فقررت الجمعية ارسال بعض الضباط لالقاء القبض عليه وسجنه • وقبل أن تغادر هذه البعثة بغداد ورد نبأ هروب والى المذكور الى الهند مستصجبا معه مبلغا جسيما من أموال الدولة يناهز الستة عشر الف ليرة ذهبية •

بعد عودتى الى البصرة كنت احضر اجتماعات فرع الجمعية بصورة منتظمة ، حيث ألتقى بنخبة من الضباط العراقيين وبعض الموظفين والأهليين • وحين قدم اول وال للبصرة فى العهد الجديد ، محرم بك ، كلفت بالقاء خطاب ترحيبي بمقدمه ، فألقيته باللغة التركية • وكان ملخصا للحالة السيئة التى كان يقاسيها الشعب ، ودعوة الى الاصلاح ، وقع فى نفس والى موقع الاحسان •

وبعد ايام عاد الى البصرة من استانبول السيد طالب بك النقيب واحمد

بشا الزهير ، اللذان كانا محجورا عليهما فى استانبول فى العهد البائد كعضوين فى مجلس شورى الدولة ، فتعرفت عليهما آنذاك للمرة الاولى • ثم جرت انتخابات النواب ، ففازا بناية البصرة وعادا الى استانبول بعد اعلان الدستور • فاجأ نيازى بك زملاءه بالانسحاب من الجمعية ، والاستقالة من الجيش ، والعودة الى قريته ليعيش فيها كمزارع بسيط ، بالرغم من التماسات اصحابه لحمله على البقاء فى دست الحكم • فكان يجيبهم دائما بأنه أنجز واجبه نحو أمته ، وهو بعد هذا لا يريد مناصبا ولا جاها • وكأنه كان على علم بما سيرتكبونه من الهفوات والخطايا التى لا تقبل بحال من الاحوال عما ارتكبه اسلافهم اعوان السلطان • فلم تكد الأمور لتستتب حتى بدأ رؤساء الجمعية يساومون رجال العهد البائد لخراجهم من السجون • وقد أخرج بالفعل عدد كبير منهم مقابل رشوات جسيمة • وركبهم الغرور ، واستبد بهم الطيش والجشع ، فخرجوا عن مبادئ الجمعية حتى قال فيهم الشاعر :-

كان عبد الحميد بالأمر فرداً ففدا اليوم الف عبد الحميد

أثار انحراف زعماء الجمعية عن مبادئها المرسومة امتعاضا بين الاحرار فى استانبول • فأسسوا حزبا جديدا أسموه حزب الاحرار ، مهمته انتشال الدستور والحرية من التردى والاضطهاد على ايدي رجال جمعية الاتحاد والترقى • فما كان من هؤلاء الأخيرين الا أن قضاوا على الحزب الجديد ، واغتالوا أحد رؤسائه حسن فهمى بك رئيس تحرير جريدة سريستى ، ثم طلبوا من السلطان اقالة كامل باشا رئيس الوزراء لأنه لم يسايرهم فى اندفاعهم الأهمج • فلما رفض السلطان طلبهم ، نظراً لمخالفته الدستور ، أوعزت الجمعية الى مجلس النواب بسحب الثقة من الوزارة ، فسقطت •

خلع عبد الحميد

دأب الاتحاديون منذ استيلائهم على المناصب الكبيرة يجمعون المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، اذ كان معظمهم من المعدمين قبل الانقلاب • فلما ارتقوا الى أعلى المناصب بعده ابهضتهم نفقات الحياة الجديدة ، فسعوا وراء المال حلالا أو حراما لسدها •

وكان أكثر ما يستهويهم ، تلك النفائس والمجوهرات والخزائن المكدسة -
 في قصور يلدز ، حيث يقيم السلطان • فلا عجب أن يتآمر الاتحاديون على
 خلع عبد الحميد والاستئثار بكنوزه • ولكنهم كانوا يفكرون فيما سيعقب هذا
 الخلع من جزع واشمئزاز لدى الناس ، خاصة بعد أن أذعن السلطان لارادة
 الأُمَن وأعلن الدستور • فاحتالوا - أى الاتحاديون - بتنظيم مظاهرة دينية
 من الملائيين والبسطاء تنادى باحلال الأحكام الشرعية بدل بعض مواد الدستور ،
 واتهموا عبد الحميد بتدبيرها •

وفى يوم ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩ ، قدم يلدز وفد الجمعية لمقابلة السلطان ،
 وأفهموه قرار الجمعية والشعوب العثمانية من ورائها بخلعه • ولم يشأ السلطان
 أن يقاوم هذا القرار حقنا للدماء ، فعاش بقية عمره سجيناً فى قصره بسلانيك •
 وأصبحت كنوزه فى قبضة الاتحاديين • • وجىء بمحمد رشاد فنصب سلطاناً
 على الدولة العثمانية وخليفة للمسلمين ، وكان هذا غيباً ، بليداً ، مدمناً على
 الحمره لا يكاد يصحو من تأثيرها •

مدرسة تذكار الحرية

على أثر اعلان الدستور واطلاق الحريات ، قويت لدى الرغبة فى
 العمل فى خدمة الأمة العربية عن طريق الصحافة ، والتعليم ، واثارة الوعي
 القومى بين الناس • ولقد وجدت فى البصرة ميداناً فسيحاً لهذا النشاط ،
 إذ كانت تقتقر الى المدارس اللازمة ، وكان أهلها غافلين عن تعليم أبنائهم
 وتثقيفهم • فتقدمت الى السلطات المحلية بطلب تأسيس مدرسة اعدادية اهلية ،
 تبدأ أولاً بصفيين ، ويكون أسمها (تذكار الحرية) ، يكون التدريس فيها
 باللغة العربية ، وتدرس فيها التركية والانجليزية والفرنسية كلغات اجنبية ،
 على غرار المدارس العربية الاهلية فى بيروت • ولدى مقابلتى للوالى ، قال لى
 انه يحب التعليم ويحب انشاء هذه المدرسة ، الا أن اسمها العربى وتدريسها
 باللغة العربية يتعارضان مع القوانين المرعية ، لذلك اقترح على ان اجعل اسمها
 (يادكار حرية) ، وان لا أتناول بالذكر فى عريضتى موضوع اللغة ، وانه

— أى الوالى — سيفض الطرف عن هذه المخالفة فلا يبحث عنها فى كتابه الى الوزارة • وعند حصولى على الاجازة كان لابد من المال لتنفيذ المشروع ، فجمعت تبرعات بمبلغ ٨٦ ليرة ، واستأجرت دارا ، وهيأت لها الرحلات والادوات اللازمة ، وارسلت بطلب الكتب المقررة من بيروت • وقد احتفظت بإدارة المدرسة لنفسى ، وعينت الحاج احمد السالم معاونا ، وانتخبت لها المعلمين الأكفاء ، وهم :

السيد عبدالعزيز التكريتى : لقواعد اللغة العربية وللدین ، المستر مانويل : لغة الانجليزية ، المستر ر • اندريه : لغة الفرنسية ، ثم أخلفه الياس هرمز ، المحامى عمر فوزى : (متبرعا) للغة التركية ، نورى محمود : للخط • وقد تبرع الضباط العرب التالية اسماءهم بتدريس بقية الدروس مجانا وهم :-

عبدالرزاق حلمى (متصرف البصرة الأسبق) ، والركن سامى الأورفلى ، وتوفيق فكرت ، ورأفت أرضروملى ، وأحمد رشدى (آمر القوة النهرية الأسبق) •

وفى حفلة الافتتاح ، فى ٢٧ تشرين ثانى سنة ١٩٠٨ ، حضر الوالى وجمهور غفير من الموظفين والأهلين ، وارتجل الوالى كلمة أشاد فيها بمجهود المؤسسين ، وأعقبه يوسف باشا المنديل بخطاب وتبرع بعشر ليرات اضافة الى تبرعه السابق • ثم طاف المدعوون فى غرف الصفوف ، وانفض الاحتفال •

وبعد ايام قلائل من افتتاح المدرسة زارها احمد باشا الزهير وتبرع لصندوقها بمائة ليرة ذهبية • وكان اقبال الاهلين على ارسال اولادهم الى هذه المدرسة عظيما ، حتى بلغ مجموع طلابها فى السنة الثانية مائة وستين أتذكر منهم :-

احمد نورى ، شاكر النعمة ، وعبدالله ومصطفى الطه السلطان ، عبدالمجيد وعبد الحميد بهيع ، ومحمد شاكر العبد السيد ، وسعدون الشاوى ، وتوفيق الحاج عذار ، ومحمد وعبدالله الصانع ، وعيسى طه ، وحبيب وعبد الجبار

الملاك ، ومحمد الخلف العبد الواحد ، وغالب توماس ، وشكري كوركجي ،
ونجيب كرومي ، وفائق عبدالرزاق منير ، ويوسف هارون يامين ، ومحمد
شريف المنصور ، وعبدالعزيز المنصور ، وعبدالعزيز المنديل ، ومحمد احمد
السامرائي ، ومحمود ومهدي الحاج داغر ، وكمال ونوري عمر فوزي ،
واحمد غلوم .. الخ ..

ولما ضاقت الدار بالطلاب ، انتقلت المدرسة الى بناية جديدة للأوقاف
في محلة السيف (مدرسة السيف الابتدائية للبنين في الوقت الحاضر) .
وكانت المدرسة تستوفي من الطالب الغنى اربعمائة فلس شهريا ، ومن متوسط
الحال مائتي فلس ، ولا تستوفي من الفقير اجرا ، بل كانت تجهزه بالكتب
مجانا . ودأب بعض المحسنين على التبرع لقرائها بين حين وآخر . وزارها
الوالي محرم بك أكثر من مرة واهدى الى ادارتها تصويره ، وكان المرحوم
الشيخ عبدالله باش اعيان يتفقدوها بصورة منتظمة ويشارك طلابها ومدرسيها
سفراتهم الربيعية .



هيئة المدرسين والتلاميذ
في مدرسة تذكار الحرية يتوسطهم المؤلف

وبعد عام واحد راجعني معتمد فرع جمعية الاتحاد والترقي ، واخبرني بأن مركز الجمعية في استانبول قد كلف الفرع بفتح مدرسة في البصرة ، ولما كانت ماليته لا تساعد على القيام بهذا المشروع ، فقد التمس مني أن أجعل مدرستي تحت نظارة الجمعية ، فتقوم هي بإدارتها ماليا ، وتحفظ لي بشرف التأسيس مع بقائي مديرا لها براتب شهرى قدره خمس ليرات . وبعد جدل طويل لم أر بدا من القبول ، وسارت الامور بادىء الامر كالعتاد ، غير اني فوجئت بطلب الجمعية بتبديل أسم المدرسة الى (مدرسة الاتحاد والترقي) ، وجعل التدريس فيها باللغة التركية . فلم أقبل ، واشتد النزاع بيني وبين الجمعية . وحين رأأت الجمعية شدة عنادى قررت أن تخبر الوزارة بأمر التدريس باللغة العربية خلافا للقوانين ، وهذا معناه غلق أبواب المدرسة . وقد شكوت الحال الى والى ، سليمان نظيف اذ ذاك ، وطلبت منه أن يحكم بيني وبين الجمعية فأجبنى :-

انك محق في تمسكك بالاحتفاظ بأسم المدرسة وتدرّس اللغة العربية فيها ولكن حكمي ، اذا أردته ، سيكون عليك وليس لك ، تنفيذا لرغبات استانبول . فنصحتني أن تتفق وياهم بأى ثمن .

وهكذا اتفقت على ان اتخلى للجمعية عن المدرسة في نهاية تلك السنة الدراسية وأستقيل من مديريتها وانفض يدي من المؤسسة التي بذلت في سبيلها تعباً جسيماً وبنيت على أبنائها آمالا كباراً ، والتي كنت أخنو عليها وأحرص على كيانها حرصى على كنز ثمين أو ولد عزيز .

ومنذ الساعة التي رأيت فيها اللافتة الجديدة على مدرستي وسمعت طلابها يرددون الدروس بالتركية ، منذ تلك الساعة أيقنت ان جمعية الاتحاد والترقي لا تضمر للعرب الا السوء والشر ، وانها سائرة الى تتركهم ومحو عربتهم . فقدمت استقالتي من الجمعية وناولتها ، كما سيأتى ذكره في الفصول القادمة .

وعندما فتحت الجمعية أبواب المدرسة في سنتها الثالثة ، لم يؤمها غير عدد

ضئيل من الطلاب ، احتجاجا على تبديل منهاجها ولغة التدريس فيها ، مما أضطر الجمعية الى اغلاقها وتحويل بنائها الى ناد لاعضاءها • وهكذا انمحي اثر جليل لو قدر له البقاء لساهم في اعداد جيل ممتاز من أبناء الفيحاء •

جريدة الايقاظ

ان الرغبة الملحة في القيام بأعمال وطنية مفيدة كانت تتأجج في نفسى ، فأزمنت على اصدار صحيفة حرة تنادى بالاصلاح ، وتهاجم الباطل حيثما كان •• وكيفما كان ، وتفصح عن رغبات الشعب في تعميم اللغة العربية في دوائر الحكومة ومعاهد التعليم ، وتطالب بفتح المدارس وأنشاء المستشفيات ومجانبة التعليم ، الى غير ذلك من الاصلاحات • وبعد لأي حصلت على أجازة لاصدار جريدة (الايقاظ) ، وقد صدر العدد الاول منها بتاريخ ٢ مايس ١٩٠٩ ، فكانت اول صحيفة اهلية في البصرة ، عدا الجريدة الرسمية التي تشر القوانين والانظمة باللغة التركية مع تعريب مقتضب •

وقد لاقت جريدتي رواجاً منقطع النظير بالنسبة الى الاوضاع السائدة في ذلك الوقت • فبلغ عدد ما يوزع منها اسبوعيا الف نسخة ، وكانت ترسل بانتظام الى مشتركها خارج العراق كمالهند ، والمحمرة ، والكويت ، والبحرين ، وعدن ، ومسقط ، وجدة ، وسنغافورة وغيرها • ويعلم الله كم لاقت بسبب صحيفتي هذه من المتاعب والمشاكل ، ومن تعنت المسؤولين وتجبرهم •

ان النجاح الذي اصابته جريدة الايقاظ شجع فريقا من الادباء في البصرة على اصدار جرائد أخرى • ففي ٣ حزيران ١٩٠٩ صدرت جريدة (التهذيب) لصاحبها الشيخ محمد أمين على باش أعيان • وفي تموز من السنة نفسها صدرت جريدة (اظهار الحق) لصاحبها قاسم جلميران ، ومحررها عبدالقادر العبادي • ثم هذا حذوهم كثيرون كما سيأتى ذكره في بحث خاص • وفي تلك الاثناء قدم البصرة واليها الجديد عارف بك المارديني ، بدلا من محرم بك ، فأقيمت حفلة كبيرة لقراءة فرمانه ، اقيمت فيها خطابا رحبت فيه بمقدمه ، وشكوت له سوء الاوضاع • فأجاب الوالى ، وهو عربى أشتهر

بالادب ، بكنمة مرتجلة بليغة عبّر فيها عن رغبته فى الإصلاح ، وأختمها بقول
عمر الفاروق المأثور : « أيها الناس ان رأيتم في أعوجاجا فقوموه »

ولكن الايام أظهرت أن الوالى الجديد كان رجل أقوال وليس رجل
أعمال ، وأنه من النوع الذي قيل فيه :- « يعد أياماً ويقبض راتباً »

وفى ذات يوم وردت الى صحيفتى (الايقاظ) و (اظهار الحق) نسخا
من عريضة قدمها أهل العشار الى الوالى ، يلتمسون منه أدماج بلدية البصرة
والعشار فى بلدية واحدة ، تقليصا لعدد الموظفين وتوفيراً لرواتبهم لغرض
فتح صيدلية فى العشار . فأعتبر الوالى عمل العشاريين هذا تدخلا فى شؤون
الحكومة ، وأوعز الى الصحيفة الرسمية بنشر مقال يمس كرامتهم ويهينهم .
فلما صدر المقال أبرق أهل العشار الى الوالى احتجاجا على الجريدة
المذكورة . ونشرت الصحيفتان الاهليتان صورة الاحتجاج ، مما أثار غضب
الوالى ، فأندر الصحيفتين بوجوب اتباعهما نظام المطبوعات القديم . وأمر
مدير مطبعة الحكومة بأجراء الرقابة على الصحف الاهلية قبل صدورها ،
فكان هذا الاخير يطالع كل صحيفة بعد طبعها ويختمها بختمه . ولم يكن
أيسر على من الحصول على هذا المستمسك الثمين . فذهبت الى الوالى
وأخرجته بكونه قد خالف القوانين الجديدة فى عهد الحرية ، وأريته الصحيفة
الموقعة بتوقيع الرقيب ، فأرتبك والقى اللوم على مدير المطبعة . ولكن المدير
أبرز أمر الوالى التحريرى بأجراء الرقابة ، فما كان منى ومن صاحبي الا أن
أبرقنا الى الوزارة بتفصيل الحادث . وعند ورود الاستفسار من الوزارة أنكر
الوالى صحة الشكوى ، فشددنا عليه النكير ، وأرسلنا برقيات أخرى تكذب
فيها أدعاءه ، فعمد الى جمع مجلس الادارة ، وكلهم من أعيان البلد . . .
وكلفهم بتوقيع شهادة تنفى صدور الأمر من الوالى ، وتنفي حدوث الرقابة .
فأصدر عييد القوة قرارهم بجانب الوالى . فلما رأينا أن الامر يكاد
ينقلب علينا ، أبرقنا الى الوزارة نطلب إرسال هيئة للتحقيق فى الحادث ،
وللاطلاع على الوثائق الرسمية التى نحفظ بها . وهنا أغلق على الوالى

وأوصد بوجهه سبيل النجاة ، فقدم استقالته من تلقاء نفسه ، وقيلت في آخر
 يلول عام ١٩٠٩ • وعين وكيلا للولاية بعده راقم بك الزهاوى منصرف
 العمارة الذى أشتهر بحرية الرأى والنزاهة • وهكذا عادت صحفنا الى
 الصدور فى أول تشرين الاول عام ١٩٠٩ بعد احتجاب دام أكثر من شهر •
 ولم يدم عهد راقم بك طويلا ، اذ جاء الوالى سليمان نظيف ، الذى
 عاصرت ولايته فى البصرة ولاية ناظم باشا فى بغداد • وكان الاخير قد جاء
 الى بغداد بصلاحيات واسعة وأستصحب معه فريقا من الضباط الاشداء ، فعين
 أحدهم المقدم نشأت بك قائدا للجيش النظامى والرديف فى البصرة ، والمقدم
 شاكر بك (طابور اغاسى) معاونا لمدير الجندرية العام •

صدر العدد الثانى والحسين من (الايقاظ) يحمل انتقادا لتصرفات
 بضعة أنفار من الجندرية فى حادثة بسيطة ، وفى اليوم ذاته تلقيت دعوة
 بالحضور لدى نشأت بك • فلما حضرت وجدت بجانبه شاكر بك ففاجأنى
 بقوله :- أنك أهنت الجندرية وعليه سوف اعاقبك بالسجن فى الثكنة العسكرية
 فى العشار •

ونادى اثنين من رجال الجندرية ، وأمرهما بأقتيادى الى هناك • وعند
 خروجى من الغرفة أستطعت الافلات منهما بمعونة يوسف باشا المنديل والحاج
 عيسى الامام ، اللذين حضرا فى ذلك الوقت مصادفة ، وأسهرت الى غرفة
 الوالى ، فوجدت سعاد بك وكيلا عنه بسبب سفره الى الناصرية ، وكان بين
 الحاضرين السيد طالب بك النقيب • فلما رويت الحادث ثار ثائرههم ، وأرسل
 وكيل الوالى بطلب نشأت بك ، فجاء هذا مزجرا وقابل تأنيب سعاد بك
 والسيد طالب بالأصرار على سجنى ، حتى أنه أمر خمسة من رجاله
 بأتظارى خارج غرفة الوالى وأقتيادى قسرا الى السجن • فخرج وكيل
 الوالى من غرفته وأنذر الرجال الخمسة بطردهم من الخدمة اذا مسني أحدهم
 بسوء • ثم دعى ثلاثة من أفراد البوليس لمراقفتى ليل نهار ، وطلب من المدعى
 العام ، وهو من أصدقائى ، أن يرافقنى فى طريقى الى البيت • وعندما خرجت

من غرفة الوالى وجدت حشداً غفيرا من الشباب البصرى حملوا السلاح لتجدي ، فسرت وسطهم فى شبه مظاهرة مسلحة .

وفى عصر ذلك اليوم عقد اجتماع فى دار السيد طالب أبرق فيه المجتمعون برقيات شديدة اللهجة الى ناظم باشا استكارا للحادث المذكور ، كما أبرق وكيل الوالى برقية مماثلة . وفى الليلة ذاتها عاد الوالى سليمان نظيف من المنتفك فدعانى لمقابلته ، وأبدى أسفه الشديد لهذا الاعتداء ، وأنبأ نشأت بك بحضورى تأنيباً قاسياً . وكان الظروف أنقلبت كلها على نشأت هذا ، فجاءت برقية من ناظم باشا بعزله من منصبه ، ثم تلتها برقية أخرى بعد ثلاثة أيام بعزل شاكر بك أيضا . حينئذ أذنت لحراسى بالانصراف . . . وكفى الله المؤمنين شر القتال . . .

وفى أواخر تشرين الاول ١٩١٠ احتجبت « الايقاظ » عن الصدور بسبب سفرى الى الحجاز لاداء فريضة الحج . فكان احتجاجها هذا نهائياً .

حوادث أخرى

زواجى

فى ٢٢ تموز سنة ١٩٠٩ تم عقد قرانى على كريمة الحاج طه الموصلى فى حفل جمع المعارف والأصدقاء .

مدرسة مسائية

فى شباط سنة ١٩١٠ أسست ، بالتعاون مع المحامى عمر فوزى ، مدرسة مسائية لتدريس اللغة التركية ، استجابة لرغبة الكثيرين من موظفى الحكومة والشركات . وعينت فيها محمد رؤوف العطار معلما للرياضيات . وفى خلال أشهر قلائل تيسر لطلابها إتقان التركية ، فأغلقناها بعد أن تم القصد من تأسيسها .

لجنة الاسطول

وفى اجتماع كبير فى ١٠ مارت سنة ١٩١٠ جرى انتخاب لجنة الاسطول ، بطلب من وزارة الداخلية ، ففاز الذوات التالية اسماؤهم :-

الحاج محمود باشا العبد الواحد ، السيد هاشم بك النقيب ، الشيخ
عبدالله باش أعيان ، يوسف باش المنديل ، المؤلف ، عبد الوهاب باش القرطاس ،
محمد المعنوق ، يوسف عبدالأحد ، يعقوب نواح .

وأنتخب الأعضاء من بينهم الحاج محمود باشا رئيساً أولاً ، ويوسف
باش المنديل رئيساً ثانياً ، ومؤلف الكتاب محاسباً ، ويوسف عبدالأحد أميناً
للمصندوق .

وكان من واجبات اللجنة اسداء المعونة المالية للاسطول العثماني .

المدرسة الصناعية

فكرت في تأسيس مدرسة صناعية على شكل شركة مساهمة
للمنسوجات ، على غرار شركة المنسوجات التي كانت قائمة في بغداد يومذاك ،
يكون رأسمالها مبدأياً ألف ليرة عثمانية ، ويعمل فيها الايتام واولاد الفقراء
بأجور قليلة مقابل ايوائهم وتعليمهم القراءة والكتابة . فيعود المشروع بالنفع
على طلابها وعلى الشركة ، التي كانت في الحقيقة نواة لصناعة المنسوجات في
البصرة على نطاق واسع . وبالفعل نشرت مقالا عن هذه المدرسة في
صحيفتي ، أبتت منافعها ، وحددت يوم ٨ تشرين الاول سنة ١٩٠٩ موعدا
للاجتماع في مدرسة (يادكار حرير) . جرى الاجتماع فخطبت في القوم
داعيا للمشروع ، وعرضت عليهم نماذج من منسوجات شركة بغداد . ثم نهض
السيد طالب النقيب وحضهم على مؤازرته وأفتتح الأكتتاب ، فحذا حذوه
الحاضرون حتى بلغ مجموعه في تلك الجلسة ٤٤٠ ليرة .

وبينما كنت منهمكا في وضع نظام المدرسة والشركة ، اذ قدم البصرة
الوالي سليمان نظيف ، فأفاد بأنه سوف يطلب من الوزارة تأسيس مدرسة
صنائع مجهزة بكافة الوسائل اللازمة . فلما بلغني وبلغ الناس وعد الوالي
فقرت همتنا ونبذنا التفكير بالمشروع . وقد علمت بعد ذاك أن الوالي كتب بهذا
الشأن الى المراجع المختصة فلم توجه الى طلبه .

الجمعية العلمية الأدبية

أُنعت فريقاً من أدباء البصرة وعلمائها لتأسيس جمعية تخدم الأدب والعلم • وكان المؤسسون يجتمعون في بناية مدرستي لوضع نظامها الداخلي • وبعد الحصول على موافقة الحكومة بتأسيسها عقدنا اجتماعاً كبيراً ، في ٨ نيسان ١٩١٠ ، في ساحة المدرسة ، حيث جرى انتخاب الهيئة الادارية ، فأُسفر عن انتخاب : الشيخ عبدالله باش أعيان للرئاسة ، وصبرى أفندي أميناً للصندوق ، ويوسف المنديل ، ويوسف ذياب ، والمؤلف ، وعمر فوزي ، وعبدالمالك الشواف ، وعبدالعزیز التكريتي ، والقس وانيس أعضاء •

وقد نظمت الجمعية اجتماعات أسبوعية تلقى فيها المحاضرات العلمية والمناظرات الأدبية ، حضرها الكثير من الاهلين والطلاب • وقد انحلت الجمعية عندما أغلق الاتحاديون أبواب المدرسة •

عضوية المحاكم

وفي ٣ شباط سنة ١٩١٠ انتخبت عضواً في هيئة محكمة الحقوق ، ثم أسندت اليّ رئاسة المحكمة المذكورة ، بالوكالة ، كما سيأتي ذكره في البحث القادم

الوالي سليمان نظيف

دخل البصرة في اليوم الاول من تشرين الثاني عام ١٩٠٩ ، بعد حجّره أربعة عشر يوماً في المحجر الصحي • وفي طريقه بالعربة من رصيف الباخرة الى مقر الولاية أوعز الى رئيس البلدية الجالس برفقته بهدم دار البهرة ودار المنديل ••• وبالفعل تمّ الهدم وعدّل الشارع ، رغم توسط القنصل البريطاني لايقاف الهدم في دار البهرة • ثم مرت بضعة ايام فاذا بالوالي يأمر بهدم السوق الكائنة في السيمر كيما يتسنى مدّ شارع البصرة - عشار حذاء النهر • ونفذت البلدية الأمر دون أن تدفع لمالك السوق ، اغا جعفر عبدالنبي التاجر المعروف ، تعويضاً عن الأضرار التي لحقت بأملكه • فشكا الأمر الى الوزارة ، وأرسلت هذه أستيضاحاً حول القضية • وبدون علم من

الوالى ، نظمت بلدية البصرة مضبطة تفيد بأن الوالى لم يهدم السوق ، وبأن
أغا جعفر شخص مجهول ، ووقع فى ذيلها حوالي المائة وخمسين من وجوه
البصرة ! •• فلما جىء بالعريضة الى مكتبى فى الجريدة رفضت توقيعها ،
وأعدتها الى رئيس البلدية عبدالمحسن باشا الزهير ، مع تعليق شفى بترفعى
عن أن أكون شاهد زور • فجاءنى رئيس البلدية متذمرا من هذا التعليق ،
ونصحنى بالتوقيع تحاشيا لغضب الوالى علىّ ، فلم أَرْضِخ لنصحه • وفى اليوم
التالى وردتنى تذكرة من جمعية الاتحاد والترقى للحضور ، فذهبت ووجدت
الجميع فيها قلقين لجبر امس ! •• وحاولوا تشيى عن عزمى ، فلم يفلحوا •
لم ادر يومها لم كل ذلك الاهتمام بأمر توقيع فرد واحد • ولكننى أدركت بعد
ذلك ان الذنوب تهون على ضمير المرء اذا شاركته فيها ضمائر الناس
الآخرين ••• كأن الضمائر الائمة يعين بعضها البعض فى اتقاء الم الوخز •



سليمان نظيف

علم الوالى بعد أيام بأمر
المضبطة ، فانزعج ووبخ الموقعين
عليها ، وعلم أيضاً بأمرى
وفرشحنى لعضوية المحاكم
الشاغرة ، تلك العضوية التى
يتنافس عليها الاعيان والاثرياء ،
وينفقون فى سبيلها المئات من
الليرات الذهبية ، ويقدمون
لأجلها الرشوات والقرايين •

ففى صباح أحد الايام
جاءنى مرافق الوالى يحمل
الى دعوة منه للافطار

فى داره ، فلما ذهبت استقبلنى هاشا وأحتفى بي • ولما صرنا الى المائدة فاتحنى
بأمر الترشيح ، قال ان الدافع لانتخابه اياي هو تأكده من نزاهتى وتمسكى

بالحق فشكرت له حسن ظنه ، وأعتذرت عن قبول المنصب بالنظر لضالة راتبه . فالحج على في القبول ، وأصررت على الرفض فقال :-
إذا لم يكن لديك إيراد آخر غير هذا الراتب فأني أضمن لك راتباً خاصاً طالما أنا في الولاية .

فأعتذرت . . . وأخيراً استمهلهت أياماً أقرر فيها الرفض أو القبول .
وفي خلال هذه الأيام كنت أسمع اللغط الدائر حول ترشيحي بين الذوات ، من جهة ، وأمس السرور الذي عم الأوساط الشعبية والمثقفين ، من جهة أخرى . حتى بلغني أن عدداً غير قليل من أعيان المدينة وقعوا مضبطة يطعنون فيها بلياقتي لاشتغال المنصب ، قائلين عني انني لست بصرياً ، ولست من أشرف البصرة ، ولا من ملاكيها . وتقدم وفد منهم بالعريضة الى الوالي ، فأجابهم :

— إذا كان توفر هذه الشروط للحصول على المناصب الحكومية ضرورياً ، فكيف أذن أصبحت والياً عليكم ، وأنا لست بصرياً ، ولست من أشرف البصرة ، ولا من ملاكيها ؟ . . .

لقد أثار في خبر المضبطة روح العناد ، وشعرت بأن الدرس الذي ألقاه الوالي على (الاشراف) كان قيماً ، فمن واجبي أن أتمه عليهم ، وهكذا كان .
وعندما تسلمت أمر التعيين قلت للوالي مازحاً :

— أسمح لي أن أبيع أمر هذا التعيين بماءتي ليرة لأحد (الاشراف) ؟
فضحك ، وأجاب قائلاً : اني أعلم أن سوق التعيينات رائجة جداً بينهم .
استمر اشتغالي في العضوية أربعة أشهر أستحوذت على بعدها ضائقة مالية . فقدمت استقالتي الى الوالي ثلاث مرات فرفضها ، وفي الرابعة رافقني يوسف باشا المنديل وعبد الملك الشواف مفتي البصرة لاقناعه ، فأقتنع وقبل الاستقالة .

بعد هذا بحين حدث خلاف بين الوالي والسيد طالب النقيب ، ثم توسعت شقة الخلاف حتى أصبح عداً مستحكماً . وفي يوم من شهر ايلول عام ١٩١٠

طلبني السيد طالب بك للحضور في داره ، وكلفني بترجمة كتاب شكوى
على الوالى الى اللغة التركية • فلما طالعت الكتاب قلت له : لقد اسأت يوما الى
سليمان نظيف فقابل اساءتي بالاحسان ، وأن يدأى اليوم لا تطاوعاني على
الاساءة الى من أحسن الى • ثم استأذنته وأنصرفت •

كثرت الشكاوى على الوالى بتحريض من السيد طالب ، حتى صدر
الامر بعزله ، فغادر البصرة في ٣ تشرين الاول عام ١٩١٠ على باخرة • وكنت
بين القلائل الذين ودعوه على رصيف الميناء • وفى مساء اليوم نفسه ذهبت الى
ديوان السيد طالب ، للمذاكرة معه حول قضية جزائية كان قد كلفني بالتوكل
فيها ، فوجدت حوله ثمانية من الوجهاء كان ثلاثة منهم فى توديع الوالى • وكان
السيد طالب مبتهجا بظفره على خصمه ، فوجه الى الحاضرين سؤالا عن كيفية
سفر الوالى وعن أى سبيل سلك • فلم يجبه أحد ، كأنهم لا يعلمون ، وعلت
وجوههم صفرة الخوف ، وساد المجلس الوجوم • أما أنا فلم أحتمل هذا
الجن ووصفت له التوديع • فقال متظاهرا بالاستغراب : وما أدراك أنت
بهذه التفاصيل ؟ •

أجبت : كنت فى توديعه حتى رقى سلالم الباخرة •

فقال : ومن كان أيضاً من غير الموظفين ؟

قلت : ليس لى شأن فى هذا وعلى بنفسى •

وخرج السيد طالب من الغرفة ، وأنتحى ركناً من الممر ونادانى ، فلما
أقبلت عليه قبلنى من جيبي وقال :- لقد سموت عندى ياذا الصديق والوفاء •
ثم أخرج ورقة وقدمها الى ، فقرأت فيها اسماء المودعين بالتمام ، وبينهم
أسمي وأسماء الثلاثة الواجمين وقال :- أن ضعاف النفوس يحسبون أنى
أغضب من وفاء الصديق لصديقه حتى ولو كان ذلك الصديق عدواً لدوداً لى •

منذ تلك الساعة حلت بيني وبين السيد طالب ثقة تفوق ثقة الأب

بأنه ، والأخ بأخيه ، تلك الثقة التي أَلقت على كفتي ، فيما بعد ، عبثاً ثقيلاً
من المهام الجسماء فما خارت قواي ، ولا ضعفت ، بل حملته جذلاً
ومسروراً .

الصحافة في العراق

للصحافة العراقية تاريخ مجيد . فقد كانت الصحف محور الحركة
الوطنية في العراق يوم لم يكن فيه أحزاب أو منظمات سياسية . كانت تقارع
الاستبداد بشجاعة فائقة ، وتلقى الضربات بصبر وثبات ، حتى أن المواقف
الجريئة التي وقفها أصحاب الصحف الحرة في أشد الايام عبوساً ، والتي
أحتفظ بها في مذكراتي لتملاً الصفحات الطوال . وإني سوف أقصر البحث
على سرد بسيط لأسماء الصحف وأصحابها ، ولبعض الاحداث الهامة
حولها .

صحف البصرة

في ٣ مايس سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (الايقاظ) لصاحبها مؤلف
هذا الكتاب ، وأغلقت في تشرين الاول عام ١٩١٠ .

وفي ٣ حزيران ١٩٠٩ صدرت جريدة (التهذيب) لصاحبها الشيخ
محمد أمين عالي باش أعيان ، وأغلقت في مارت ١٩١٠ .

وفي تموز سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (اظهار الحق) لصاحبها قاسم
جلميران ومحررها السيد عبدالقادر العبادي ، وأغلقت في نيسان سنة ١٩١٠
على أثر مقتل صاحبها بأيدي فلاحيه .

وفي كانون ثاني سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (مرقعة الهندي) الفكاهية
لصاحبها الحاج أحمد حمدي المشراقي ، ثم أبدلت بجريدة (البصرة الفيحاء)
التي أغلقت في تشرين الاول سنة ١٩١١ .

في تموز سنة ١٩١٠ صدرت جريدة (الفيض) لصاحبها المحامي داود
نيزاي ، وأغلقت في نيسان سنة ١٩١١ على أثر أتتجار صاحبها .

- فى كانون الاول سنة ١٩١٠ صدرت جريدة (الرشاد) لصاحبها السيد يوسف السامرائى ، وأغلقت فى تشرين الاول ١٩١١ .
- فى آب ١٩١١ صدرت جريدة (الاثني) لصاحبها المحامى عمر فوزى ، وأغلقت فى كانون الاول سنة ١٩١٢ .
- فى شباط ١٩١٢ صدرت جريدة (التاج) الفكاهية لصاحبها محمد المشراقى ، وأغلقت فى مايس سنة ١٩١٢ .
- فى تشرين الاول سنة ١٩١١ صدرت جريدة (المنير) لصاحبها أحمد جودت كاظم ، وأغلقت فى آخر كانون الاول من السنة ذاتها .
- فى آذار ١٩١٢ صدرت جريدة (الدستور) لصاحبها السيد عبدالوهاب الطباطبائى ، فلما أغلقتها الحكومة صدرت (صدى الدستور) عوضاً عنها .
- ودامت الى احتلال البصرة فى كانون الاول ١٩١٤ .
- لكل من هذه الجرائد مواقف مشرفة ، ولكل من أصحابها نصيب من بطش الحكومة وظلمها .

صحف الموصل

- لم يكن يوجد فى الموصل منذ عام ١٨٨٥ حتى تموز عام ١٩٠٩ غير الجريدة الرسمية . وفى ذلك التاريخ صدرت جريدة (نينوى) لصاحبها فتح الله سرسم ومديرها محمد أمين الفخرى ، وكانت معتدلة فى خطتها فلم تغضب الحكومة .

صحف بغداد

- أصدر مدحت باشا جريدة (الزوراء) الاسبوعية فى حزيران عام ١٨٦٩ ، التى كانت تطبع فى مطبعة الحكومة ، وتشر القوانين والانظمة التركية فى صحيفتين وترجمتها بالعربية فى صحيفتين أيضاً . وبعد الانقلاب العثمانى أقبل الكتاب والأدباء على اصدار الصحف والمجلات ، فأصدرت جمعية الاتحاد والترقى أول جريدة يومية سميتها (بغداد) . وكان مديرها

مراد سليمان ، أحد أركان الجمعية ، ورئيس تحريرها معروف الرصافي •
 وفي كانون ثانى سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (الرقيب) لصاحبها الحاج
 عبداللطيف ثنيان ، وكانت أجراً الصحف آنذاك فى نصره الحق وفى مقارعة
 ظلم الحكومة • فلاقى صاحبها من العنت والاضطهاد الشئ الكثير • وأستمرت
 الصحيفة فى صدورها أكثر من سنتين ثم أغلقت •

وفى ٦ كانون الاول سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (بين النهرين)
 لصاحبها محمود نديم الطبقجلى باللغتين التركية والعربية • وكان يحرر القسم
 العربى فيها الكاتبان المعروفان كامل الطبقجلى و ابراهيم صالح شكر فانتشرت
 الجريدة أنتشاراً واسعاً ، ودعا صاحبها للفكرة العربية ، وأسس فرعاً لحزب
 الحرية والائتلاف فى بغداد ، فثار ثائر الاتحاديين ، وصدر الامر بالقبض
 عليه ، وحكمته المحكمة بالسجن غياباً ، فهرب الى البصرة ، ملجأ الاحرار
 آنذاك ، محتجماً بالسيد طالب النقيب •

وفى كانون الثانى سنة ١٩١٠ صدرت جريدة (الرياض) لصاحبها
 سليمان الدخيل ومحررها ابراهيم حلمى العمر الذى أصبح فيما بعد كاتباً
 سياسياً مشهوراً •

وفى آب سنة ١٩١٠ صدرت جريدة (الروضة) لصاحبها الحاج
 عبدالحسين الازرى ، فلما عطلتها الحكومة صدرت بدلا عنها جريدة (المصباح
 الأغر) •

ثم صدرت جريدة (الرصافة) لصاحبها صادق الاعرجى ، فلما عطلتها
 الحكومة صدرت عوضاً عنها جريدة (الصاعقة) التى كان يملك امتيازها
 عبدالكريم الشىخلى • وغضب الوالى على هذا التحايل فأوعز الى بعض السوقة
 والرعاع بتقديم الشكاوى على الاعرجى وأوقفه فى السراى ، فتجمهر خلق
 كثير احتجاجاً على توقيفه ، وأمطروا استانبول بالبرقيات الشديدة اللهجة ،
 فأطلق سراحه •

وفى ٣ تشرين الاول سنة ١٩١٣ صدرت جريدة (النهضة) لصاحبها

مزاحم الباجه جي ورئيس تحريرها ابراهيم حلمي العمر • ولما شددت (النهضة) النكير على الاتحاديين ، وطالبت بحقوق العرب ، وأسس صاحبها وبعض الشباب النادي العلمي ، عطلتها الحكومة بعد صدور أحد عشر عدداً منها فقط • • ولجأ صاحبها ومحررها الى البصرة •

وعندما أعلنت الحرب العالمية الاولى أصدرت وزارة الداخلية أمراً بتعطيل جميع الصحف في بغداد والبصرة ، غير أن (صدى الدستور) البصرية أستمرت في الصدور معتمدة على نفوذ السيد طالب النقيب وحزبه •

ولم تكف الحكومة بتعطيل الصحف ، بل شردت أصحابها ، ففت عبدالحسين الازري ، وداود صليوة صاحب جريدة (صدى بابل) ، والأب أستاس الكرملى صاحب مجلة (لغة العرب) الى قيسرى ، ونفت ابراهيم صالح شكر وعبد اللطيف ثنيان الى الموصل ، وفر سليمان الدخيل الى نجد ، ولجأ الكاتبان السيد رشيد الهاشمي والشيخ كاظم الدجيلي الى البصرة •

نشوء العنصرية التركية والتظاهر بكره العرب

لم تكن العنصرية التركية ذات موضوع قبل عهد جمعية الاتحاد والترقي • وكانت الشعوب التي تضمها الامبراطورية العثمانية تعامل على حد سواء • حتى أن الأتراك أنفسهم ، لتمسكهم بالدين الاسلامي ، كانوا يشيدون بذكر الخلفاء الراشدين وآل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقتخر سلاطينهم بكونهم خدام الحرمين الشريفين • فلما جاءت الجمعية الى الحكم أبدع بعض زعمائها فكرة السيطرة التركية على الشعوب الخاضعة لها ، وراحوا يقنعون الترك بأفضليتهم على سواهم من الشعوب المحكومة • وقد ساهمت الصحافة الاتحادية بنصيب كبير في هذه الدعوة ، فنشرت صحيفة (الاقدام) التركية مقالا جاء فيه : ان العرب يبيعون كل شيء بالمال • • حتى العرض • • الى غير ذلك من الطعن بشرفهم والذس على شهامتهم وتقاليدهم • فقابلت الاوساط العربية في استانبول هذا المقال بالسخط والهياج ، وتظاهر الطلبة العرب فيها فهاجموا ادارة الجريدة وحطموا نوافذها وأهانوا محرريها •

ثم ذهب وفد من النواب العرب الى رئيس الوزارة ووزير الداخلية وقدموا احتجاجهم ، كما أبرقوا الى جميع الصحف فى البلدان العربية بتفاصيل الامر ، فراحت هذه تسلق كاتب المقال بالسنة حداد ، وأشد التوتر بين الترك والعرب على أثرها . وقد حكم الديوان العرفى بتعطيل الجريدة المذكورة تعطيلًا دائمًا وتغريم صاحبها مائة ليرة عثمانية . ولم تمض مدة وجيزة على الحادث المذكور حتى صدرت بدلها صحيفة (الاقdam الجديد) التى راحت تدعو الى تنقيح اللغة التركية من المفردات العربية .

ثم تحورت الدعوة الى التمهيد لتتريك العرب والاقوام الاخرى ، فشر أحد زعماء الجمعية مقالًا فى إحدى الصحف جاء فيه :-

« على الاتراك أن يسموا دولتهم (الدولة التركية) وينبذوا اسم (الدولة العثمانية) البالي ، وعليهم ألا يعترفوا بوجود عنصر آخر يستظل بالراية التركية غير العنصر التركى ، أما العرب والاقوام الاخرى فما عليهم الا أن يكتسبوا العنصرية التركية الرفيعة » .

وراحوا يضربون على هذه الاوتار ، وأسسوا المغاية نفسها أندية كثيرة بعناوين تركية خالصة مثل : (ترك أوجاغى) أى العائلة التركية ، و (ترك ورنكى) أى ثبات الترك ، و (تورك ياوردى) أى المملكة التركية ، و (تورك بلكيشى) أى العلم التركى ، و (تورك كوجى) أى القوة التركية . الخ .

ولم يكتف الاتحاديون بأستخدام الصحافة والمنظمات السياسية لتحقيق أغراضهم ، بل أتخذوا الدين وسيلة لتحقيق تلك الاغراض أيضاً . فقد أوعزوا الى أحد علماء الدين المدعو عبيدالله بالدعوة للمذهب الجديد ، فراح هذا يخطب فى المصلين ايام الجمع فى مسجد أيا صوفيا وغيره قائلا :

(أيها الاتراك المسلمون كفاكم وهنا ومسامحة ، أنفضوا عنكم هذا الغبار ، وأمحوا من مساجدكم أسماء الحلفاء الراشدين وآل الرسول ممن لا يعينكم أمرهم ، وأكتبوا بدلها أسماء الابطال الاتحاديين أمثال طلعت ، وجمال ، وأنور ، وجاويد ، الذين هم أولياء الله الصالحين قدس الله سرهم . .

أيها الاتراك ، اذا علمتم أن أحدا لم يجاهد في صفوف الاتحاديين بماله ونفسه فأقتلوه • أيها الاتراك ، علام هذه التكايا والمساجد الكثيرة في عاصمتكم ، هلا بعتموها وأقتصرتم على بعض المساجد الكبيرة وقدمتم أثمانها لجيشكم العتيد ... الخ •)

وقد جمعت الحكومة أقوال عبيدالله هذا في كتيب عنوانه (شعب جديد) ، طبعت منه ملايين النسخ ووزعتها مجاناً على الشعب التركي • ومنذ ذلك الحين ، حمى الوطيس بين العرب والترك ، وأصبح الشبان الاتراك المتحمسون ينظرون الى الاقوام الخاضعة لهم نظرة ازدراء واحتقار ، فاجابهم العرب بالتكتل والانتظام في جمعيات علنية أو سرية معادية اهمها :-

المنتدى الأدبي

أسسه في استانبول عبد الكريم قاسم الخليل السورى ، وأحمد عزت الاعظمى العراقى ، وبعض الشبان العرب • صبغته الظاهرية أدبية محضة ، ولكنه كان فى السر جمعية سياسية يلتقى فيها أبناء العروبة ، فيتعارفون ويتآلفون • وكثيراً ما كانت تعقد فيه اجتماعات تلقى فيها الخطب والمحاضرات • وكان يزوره الزعماء الاتحاديون مداهنة وجساً للنضج •

الجمعية القحطانية

أسسها الشهيد سليم بك الجزائرى ، ومن أبرز أعضائها الامير عادل ارسلان ، والشهيد على النشاشيبي ، وعبدالكريم قاسم الخليل ، وعارف الشهابى ، والدكتور اسماعيل الصفار ، والدكتور داود الدبوني الموصلى وغيرهم • ثم انضم اليهم عدد من الضباط العرب •

جمعية العلم الأخضر السرية

أسست بأرشاد من الشهيد سليم الجزائرى أيضاً • وأعضاؤها : الدكتور اسماعيل الصفار ، والدكتور فائق شاكر ، والدكتور داود الدبوني ، وعبد الغفور البدرى ، ومن الضباط على رضا الغزالى ، ومدحت ، وصالح وغيرهم • وكانت الغاية منها تقوية الرابطة الوطنية بين طلبة انكليات وتوجيههم سياسياً •

جمعية اليد السوداء

أسسها الدكتور داود الدبونى ، الذى كان أكثر المتحمسين لفكرة نشاطاً ، حتى انه كان يكره كل تركى على وجه البسيطة . وكان معظم أعضاء هذه الجمعية من طلبة الكليات ومن طلاب الكلية الحربية ، وغايتها انقتك بالخاصين من رجال العرب الذين يناوؤن الفكرة العربية . غير أن هذه الجمعية لم تدم طويلا نظرا لانقسام آراء أعضائها فى طرق التنفيذ ، فأنحلت بعد سنة من تأسيسها .

حزب الحرية والائتلاف

ان السياسة الاستفزازية الحاططة التى سارت عليها جمعية الاتحاد والترقى لم تكن لتثير حفاظ العرب وحدهم ، بل أن عدداً من احرار الترك ومنصفهم عارضوها ونددوا بها . فقد نشرت بعض الصحف مقالات تميظ اللثام عن نوايا الاتحاديين وعن مساوئهم ، فأجاب عليها الاتحاديون بسلسلة من الاغتيالات . ففى (مدة وجيزة) صرع برصاص الاتحاديين الشهيد حسين فهمى محرر جريدة (سرىستى) ، واحمد صميم محرر (صدى ملت) ، وزكى محرر (شهره) فى أستانبول ، والأسقف الرومى ، وسليمان الجركسى فى سلانيك ، والمدعى العام هاشم بك ، وحسن الاوقاتى فى مناستر وغيرهم .

أثارت هذه الاعمال سخط عقلاء الاتحاديين ، فنصحوا زملاءهم بالاقلاع عن سياسة الارهاب والبطش ، فما أجدت نصيحتهم . لذلك قدم ليف منهم أستقالتهم من الجمعية ، وفى مقدمتهم أمير اللواء صادق بك معتمد المركز العام للجمعية ، وأتصلوا ببعض نواب الحزب الحر المعتدل ، الذى سبق أن تأسس فى السنة الاولى من اعلان الدستور ، وأنضم اليهم بعض النواب المستقلين وكثير من المنشقين عن جمعية الاتحاد فى المدن الاخرى ، وأسسوا حزب (الحرية والائتلاف) . ولم تمض أيام قليلة حتى أنضم الى الحزب الجديد بعض النواب الاتراك وفريق من النواب العرب ، والارمن والروم . ثم قوى الحزب بأئماء كامل باشا ، وحسين حلمى باشا ، ومحمود مختار باشا ، من

رؤساء الوزارات السابقين ، وفتح فروعاً له في المدن التركية • وكان فرع الحزب في سوريا هو الوحيد في البلاد العربية في بادئ الامر ، الا أنه لم يدم طويلاً ، إذ أغلق بعد خيانة البعض من أعضائه العرب وتجسسهم على نشاط رفاقهم •••

وبالرغم من كل هذه الاحداث ، وبالرغم من أفتضاح نوايا الاتحاديين نحو العرب ، وبالرغم من الكفاح المقدس الذي كان يخوضه أحرار العرب في استانبول وفي بعض المدن العربية ، كان عدد كبير من العراقيين يعاضدون جمعية الاتحاد والترقي ويعملون في فروعها بنشاط وهمة ، وعلى رأسهم المرحوم الشاعر معروف الرصافي الذي أستمروا في دعوته لهم بقلبه ، وقلمه ، ولسانه ••• يدفعهم أحد دافعين : الجهل ، أو المصلحة الشخصية •

وحين أنس الأحرار العرب من الحزب الجديد تأييده للحق ، جاهدوا بسخطهم ونقمتهم ، فقد حدث بعد اغتيال الاتحاديين لـاحمد صميم وغيره من المحررين المنصفين ان التقى طلعت باشا وزير الداخلية بشفيق المؤيد النائب السوري الحر على سلم وزارة الداخلية باستانبول ، فمد طلعت يده مصافحاً ، غير أن شفيقاً بادره بضرب يد طلعت الممدودة بقفا يمينه قائلاً : - اني لا أدنس يدي بمصافحة يد أئيمة سفك الدماء وتغتال الأبرياء في وضح النهار • فأنفعل طلعت ولكنه لم ينبس ببنت شفة • فلما أرتكب جمال مذبحته المعروفة في عاليه ، كانت جثة شفيق قد أخذت مكانها بين الجثث المعلقة على أعواد المشانق ، جزاء بطولته ، وجراته ، وحميته • ففي ذمة الخلود يا شفيق •

النواب العرب يبايعون

الشريف حسين بالخلافة

في أوائل سنة ١٩١١ أرسل السيد طالب النقيب من استانبول كتاباً الى الشريف حسين هذا نصه :-

« صارحنى أعداء لغتنا وأمتنا ، ولا سيما خليل بك رئيس مجلس النواب ، بما في نفوسهم • وهو أنهم سوف يقتادونا الى المشانق كما تساق

الاغنام الى المسالخ اذا كنا نحن العرب لا نوافقهم على آرائهم ونسير بأوامرهم •
 ولقد بلغ صدى هذا الوعيد مسامع نواب العرب ، فهاجت حفيظتهم وأشدت
 احتجاجهم ، حتى ان المجلس اضطر الى توقيف جلسته هذا اليوم •
 أن ولدكم الهمام عبدالله سوف يقص عليكم بنفسه نبأ هذا القول والى
 أية حالة بلغت فظاظته •

أن نواب العرب كافة يؤيدون مولاي بكل قواهم والسنتمهم وقلوبهم ،
 ويشكرون لكم مساعيكم الجسام فى سبيل الحجاز منذ ولتتم أمره • ونحن
 نعترف بغيرتكم على ديننا وأمتنا ، وانا مستعدون للقيام الى جانبكم اذا قمتم
 لخلع هذا النير الذي أثقل كاهل العرب وسعيتم لانتسالهم مما هم فيه من الظلم
 والعبودية • وانى مرسل اليكم وثيقة أمضاها ذوو الاقدام والشجاعة من
 أخواننا العرب يعرضون أن تدافعوا عن حقوق أمتكم ، ويعترفون لكم بالخلافة
 التى عليها وحدها أن تسهر على مصالح بلاد العرب جمعا • والسلام عليكم
 طالب النقيب «

وهذا نص الوثيقة :

« نحن نواب العرب فى مجلس الامة ، نعهد الى حسين باشا فى حكم
 مكة ، ونقر بأسمنا وأسم البلاد التى تمثلها بأن له وحده السلطة الدينية على
 البلاد العربية • ونحن مستعدون أن نجاهر علانية بهذه البيعة متى دعت
 الاحوال الى ذلك »

ولم يتسن لى الاطلاع على أسماء النواب الذين وقعوا هذه الوثيقة ،
 ولكننى عرفت منهم ثلاثة فقط وهم : السيد طالب النقيب ، وشكرى العسلى ،
 ومحمد شفيق باشا المؤيد نائبى دمشق •



رحلة تفدح زناد العصيان

اداء فريضة الحج (١)

أنسابت بنا الباخرة دجلة (الروسية) تنهادى فى شط العرب بين ضفتيه الزاهيتين ثم أستقبلنا خليج البصرة بمياهه الزرقاء وسكونه المطبق . كان ذلك فى السادس من شوال عام ١٩٢٨ هـ الموافق ١٠ تشرين الاول عام ١٩١٠ . وأوغلنا فى البحر أياما مررنا خلالها بميناء بوشهر ، وشاهدنا عن بعد جبال مسقط ، ورسونا حينما بمياه عدن ، ثم جيوتنى المرفأ الافريقى . وفى اليوم الرابع عشر منذ بدء السفرة ألفت الباخرة مراسيها فى جزيرة أبى سعد مقابل جدة ، حيث أدخلنا المحجر الصحى ، فقضينا فيه ثلاثة أيام ، سمح بعدها لنا بالدخول الى جدة . أقمت فى جدة يومين ، وغادرتها الى مكة المكرمة فى قافلة على ظهور الحمير ، فقطعنا الطريق الوعر فى اثنتى عشرة ساعة ، وكنا نحادى جبالا جرداء أقيمت على قممها قلاع عثمانية .

دخلنا مكة فى اليوم الثانى من ذى القعدة ، وأتخذت لى فيها مسكنا مؤقتا أصبح بعد أيام ملتقى لنخبة من الحجاج العراقيين ، ومن أدباء مكة ، الذين سرعان ما توثقت الصداقة بينى وبينهم ، حتى انى ألقى خطابا - بناء على طلبهم - فى حفلة أقامتها المدرسة الصولتية هناك . وتسنى لى مشاهدة موكب الشريف حسين فى عودته من نجد ، وكان الموكب بالغا الغاية فى الفخامة والبهاء . وقد وفقت لزيارة الشريف مرتين ، فرأيتة على جانب عظيم من الزهد ، والتقوى ، والعدل ، والتواضع ، لقد كان فى الحقيقة ملك الحجاز غير المتزوج .

ولما آن يوم الحج ، ذلك اليوم الحالد الذى لا تفارق المرء ذكره على مر السنين ، سعت بين الصفا والمروة كأن لى جناحي طائر ، وقبلت الحجر الأسود بلهفة المشوق المستهام .

وبعد الإقامة فى مكة زهاء خمسين يوما غادرتها ، عن طريق ينبع ، الى

(١) جاء وصف هذه الرحلة فى كتاب (التحفة الايقاظية فى الرحلة الحجازية) المطبوع فى البصرة عام ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م .

المدينة المنورة ، حيث تشرفت بزيارة قبر الرسول الأعظم • ولبت فيها نمائية أيام ثم غادرتها بالقطار الى دمشق •

وكان القطار قديما ، مهلهلا ، بطيئا ، ولم تصادفنا فى الطريق محطات مأهولة • ثم وصلنا تبوك ، حيث يجرى الحجر الصحى ، فوجدنا المحجر عبارة عن مجموعة من الخيام الصغيرة المنصوبة على أرض رطبة ، فكانت أياها الست فيه على أسوأ ما يكون • وفى المرحلة بين تبوك ودمشق وقف القطار بعمان ، وكانت فى تلك الايام قرية صغيرة • وفى منتصف ليلة ٣١ كانون ثانى سنة ١٩١١ م وصلنا دمشق •

دمشق

نحن الآن فى سنة ١٩١١ ، والثلوج تكسو سطوح الدور المرصوفة بالقرميد ، وقب المساجد الأنيقة • وهذا الترامواى ، فى غدوه ورواحه ينساب فى شوارع المدينة ، المبلطة بالحجر ، أنسياب الدم فى الشرايين •

انى أذ أرقب الميدان الواسع (ساحة المرجا) من نوافذ فندق اميركا القديم (١) لا أرى غير الذوق والنظافة • هذه الأصص التى تغطى النوافذ والسلالم ، وتلك الاحواض الجميلة التى تتوسط المدينة ، وبردى يتلوى رائقاً فى مجراه المكسو بالحصى • وانى أذ أخالط أهل المدينة لا ألقى منهم غير التودد وحسن المعاشرة ، فهم أهل دين ، وطرب • • يروحون عن أنفسهم بالتزهر فى الجنان المحيطة بالمدينة ، ضارين على الاوتار منشدين أشجى الالحان ، حتى اذا حان وقت الصلاة رأيت المساجد مكتضة على رحبها بالمصلين • وكان يحلو لى التجوال فى سوق الحميدية العامر بأصناف البضائع النفيسة • وفى الثلاثين يوما التى قضيتها فى دمشق ، مضطرا بسبب الثلوج المتراكمة على السكك الحديدية ، تعرفت بطائفة من الاصحاب ، مثل الاستاذ العلامة محمد كرد علي وأخويه محمود وأحمد ، والرئيس عارف قفطان (عنه) ، والحاج محمد البسام ، كما كان هناك من رفقاءى فى الحج على الشواف ، وحمادى

(١) انشىء بدله فندق أمية الحالى •

العريم ورحيم العريم ، الذين أقعدتهم الثلوج عن مواصلة السفر الى العراق .
 غادرت دمشق الى حلب بأول قطار ، فوصلتها في ٢ آذار سنة ١٩١١ .
 وحلب مدينة صناعية أشتهرت بمنسوجاتها الحريرية المزركشة ، والمناشف
 القطنية المطرزة ، وبأنتاج الصابون . والمدينة مبنية بالحجر ، أزقتها ضيقة ،
 تتوسطها القلعة التاريخية المشهورة المشادة فوق رابية عالية محاطة بخندق عميق .
 وفي السابع من الشهر نفسه ودعت رفاقي ، الذين توجهوا بدورهم الى
 العراق ، وأخذت أنا القطار النازل الى بيروت .

بيروت

مرفاً جميل يقع حيث تتلاشى أمواج البحر الابيض المتوسط عند أقدام
 جبال لبنان ، والمدينة جميلة ، ذات شوارع عريضة وميادين فسيحة وأبنية
 شاهقة ، يخترقها الترام فيربط أطرافها ربطاً وثيقاً ، وتثار بالكهرباء فتتلاهاً
 فيها الاضواء ليلاً ، وتعج اسواقها بالبضائع العصرية ، وتنتشر فيها المدارس
 والمعاهد العلمية والمكبات ، وتقوم في طرف منها أبنية الجامعة الاميركية .
 وأهل المدينة متعلمون ، يحسن معظمهم بعض اللغات الاجنبية ، ويكفيك برهاناً
 على رقي البلاد أن عدد المدارس المختلفة في ولاية بيروت ومتصرفياتها الاربعة
 كان في ذلك الحين ٦٢٩ مدرسة ، يأمها نحو من ٤٥ الف طالب وطالبة ،
 يواكبهم عدد كبير من الاساتذة والمعلمين .

أقيمت في بيروت حوالي الاسبوع تعرفت خلاله على عدد من الصحفيين
 الذين سبق أن راسلتهم حين اشتغالي بالصحافة ، وأخص بالذكر منهم :
 عبدالباسط الأنسي صاحب جريدة (الاقبال) ، والشيخ أحمد حسن طيارة
 صاحب جريدة (الاتحاد) ، وعبدالحفي العريسي صاحب جريدة (المفيد) ،
 وطه المدور ، وتوفيق جانه ، وعبدالرزاق الحصان ، وغيرهم .

وفي يوم ١٣ آذار ١٩١١ غادرت بيروت على ظهر باخرة فرنسية الى
 أستانبول ، فوصلناها بعد ثلاثة أيام .

استانبول عام ١٩١١

عروس زمانها ، هذه المدينة المدللة ، قلب الامبراطورية المترامية
الاطراف •• كل ما فيها ينطق بالرخاء والجمال ••• السفور الساحر وضافه
الرائعة ، والمنائر التي استطلت الى عنان السماء ، والقباب اللامعة كأنها قرص
الشمس عند المغيب ، وقصور السلاطين ذات البهاء ، والروابي النظرة حول
المدينة آخذ بعضها برفاب بعض •

دخلتها وأنا أشد ما أكون لهفة لاستجلاء مقائنها وللفرج على معاملها ،
الا أن قلقي بسبب الامتحان الذي كنت سأجتازه للحصول على شهادة الحقوق
أفسد على كل متعة • وعولت على الانصراف بكليتي الى التحضير • ثم قدمت
طلباً الى وزارة المعارف أرفقته بكافة الوثائق التي تشهد على كفاءتي من محاكم
البصرة ومن مجلس أدارتها ، فجاءني الرد بالقبول • وهكذا جرى امتحاني
تحريرياً ومنفرداً في كلية الحقوق في استانبول في حزيران عام ١٩١١ ، في
المواضيع الآتية :

المجلة ، الأوقاف ، الوصايا ، الفرائض ، الاراضي والطابو ، التجارة
البرية والبحرية ، التشكيلات القضائية ، أصول المحاكمات الجزائية والقضائية ،
قانون الجزاء ، القانون الدولي العام والخاص ، الحقوق الأساسية ، الاقتصاد
والمالية ، والصكوك •

لبت أياً ما أنتظر نتيجة الامتحان ، لم أشأ خلالها أن أتصل بأحد من
معارفي حتى كان اليوم الذي جاءت به البشري ، فكتبت كلية الحقوق الى وزارة
المعارف عن نجاحي ، وهذه بدورها أخبرت وزارة العدلية ، وهذه الاخيرة
منحتني الشهادة التي تخولني حق ممارسة المحاماة في جميع محاكم الدولة
العثمانية ، أستناداً الى المادة ٣١ والمادة ٣٥ من نظام كلية الحقوق الصادر سنة
١٢٩٣ هـ ، ونظام المحامين الصادر سنة ١٢٩٢ هـ •

أما وقد زال هذا الكابوس عني ، فقد بادرت الى زيارة اصدقائي
الموجودين هناك ، مثل السيد طالب النقيب وعبد الوهاب باشا القرطاس ،

وبعض الصحفيين ، وفريق من الطلاب العراقيين ، كما أدت واجب الزيارة لمحرم بك وإلى البصرة الأسبق وسليمان نظيف واليها السابق .

وفى يوم جمعة لبيت دعوة السيد طالب لتناول الغداء فى داره ، وجلسنا بعد الغداء تتجاذب أطراف الحديث ، فأقترح على أن أتأخر للتعرف على نخبة من أعضاء حزب الحرية والائتلاف . كان قد دعاهم لتناول الشاي ، فقبلت . وعند مجيئهم تعرفت على أحدهم نائب دمشق الجريء شكرى بك العسلى ، وتوثقت بيننا أواصر المودة والصداقة . وقد دارت الأحاديث حول توتر العلاقات بين الترك والعرب بعد الذى أبدته جمعية الاتحاد والترقى من تعصب للقومية التركية ، ومحاولة غرسها فى نفوس الشباب ، والعمل على تنريك العرب ومحو عنصريتهم ، وكيف أن بعض العقلاء والاحرار الاتراك ناوأوا هذه الحركة الهدامة .

والحقيقة أن هذا الموضوع الخطير كان حديث البلد بأسره فى ذلك الوقت ، حتى انى حين زرت المنتدى الأدبى فى استانبول سمعت أعضاء وزائريه يتهايمسون عن الاخطار المحيطة بالعرب اذا أسترسل الاتحاديون فى مشروعهم الغاشم .

وقد تسنى لى حضور أربع جلسات صاخبة فى المجلس النيابى . شاهدت فى أحداها المشادة التى حدثت بين النائب المعارض لطفى فكرى ، أحد أعضاء حزب الحرية والائتلاف ، وبين طلعت بك وزير الداخلية الاتحادى . وفى الخطاب الذى القاه النائب الجريء ، والذى عدد فيه مساوئ الحكومة ، تناول بالبحث بعض المخالفات التى ارتكبتها وزير الداخلية . فما كان من هذا الا أن أشهر مسدسه وسدده الى الخطيب ، وكان الخطيب من الشجاعة بحيث لم يتخاذل ، بل فتح صدره قائلاً :-

أما كفاكم أغتيال الأحرار فى الاسواق والطرقات حتى تجاسرتم على سفك دماء المعارضين تحت قبة البرلمان ، ليتك ياطلعت أطلقت النار ، أذن لرأيت عاقبة الأمر .

وهنا تدخل النواب فأقنعوا طلعت بالجلوس ، وتوسلوا الى الخطيب أن يكف عن الخطابة ، فأمتنع وأصر على أن يسرد كل مساوئ الحكومة لتدون في محضر الجلسة فتطلع عليها الامة •

وفي جلسة أخرى وقف شكرى العسلى خطيبا ، فندد بسياسة الحكومة فيما يخص العنصرية ، وطالب بحقوق العرب • فضج النواب الاتراك وصاحوا : أتريد أن تفرق بين الترك والعرب ؟ • قال : كلا ، بل أن الترك بدأوا بهذه التفرقة ، وهم عاملون على سحق قوميتنا ومحو تاريخنا المجيد • وأسترسل في خطابه البليغ رغم ما أحدثه النواب الاتراك من قرعة على الطاولات والكراسى •

أن ما شهدته في أستانبول كان كافيا لاثارة حقدى على جمعية الاتحاد والترقى • فأليت على نفسى أن أكافحها وأقاومها ما أستطعت الى ذلك سيلا ، وعولت على العودة الى البصرة للبدء فى ذلك الكفاح •

العودة الى البصرة

ركبت الباخرة الى بيروت ، ووجدت فى صحبتى عبدالمجيد الشاوى نائب العمارة وولده سعدونا • ومن بيروت أخذنا القطار سوية الى حلب ، ومن حلب الى مسكنة على الفرات بالعربات • ومن مسكنة أنحدرنا فى زورق بخاريّ بطيء فوصلنا الرمادى بعد مسير أربعة أيام جنح فيها الزورق أكثر من مرة بسبب ضحولة النهر • وفى الرمادى أستقبلنا آل عريم الكرام ، الذين توثقت بنى وبينهم روابط الصداقة فى الحجاز • وتابع الزورق سيره الى الفلوجة وبعد أستراحة قصيرة فى دار الحاج رحيم العريم فى الفلوجة توجهنا نحو بغداد على ظهور الخيل ، فوصلناها بعد منتصف الليل ، ولم يطل بقائى فيها فسافرت بالباخرة النهرية (برهانية) ، ووصلت البصرة بعد سبعة أيام • وبعد وصولى لبثت فى دارى ثلاثة أيام أستقبل المهنيين بادائى فريضة الحج وبنيل شهادة الحقوق •

أسست مكتبا للمحاماة ، كان أول مكتب من نوعه فى البصرة ، اذ كانت

العادة الجارية أن يستقبل المحامون مراجعيهم في دورهم • ولسوء الحظ كان هذا المكتب مقابلاً للمدرستي التي أغلقها الاتحاديون وأخذوها نادياً لهم ، فكانت اجتماعاتهم فيه تثير خواطري •

تأسيس حزب الحرية والائتلاف في البصرة

دعوت فريقاً من الاصدقاء للاجتماع في مكتبي ، وهم : اسماعيل السامرائي ، عبد الكريم السامرائي ، عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد المحسن الطباطبائي • وتذكرنا في موضوع المظالم الاتحادية وضرورة تأسيس فرع لحزب الحرية والائتلاف في البصرة • وأتفق رأينا على أن يقابل أثنان منا السيد طالب النقيب ، وكان عائداً من استانبول ، للمداولة معه في الامر • فذهبت أنا والسيد عبد الوهاب الطباطبائي • ولدى مقابلتنا له أبدى استحسانه العظيم وتحمسه للموضوع • فدعنا حوالي المئة من الرجال البارزين في المدينة الى الاجتماع في داره • ولم يكن أحد منهم يعلم كنه الدعوة والغرض منها ، كما أن معظمهم كانوا من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وبينهم رئيسها ونائبه • وحين أكتمل عقد الحاضرين نهض السيد طالب النقيب وقال : كلفت أخي سليمان فيضى بأن يشرح لكم الغرض من هذا الاجتماع • فنهضت وأرتجلت خطاباً أجملت فيه مساوئ جمعية الاتحاد والترقي ، وبطش زعمائها بالأحرار ، ومناواتهم الصريحة للعرب ، وغمط حقوقهم ، ثم ذكرت لهم كيف أن عقلاء الأتراك ومنصفهم انشقوا على الجمعية وتكتلوا في حزبهم الجديد ، حزب الحرية والائتلاف ، الذي يدعو الى المساواة بين الشعوب العثمانية الى ازالة الظلم والبطش • لذلك دعوتهم الى تأسيس حزب بالاسم نفسه ، مستقل في وحدته وكيانه عن حزب استانبول ، ترتكز مبادئه على انصاف العرب ، وأسترجاع حقوقهم ، والمطالبة بما يعود على البلاد العربية بالخير ، ويقارع الاتحاديين ، ويكيل لهم الصاع صاعين ، ويضع حدا لمظالمهم • فلما أنهيت من خطابي ضج الحاضرون بالتصفيق والتهافت ، وأشد بهم



السيد طالب النقيب

الحماس ، فوقعوا على مضابط تأسيس الحزب الجديد ، وعلى برقيات أستقالة من جمعية الاتحاد والترقي ، فكان هذا ايذانا ببدء الكفاح العلني ضد جمعية الاتحاد والترقي ، وكانت بداية حسنة لم أكن لا أتوقعها أو ليتوقعها السيد طالب . وجرى على الفور انتخاب الهيئة الادارية ففاز الأشخاص التالية أسماؤهم :-

السيد طالب النقيب رئيسا ، الحاج محمود باشا العبد الواحد رئيسا ثانيا ، الشيخ عبدالله باش أعيان نائبا للرئيس ، السيد عبدالوهاب الطباطبائي سكرتيرا ، الحاج محمود المعنوق النعمة أمينا للصندوق ، ومؤلف الكتاب معتمدا ، أحمد باشا الصانع ، وعبد اللطيف باشا المنديل ، والحاج طه السنمان ، والحاج محمود الاحمد النعمة أعضاء .

وبعد الفراغ من الانتخاب نهض السيد هاشم النقيب ف تبرع بداره الكبيرة الواقعة في السيف لتكون مقرا للحزب مجانا ، ثم تبرع الاعضاء الآخرون بأفخر الاثاث لفرشها ، كل ذلك جرى في جلسة واحدة .

وعلى أثر وصول برقيات الاستقالة الى جمعية الاتحاد تصدعت ولم يبق من منتسبيها سوى عدد ضئيل من الموظفين .

وفي يوم ٦ آب جرى افتتاح الحزب في مهرجان عظيم حضره آلاف الناس داخل بناية الحزب وخارجها ، بضمنهم الوالى وكبار موظفيه وقناصل الدول الاجنبية ، القيت فيه الخطب والقصائد الحماسية التي لم تعقد البصرة سماعها من قبل ، وكانت كلمها مطالبة بالاصلاح ، ودعوة الى أحلال العدل وارجاع الحق الى نصابه ، ثم تليت برقيات التهنة والتأييد الواردة من سائر الاقطار العربية ومن أنحاء العراق كافة .

وبعد ثلاثة أيام على الافتتاح طلب القنصل البريطاني في البصرة زيارة الحزب . وحين أحتلى بالسيد طالب في غرفته عرض عليه استعداد بريطانيا لتقديم كل المساعدات الممكنة للحزب ، كما عرض عليه أن يدعو احدى قطع الاسطول البريطاني للرسمو في مياه شط العرب خشية أن تتخذ الحكومة اجراءات معادية للحزب ، وقد استغرب السيد طالب ورود هذا العرض من

الانجليز بدون أي مقدمات سابقة ، وأجاب القنصل بعدم وجود حاجة لمثل هذه الحماية ، كما ذكر له أن الحزب غنى بحماس متشبيه وبأموالهم ، وأنه سيعمل لمصلحة العرب وحدهم وليس لمصلحة دولة أخرى ، وإن كفاحه في الوقت الحاضر يعتبر كفاحا داخليا لا يتناول الناحية الدولية •

لقد قطع السيد طالب بهذا الرد كل أمل للانجليز في التأثير على الحزب أو استغلاله لمصلحتهم ، وأعتبره القنصل البريطاني ردعا قاسيا عن التدخل في شؤون الحزب في المستقبل • فشرت جريدة (ترانسيت) اللندنية في عددها الصادر في ١٠ آب ١٩١١ ما تعريه بالحرف الواحد :-

(في ٦ الحالى أحتفل بأفتتاح ناد سياسي جديد يتنسب الى الحزب المعتدل ، ودعى الى هذه الحفلة جميع الاجانب في البصرة ، وكان الاجتماع بالغاً منتهى الحماس • أما نوايا هذا الحزب فمجهولة ، وقد أقبل على الانتماء اليه الكثيرون من الاهلين والتجار ، ممن ليس في أيديهم مقاليد أمورهم ، أقبال الجياع على القصاص ، وغرضهم هو أنصوائهم تحت حماية السيد طالب بك مبعوث البصرة) ••

وجه الحزب رسائل الى بعض الوطنيين في مختلف أنحاء البلاد ، يدعوهم الى تأسيس فروع له في المدن الاخرى ، اذا أمكن ، أو تأييده في كفاحه • فكتب السيد طالب بهذا الخصوص الى السيد زيدان ، وعبدالله الفالح السعدون ، والشيخ خيرالله في المتفك • والى السيد طفّار في السماوة • والى عطية أبو الكلل ونقيب الاشراف في النجف • والى محمد علي فاضل وداود يوسفاني في الموصل • والى يوسف السويدي ، وعيسى الجميل ، ومحمود نديم الطبقجلى في بغداد • والى الحاج نجم البدر اوى ، وأحمد المصطفى ، وفائق الخضيرى في العمارة • والى الحاج عباس العلي في الكوت • والى السيد هادى زوين والسيد علوان الياسري في الفرات • والى الشيخ أحمد حسن طبارة وعبدالغنى العريسي في بيروت • والى شكرى العسلى وشفيق المؤيد في دمشق • والى كثيرين غيرهم ممن فاتتى تدوين اسمائهم بوقته •

أصدر الحزب جريدة (الدستور) لصاحبها السيد عبدالوهاب الطباطبائي ، لتكون لسان حاله . وتبرع الحاج محمود عبدالواحد بجلب مطبعة حديثة من أوروبا لطبع الجريدة المذكورة ، سميت فيما بعد بالمطبعة المحمودية . واشترك في تحرير هذه الصحيفة أكثر الادباء والمثقفين في البصرة ، فانتشرت وزاعت . وقد دأبت على تحرير زاوية سياسية اجتماعية في أكثر أعدادها .

بنى الحزب ، من ضمن أهدافه القومية المتعددة ، فكرة حماية التعليم في البلدان العربية . وصادف ان أعلنت الحكومة عزمها على إغلاق مدرسة الحقوق في بغداد ، ولما يمض على تأسيسها عامان ، فاستغاث طلابها ببرقية لا زلت أحفظ بها ، بتوقيع محمد زكي أحد الطلاب البصريين (١) ، فلما عرضت البرقية على الهيئة الادارية للحزب أمطر أقطابه أستانبول ببرقيات احتجاج وتهديد جاء في أحداها :

(اذا أصرت الحكومة على غلق المدرسة فإن الحزب سيدلل بهذا العمل على سوء نية الحكومة تجاه العرب والبلاد العربية ، اننا نطالب بشدة بأبقاء المدرسة لتبرهن الحكومة على حسن نواياها نحو العرب ولكي تحفظ بعلاقاتها الطيبة معهم)

وقد جاء الرد من رئيس الوزراء الى الوالى ليظمن الحزب بعدول الحكومة عن فكرة غلق المدرسة . فلما أرسلت صورة الرد المذكور الى محمد زكي جاءني منه الجواب التالى برقيا :-

صدرت من بغداد

فى ٢٨ كانون الاول ١٩١١

البصرة

المحامي سليمان فيضى وهيئة الحزب الحر المعتدل المحترمة
بأسم طلبة مدرستنا وبالحقيقة بأسم أهالى العراق أعرض شكرنا الوافر
وأقدم الثناء سيدي .

زكى

(١) المرحوم محمد زكى وزير العدلية ورئيس مجلس النواب الأسبق .

انضمام الضباط العرب الى الحزب

اتجه رأى الحزب الى استمالة الضباط العرب والأكراد وبث الفكرة القومية بينهم ليكونوا أنصارا للأحزاب السياسية المعارضة ، وأنيط أمر اقناعهم بي . • فبدأت بالاتصال بهم واحدا فواحد • وكلما اقتنع منهم أحد ورضى بالعمل في حزبنا ، أخذته الى السيد طالب ليتعارفا ولكي يقسم اليمين لمبادئ الحزب والاخلاص له • وجاء يوم أصبح فيه جميع الضباط من أنصارنا ، فدعاهم السيد طالب الى وليمة غداء ، وخطب فيهم شاكرا وطنيتهم وأقسم الايمان المغلظة ان لا يجحد قيد أنملة عن مبادئ الحزب • وكان أكثر هؤلاء الضباط الغياري تحمسا للحزب :

عارف عنه ، محمود أديب ، عبد الجليل الشالجي ، سعيد المدفعي ، مصطفى الازميري ، تحسين البغدادى ، محمد علي ، سعيد حقي (ناظر الحزينة الخاصة الآن) ، وغيرهم •

الحرب الطرابلسية وتضعف مركز الاتحاديين

نشبت الحرب الطرابلسية فى هذه الاثناء ، واحتلت الجيوش الإيطالية طرابلس الغرب وبنغازي بدون مقاومة تذكر ، وكانت الوزارة الاتحادية برئاسة حقي باشا فى شغل عن الدفاع عن هذه البقعة العربية بالنزاعات الداخلية • لذلك قدم نواب طرابلس الى مجلس المبعوثان لائحة اتهام فى تسع بنود تثبت اهمال الوزارة الالفة الذكر • فأضطر المجلس النيابى تجاه تلك الحقائق الناصعة الى إسقاط وزارة حقي باشا الاتحادية • وتولى الوزارة من بعده المشير أحمد مختار باشا وكانت خالية من الاتحاديين •

ومنذ ذلك اليوم أخذت أسهم الاتحاديين فى الهبوط وفقدوا كثيرا من أنصارهم ومن مساندة الاوساط الشعبية لهم ، الا أن الجيش بقى تحت نفوذهم • لم يطل عمر هذه الوزارة أكثر من شهرين ، فخلقتها وزارة كامل باشا الائتلافية التى اشترك فيها ناظم باشا والى بغداد الشهير كوزير للحربية • ولما كانت الوزارة الجديدة مؤيدة من أكثر أعضاء مجلس النواب الناقمين

على الاتحاديين فقد أمرت بسد نوادي جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العثمانية ، لا سيما في البلدان العربية ، وتحري دور أقطابهم • ثم صدرت ارادة سنية بحل مجلس النواب وأجراء انتخابات نيابية حرة رغبة من الحكومة في الحصول على أكثرية نيابية مطلقة ، وكان غرضها من ذلك اضعاف الاتحاديين أولاً ، واحلال التعاون الوثيق بين الحكومة والبرلمان لمواجهة الحرب الطرابلسية ثانياً •

حين وصلت أوامر وزارة الداخلية الى والى البصرة بلزوم تحري نادى جمعية الاتحاد ودور أقطابها ، عين والى أشخاصاً أهليين للقيام بهذه المهمة ، على أن تفحص الأوراق والمطبوعات المشكوك في أمرها من قبل لجنة أهلية أيضاً • وقد انتخبت عضواً في هذه اللجنة ، فلم نعر على ما يستحق الاهتمام • ومما يجدر ذكره أن والى على رضا باشا الركابي حضر عند السيد طالب قيل اجراء هذه العملية وأطلعته على أسماء الأشخاص الذين سيجرى تحري دورهم ، فطلب السيد طالب منى الحضور ، فلما ذهبت وجدت والى هناك • فلما عرض على الأسماء ، وكان من بينها أسم الشيخ محمد أمين على باش أعيان ، أحد أركان الاتحاديين ، اقترحت شطب أسمه اكراماً لعמיד الاسرة الشيخ عبدالله باش أعيان الذى كان في الوقت عينه رئيساً ثانياً لحزبنا • فوافقا على هذا التعديل وسلم بيت المومى اليه من التفتيش •

وحين لمس الأحرار في بغداد تضعفياً في مركز الاتحاديين سعوا الى تأسيس فرع لحزب الحرية والائتلاف • فتأسس الحزب المذكور بجهود محمود نديم الطبقجلى صاحب جريدة «بين النهرين» وانضم اليه بعض الشبان ، وفي مقدمتهم حمدي الباجه جي • وكان هذا الفرع يعتمد في ماليته على مركز الحزب في البصرة • الا أنه لم يستطع الصمود طويلاً في وجه الحكومة وسطوة الاتحاديين في بغداد ، فتشتت أعضاؤه ولجأ مؤسسه الى البصرة ، وحكم عليه بالسجن غياباً • وبذلك قضى على الحزب وأغلقت الجريدة • وفد بقى محمود نديم في البصرة يعمل بنشاط في حزب الائتلاف •

لجنة المعارف ووكالة خزانة البصرة

أصدرت وزارة المعارف نظاماً جديداً يَجِيزُ التدريس في المدارس الابتدائية في الاقطار العربية باللغة العربية • فتألفت في كل ولاية لجنة لانتقاء الكتب المناسبة • وقد أنتخت عضواً في لجنة المعارف لولاية البصرة في ٢٩ شباط ١٩١٢ • غير أن الوزارة لم تلبث بعد وقت قصير ان نكثت عهداً ، فأمرت بلزوم تدريس الجغرافيا والتاريخ بالتركية •

وفي ٢٩ آذار سنة ١٩١٣ عينت وكيلاً للخزينة في البصرة براتب عشر ليرات ذهبية ، على أن أحتفظ بحق ممارسة مهنة المحاماة • وعندما أنتخت مبعوثاً عن البصرة ، كما سيأتى ذكره في بحث قادم ، قدمت استقالتى من الوظيفة المذكورة وأرفقتها بعريضة من مزاحم الباجهجي ، الذى كان لاجئاً الى البصرة من اضطهاد الحكومة ، يطلب التوظيف بدلاً عني • وأخذت العريضتين الى والى البصرة فى ذلك الحين عزت باشا الكركوكلى فوافق على قبول استقالتى وعلى تعيين مزاحم •

الانتخابات النيابية في البصرة ولوائها

تألفت الهيئات التقيشية في ولاية البصرة وفي لوائها المنتفك والعمارة ، وبوشر بالمرايس المقتضية للانتخابات • وفى ذلك الحين عاد الاتحاديون الى الحكم •

ففى المنتفك أرسلت الحكومة العقيد فريد بك ، المعروف بتعصبه الأعمى للاتحاديين ، متصرفاً عليها وقائداً لحاميتها • فأنذر المعارضين بسوء عاقبتهم ان هم ناوؤا مرشحى الجمعية ، فخافه الناس وتركوا أمر الانتخابات له ، فشرح من الاتحاديين : معروف الرصافى ، حمزة بك قائممقام القرنة السابق (التركى) ، وقریش أفندى (من أهالى الناصرية) • أما مرشحو حزب الحرية والائتلاف وهم : عبدالكريم السعدون ، والسيد زيدان ، وعمر فوزي المحامى ، ففضلوا الانسحاب •

أما فى العمارة فكان حزبنا يتمتع بتأييد كبير ، ولما بلغنا أن متصرفها

الاتحادى أخذ يؤثر فى سير الانتخابات ، وأنه رشح قاضى العمارة التركى وبعض الاتحاديين ، أوغزنا الى أنصارنا بارسال برقيات الاحتجاج والشكاوى عليه ، وكان حزبنا من جانبه يرسل البرقية تلو الاخرى احتجاجا على أعماله المخالفة للدستور ، حتى استطاع الحزب أن يستحصل أمر الوزارة بنقله من العراق وتعيين قائممقام القرنة العربى حسن كاظم بك ومن أصدقاء الحزب وكيلاه عنه .

طلب الحزب منى الذهاب الى العمارة لمراقبة سير الانتخابات ومساعدة مرشحيه فى المعركة الانتخابية ، فركبت الباخرة يصحبني أربعة من الرجال الأشداء المسلحين لحراستى ، ووصلت القرنة فوجدت حسن كاظم بك فى أتظارى فراقفني فى الباخرة ووصلنا العمارة سووية .

اجتمعت بأنصار الحزب وهم : الحاج نجم بدر اوي ، فائق الحضيرى ، أحمد المصطفى الموصلى ، والعقيد عزت بك البغدادى قائد الحامية . فأرسلنا رسائل الى قائممقامى الأقضية ورؤساء عشائرها نسألهم تأييد مرشحي الحزب ، ثم اتصلنا بالأوساط الشعبية ووجوه المدينة فحصلنا على وعود قاطعة بتأييدنا . وفى الليلة السابقة لموعد الانتخاب وصلتنى برقيا من السيد طالب أسماء المرشحين الثلاثة وهم : عبدالله صائب ، عبدالمجيد الشاوى ، ومؤلف الكتاب . فنظمت قصاصات صغيرة بهذه الاسماء وزعناها على أعواننا من المستخين الثانويين . وفى صباح اليوم التالى جرت مراسيم الانتخاب ففاز مرشحو حزبنا الثلاثة .

وبهذه المناسبة أذكر ان عمرى كان يومذاك ثمانية وعشرين عاما . وفى دفتر النفوس أربعة وعشرين ، وهو دون السن القانونى للنيابة بكثير ، لذلك صححته لدى مجلس ادارة الولاية قبل البدء بالانتخابات . فجعلته واحدا وثلاثين .

وعندما عدت الى البصرة الفيت مرشحى حزبنا الاربعة فيها قد فازوا

أيضا ، وهم : السيد طالب ، عبد الوهاب القرطاس ، عبدالله الزهير ، واحمد نعيم كحالة •

ومما يؤسف له أن حسن كاظم بك بعد أن أنهى مهمته في وكالة متصرفية العمارة عاد الى القرنة وأنتحر فيها لاسباب مجهولة •

مقتل ناظم باشا

وعودة الاتحاديين الى الحكم

كان ناظم باشا أبرز أعضاء وزارة كامل باشا الائتلافية الجديدة • عمل على اعادة تنظيم الجيش وعلى استمالته ضد جمعية الاتحاد والترقي ، وعلى اقناع كبار ضباطه في عدم التدخل في الشؤون السياسية ، فصعب هذا على الاتحاديين كما صعب عليهم أن يتنحوا عن الحكم بعد أن ذاقوا حلاوته ، لذلك قرروا الايقاع بناظم باشا • فلما أشعلت نيران الحرب في البلقان ، وسقطت ولاية أدرنة ، وقلق الرأي العام على مصير الحرب ، نظم الاتحاديون شبه مظاهرة عسكرية مؤلفة من حوالى المائة ضابط يتقدمهم طلعت وجمال وأنور ، ودخلوا ساحة ديوان مجلس الوزراء وأخذوا يهتفون بدوام الحرب وبالاتحفاظ بأدرنة ، فخرج ناظم باشا الى الشرفة ليرى مصدر الضجيج ، ففاجأه أنور باطلاق الرصاص عليه ، فأرداه قتيلا وقتل مرافقه من بعده • ثم توجهوا الى السلطان وأفهموه بأن الشعب ثائر على وزارة كامل باشا يريد اسقاطها ، وان الثوار قتلوا ناظم باشا ، وأن الامر يحتاج الى حل سريع لئلا يتعرض العرش للخطر ، فصدق السلطان وأقال الوزارة رغم محاولات كامل باشا لفهامه حقيقة الحادث ولتطمينه بعدم وجود ثورة في البلاد •

شكل محمود شوكت باشا الوزارة الاتحادية الجديدة ، فأسند وزارة الداخلية الى طلعت ، والحرية الى أنور ، والبحرية الى جمال ، والمالية الى جاويد ، ووزع الوزارات الاخرى بين أقطاب الاتحاديين • وهكذا عادوا الى الحكم أشد بأسا من ذي قبل ، وبدأوا ينتقمون من أعدائهم الواحد تلو الآخر • ولما كان السيد طالب يعتبر عدوهم الألد في العراق ، لذا عقدوا العزم على

التخلص منه ، فكلفوا فريد بك متصرف الناصرية الذي ورد ذكره آنفاً للقيام بهذه المهمة ، بالنظر لما عرف عنه من قوة وجراءة وشراسة • وكانت الحطة المرسومة لهذا الغرض هي أن ينقل فريد بك الى البصرة كقائد لحاميتها فيلقي القبض على السيد طالب بحيلة ما والا فيغتاله في رائعة النهار • أما فريد بك فقد مهد للقيام بمهمته هذه بالاتفاق مع عجمي باشا السعدون ، عدو السيد طالب اللدود ، على تنفيذ الحطة مشتركا •

وقصة هذا العداء ترجع الى بضع سنين خلت حين القى والى البصرة القبض على سعدون باشا السعدون ، والد عجمي ، بتهمة الاغارة على الزبير وسلب مواشيها بينما كان - أي سعدون - في ضيافة السيد طالب • مما أدى الى اعتقاد عجمي بأن للسيد طالب ضلعاً في المؤامرة التي أسفرت عن نفي أبيه الى حلب ووفاته فيها ، فأقسم الا أن ينتقم من السيد طالب عندما تسنح الفرصة •



البصرة تتمرد على السلطنة

المؤامرة الاتحادية في البصرة

قدم فريد البصرة في ٩ مايس ١٩١٣ م وتولى قيادة الجيش فيها يد من حديد ، فعين عاطف بك قائدا للجندرية ، وهجراني بك معاون له ، وكلاهما اتحاديان متطرفان ، ثم فاوض قائد البحرية الاتحادى لتوحيد الجهود ، فرحب هذا بالعرض ، وهكذا أصبحت القوى العسكرية فى البصرة كلها فى قبضة فريد . وكان الى البصرة الجديد علاء الدين الدروبي قد وصلها فى ٢ مايس بدلا من على رضا باشا الركابى .

وفى ٦ مايس كان عجمى ورجال قبيلته قد اقتربوا من الزبير ، ونزلوا بأرض تسمى البرجسية ضربوا خيامهم فيها . وفى ٩ حزيران احتل قصر النقيب فى الشعبية وأقام فيه ، بينما عسكر رجاله من حوله بانتظار الايعاز من فريد بك . وكان الاتصال بين فريد وعجمى يجرى بواسطة محمد العصيمي أحد وجهاء الزبير .

لم يكن السيد طالب أو أعضاء حزبه من الغاوة بحيث تخفى عليهم هذه المناورات ، فقد فهموا القصد من نقل فريد بك الى البصرة ، ومن التبدلات التى جرت فى المناصب العسكرية ، ومن اقتراب عجمى . لذلك أعدوا العدة للطوارئ ، فكتب السيد طالب الى حليفه الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت والشيخ خزعل أمير عربستان ليمدها بالسلاح والعتاد ، فتدفقت عليه الاسلحة بكثرة .

وفى ذات يوم التقى السيد طالب مصادفة بفريد فى دار علي رضا باشا الركابى الذى لم يكن قد غادر البصرة بعد ، فلم يحيي أحدهما الآخر ، مما حمل الوالى على لوم السيد طالب لعدم زيارته فريد ، اذ أن العادة الجارية تقضى بأن يزار القادم من قبل أهل البلد أولا ، ورجا منه أن يقوم بزيارته عصر ذلك اليوم ، فلم يسع السيد طالب الا الموافقة مجاملة . فلما خرج من هناك مرّ بدارى ، وهى مجاورة لداره ، وسألنى اذا كنت أرغب فى الذهاب معه

لزيارة فريد بك عصر ذلك اليوم • فأبدت استغرابي لهذا الاقتراح ، فروى
لى الحكاية وقال أنه لا يستحسن العدول عن هذه الزيارة بعد أن أعلن للوالى
عن موافقته على ادائها • أما أنا فقد اعتذرت لأمر فى نفسى ، فودعنى
وأنصرف • ولم يكده يستقر فى داره حتى دعوت عربته فأستقلتها ، وطففت
بسرعة على دور الضباط العرب ، ومن جملتهم عارف عنه وسعيد حقى ،
وأخبرتهم بأمر هذه الزيارة ، وطلبت منهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة
للمحافظة على حياة السيد طالب •

ذهب السيد طالب الى حيث يقيم فريد بك فى الثكنة ومعه اثنا عشر من
رجاله المسلحين ، فوجد الضباط العرب متجمهرين فى مدخل الثكنة ،
فأستقبلوه استقبالا حارا • وحين أراد الدخول منع حراس الثكنة رجاله من
مرافقته ، فتوسط الضباط العرب لادخال اثنين منهم فقط • ولما صعد السيد
طالب الى غرفة فريد فى الطابق الأعلى استقبله هذا استقبالا فاترا ، ولم تطل
الزيارة فعاد السيد طالب الى داره • وفى طريق عودته مرّ بداري ، فروى لى
ما دار بينهما من أحداث ، وأبدى استغرابه من تجمع كل الضباط العرب فى
الثكنة فى مثل تلك الساعة من النهار ، ومن كثرة صعودهم ونزولهم على
السلم أثناء وجوده فى غرفة فريد ، ومن تطلعهم من نوافذ الغرفة بين حين
 وآخر • فأبتسمت ، فقال : افصح • فقلت : أسأل حوزيك • فروى له الحوذى
كيف انى طفت بدور الضباط العرب وحذرتهم • فسرّ لذلك وشكرنى
كثيراً •

بعد هذه الزيارة بدأ فريد بك يزور السيد طالب أحيانا فى النهار
وأحيانا فى الليل ، حتى أنه ثمل مرة وبات ليلته فى دار السيد طالب •
وكان علينا أن نحاذر أشد الحذر على حياتنا ، اذ كانت الاخبار تسرب
عن قرب وقوع المؤامرة •

وفى احدى الأمسيات ، بينما كنت متتجيا بالسيد طالب جانبا فى سطح
داره ، حيث يجتمع أصدقاؤه كل ليلة للشرب والسمر ، خطر لى خاطر

مفاجيء اذ أطلت برأسي على الخربة المجاورة فراعتني حلقة الظلام فيها •
قلت للسيد طالب :

- اني لا أرى صلاحاً في وقوفنا تحت هذا الضوء ، والخربة من تحتنا •
وأعداؤنا يتربصون بنا الفرص •
فقال : أنك كثير الأوهام •

قلت : بل أنا شديد الحذر ••••• وضحكنا ثم ابتعدنا عن الجدار •
وبعد خمسة أيام أخبرني أحدهم عن وجود ثلاث جثث لرجال من عشائر المنتفك
في الخربة المذكورة • فلما سألت السيد طالب عن الخبر ، أجاب أنه ، منذ
تحذيري له ، أوصى حراسه بمراقبة الخربة ، حتى اذا كانت الليلة الماضية
فاجأوا ثلاثة رجال مسلحين يتربصون ، فقتلوهم •
تأكد المتآمرون من عدم امكان اغتيال السيد طالب حسنة ، فأزمعوا على
تدبير مؤامرة واسعة النطاق ، للقضاء عليه وعلى أعوانه بشكل علني ، يزجون
فيها بكل قواهم •

دعى فريد بك متصرف الناصرية الاتحادي بديع نوري للمشاورة معه
في أمر المؤامرة • فحضر هذا الى البصرة في ١٠ حزيران وأقترح أن يدعو
عبدالله الفالح السعدون للتعاون معهما • وكان عبدالله صديقاً حميماً للسيد
الطالب • فحضر الى البصرة استجابة لدعوتهما • فلما فاتحاه بالأمر رفض
التعاون معهما ، وقال أنه يعتز بصداقته للسيد طالب ولن يعمل على قتله • فطلبوا
اليه البقاء في البصرة بضعة أيام ، وكان غرضهما من ذلك اقناعه في مناسبة
أخرى • وكجزء من الخطة المرسومة قدم البصرة حمد السعدون ، أخو
عجمي ، في ١٥ حزيران سنة ١٩١٣ ، مع الشيخ سالم الحيون رئيس قبيلة
بني أسد يصحبهما نحو من ثلاثين رجلاً مسلحاً ، فاستأجروا داراً كبيرة
في البصرة •

كان لحزبنا عيون وأرصاد ، فلا غرابة في أن تتسرب الينا تفاصيل
المؤامرة كما وضعها فريد وبديع ، وهي تلخص فيما يلي :-

فى منتصف ليلة ٢٠-٢١ حزيران سنة ١٩١٣ ، وهى الساعة المعينة لتنفيذ المؤامرة ، يمنح الضباط العرب اجازات ، ويتولى الحفارة فى الثكنات ضباط اتحاديون ، ثم يزحف الجيش بكامل أسلحته ويحتل جزءاً من محلة القبلة ، حيث قصر السيد طالب ، ويحتل حمد السعدون وسالم الحيون ورجالهما جزءاً آخر ، وينتظم الجند رمة بقيادة عاطف وهجرانى فى الساعة نفسها فيلقون القبض على الاشخاص التالية أسماؤهم كل فى داره : أحمد باشا الصانع ، عبداللطيف باشا المنديل ، مؤلف الكتاب ، الحاج طه الموصلى ، عبدالله صائب (الحاكم المدنى) ، عمر فوزى المحامى ، عبدالرزاق النعمة ، وعبدالوهاب الطباطبائى . ثم يدخل عجمى السعدون ورجاله البصرة من ناحية باب الزبير . وتطلب هذه القوات من السيد طالب تسليم نفسه ، وعند رفضه تهاجم قصره ، ولو أدى ذلك الى احراق الحى كله .

اذا لم تكن ذئبا على الارض ...

لم يخبر السيد طالب بهذه التفاصيل أحداً سواى ، فجلسنا نتدبر أمر الدفاع ، وأخذنا الخطوات التالية :-

أولاً : ترحيل عوائل الاشخاص الذين ترمى المؤامرة الى مهاجمتهم .
ثانياً : تسليح أكبر عدد ممكن من الرجال للدفاع عن محلة (القبلة) وعن الدور المخلاة .

ثالثاً : احباط المؤامرة بهجوم مفاجئ على المتآمرين أى كما يقول المثل العامى : « تتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا » .

أما الخطوة الاولى فقد تمت بسهولة ، فرحلت العوائل الى مناطق الأمان ، وعرض السيد طالب قصره فى السبيليات على العوائل التى ليس لها مكان تلجأ اليه . وقد اخترت وعمي الحاج طه أحد بسائنيه ملجأ لعائلتنا . وتلتها الخطوة الثانية ، وهى تسليح الدور المفرغة واعدادها للدفاع . وبالفعل فقد حلّ فى داري ما لا يقل عن عشرين رجلاً بكامل سلاحهم مجهزين بكميات وافرة من العتاد ، وكذا الحال فى الدور الأخرى . أما دار السيد طالب

فكان يحرسها مالا يقل عن المائة من الرجال الأشداء ، ومثل هذا العدد أو يزيد أنهمك في حراسة النقاط والمواقع السوقية في محلة القبله •
 بقى علينا تنفيذ الخطوة الثالثة ، وهنا يجثم الخطر • فأعداؤنا كانوا على جانب كبير من القوة والدهاء ، وكنا متأكدين من أن أتفه خطأ يرتكبه أحد أعواننا قد يؤدى الى أواخر العواقب ، أو أن أسرارنا اذا تسربت اليهم فقد يلجأون الى تقديم موعد المؤامرة ، أو أن المؤامرة التى أزمعنا مدهمتهم بها اذا قدر لها الفشل فسوف يعمدون الى مهاجمتنا عنوة ، فتشيب حينئذ معارك دامية فى شوارع المدينة يحترق بلظاها الأخضر واليابس • لذا فقد أحطنا هذه الخطوة بتكتم شديد •

مقتل فريد بك

فى ١٩ حزيران توجه فريد بك ، وبديع نوري ، وعبدالله الفالح السعدون ، وبعض الضباط الاتراك على ظهر الباخرة الحربية (مرميس) الى الفاو فى مهمة تفتيشية ، على أن يعودوا فى اليوم التالى • وفى صباح يوم ٢٠ حزيران خرج من دار السيد طالب رجل بملايس رثة ، يحمل فراشا قدراً على رأسه ، وسار الهوينى فى طريقه الى العشار • وبعد نصف ساعة خرج ثان بنفس الهيئة والاتجاه • ثم تبعهما ثالث ورابع • والتقى الاربعة فى دار قديمة مهجورة تشرف على رصيف نهر العشار ، وراحوا يرقبون الرصيف من النافذة بالتناوب • وعندما آذنت الشمس بالمغيب لاحت للعيان الباخرة « مرميس » ، ثم اقتربت من الرصيف • فلما أثبتت البحارة السلالم الحشبية نزل الى الساحل فريد بك يتبعه الآخرون • حينئذ فتح الرجال الاربعة أفرشتهم القذرة ، وأخرجوا منها بنادقهم ، وخرجوا لملاقاة القائد • حتى اذا ما أقربوا من موكبه انهالوا عليه بوابل من الرصاص ثم ولوا الأدبار • وكانوا فى انسحابهم يطلقون النار الى الخلف • ثم اختفوا فى منعطفات الطرق الضيقة ، حتى اذا ما أستقبلتهم بساتين النخيل أطلقوا سيقانهم للريح ، فلفهم الليل بسواده الحالك • أما على الرصيف فكانت جثث فريد بك وبديع نوري وأحد الجنود قد همدت الى الأبد •

حين دوت تلك الطلقات كنت فى دار السيد طالب ، حيث يجتمع رهط من أصدقائه ، فأثار هذا الدوي فى نفوسهم القلق ، اذ لم يكن أحد منهم ليعلم عن الأمر شيئاً . وراحوا يضربون أخماساً بأسداس ، وحاول كل منهم أن يحدس أو يخمن ، فما صدق حدسهم ولا صح تخمينهم . أما أنا فقد انتحيت بالسيد طالب جانباً وطلبت اليه أن يبقى فى مكانه فى الديوان وأن أخرج أنا لاعطاء بعض الأوامر للحراس . كان جلّ خوفنا أن يكون فريد بك قد نجا ، فيقوم بتنفيذ مؤامره حالا انتقاما منا . لذلك أوعزت الى الرجال بفتح صناديق العتاد الاحتياطى والتيقظ لكل حركة مريبة . وأسرعت الى الضابط الغيور عبدالجليل الشالجى ، أحد المتيمين الى حزبنا سرّاً ، والذي كان آمراً لسرية الجيش فى باب الزبير وأخبرته بخطورة الموقف فيما لو كتب لفريد بك النجاة ، فأهتم للأمر وخرج مع قسم من جنوده للطواف فى محلة القبلة بحجة التفيش ، ولكنه فى الحقيقة كان عازماً على الدفاع بجانبنا فيما لو هوجمنا .



عبدالجليل الشالجى

مرّت نصف ساعة خلتها نصف سنة ، ثم وصلت الأنباء بمقتل فريد ، فكان علينا أن نحاط بالأمر ، لئلا يقرر الضباط الاتراك الاستمرار فى الخطة انتقاما لقائدهم ، خاصة وان رجال عجمى على أهبة الاستعداد . لذلك لبث رجالنا وراء تحصيناتهم بانتظار المعركة ، واستمر عبدالجليل وجنوده فى تجوالهم بالشوارع القريبة منا حتى الصباح .

أما ما جرى في المعسكر الآخر ، فإن ضباط الحامية والجندرمة والبحرية انقسموا ما بين مجذ لتنفيذ المؤامرة وبين راغب في العدول عنها . ولما كانوا يعلمون مدى القوة التي نمتلكها ، وشدة مراس رجالنا في القتال ، رجحت كفة الآخرين ، فاستعاضوا عن الهجوم بتفتيش البساتين المتاخمة للمدينة طلباً للقتلة . وهكذا انقسموا الى كتائب صغيرة وأوغلوا في البساتين المظلمة . ولما علم حمد السعدون بمقتل فريد بك أرسل رسله الى عجمي يطلب منه عدم دخول البصرة ، وأرسل بقية رجاله للتفتيش عن القاتلين . وصادف ان التقت كتيبة من الجيش بأربعة من رجال حمد ، فألقوا القبض عليهم ، ظناً منهم بأنهم القاتلين ، واقتادوهم الى البصرة . وخدمت هذه المصادفة الغربية قضيتنا خدمة كبيرة . فحين عرف المحققون العدليون - وكلهم من أنصارنا - أن هؤلاء الرجال هم من أتباع حمد السعدون ، تعمدوا دفع الشبهة عن السيد طالب وتوجيهها الى حمد نفسه . فجاء في تقريرهم أن حمد السعدون ، بالنظر للعداء المستحكم بينه وبين عبدالله الفالح ، تأمر مع عاطف وهجراني على قتل عبدالله الفالح عند نزوله من الباخرة ، وشاعت الصدفة أن ينجو هو وأن يقتل بدله فريد وبديع نوري . فلما الفى حمد نفسه متهما في القضية وأن أربعة من رجاله أوقفوا ، ترك البصرة مع الشيخ سالم الحيون وبقية رجاله في يوم ٢١ حزيران . وعاد عجمي السعدون بدوره الى المنتفك . وهكذا أسفرت المؤامرة عن انتصار حاسم للسيد طالب ولحزب الائتلاف والحرية .

ذبول المؤامرة

أضطربت الحكومة في استانبول وبغداد لهذه الأنباء ، خاصة حين اوردها تقرير المحكمة بآتهام عاطف وهجراني بالتحريض على قتل عبدالله الفالح السعدون ، فأوفدت نجاتي بك المدعى العام في بغداد للتحقيق في الامر . وقبل مغادرة نجاتي الباخرة صعد اليه الضباط الاتراك وحذروه من النزول الى البر لئلا يقتل ، فكتب تقريراً مختصراً وعاد بيومها الى بغداد . ويتلخص تقريره بدفع التهمة عن عاطف وهجراني ، وأطلاق سراح الرجال الاربعة الموقوفين ، وبآتهام القضاء في البصرة بالتحيز الى جانب السيد طالب .

وعلى أثر ذلك التقرير عزلت الحكومة بهاء الدين بك رئيس استئناف البصرة ، فأبرق له وزير العدلية : « فصلناك عن الوظيفة » • فأجابه هذا : « الى أين أذهب وأين نقلت » فجاءه الرد من الوزير : « اذهب الى جهنم » •

ومن طريف ما يذكر في هذه القصة ، انه كان من جملة الحاضرين في دار السيد طالب ليلة المؤامرة الصحفي السوري توفيق جانه ، وكان يتكلم بشجاعة فائقة عن آمال البلاد وأمانيتها ، بينما يعب في جوفه الحمر عباً • فلما دوت الطلقات أصابته رعدة خفيفة وشحب لونه ، ثم استحالت تلك الرعدة الى ارتجاف مرير ، وراح يصرخ : « دخلك شو هيدا » • وكلما حاولنا تهدئته ازداد رعباً وفزعاً ، فأخذناه الى فراشه وجلسنا حوله ، وكان في أسوأ حال • وعندما سأله أحدنا عما اذا كان قد أستعمل سلاحاً في حياته ، قال : « أيوه أوسّت مرة بالفرد بتاع صديقي ما شفت الا وقع مني » •

بعد مرور عام على هذا الحادث التقيت بعاطف بك على ظهر الباحرة عباسية في طريقنا الى استانبول ، فجلسنا نتحدث في موضوع مقتل فريد بك ، فقال لي ما معناه : « لو كانت المؤامرة قد نجحت لكنت أنت وعمك والسيد طالب في العالم الآخر ، ولكن الله اراد الموت لفريد والنجاة لكم ، وتقديرون فتضحك الاقدار »

وبعدها بستة أعوام في سنة ١٩٢٠ دخلت يوماً مجلس يوسف السويدي في بغداد ، فوجدت بعض الزائرين ، ومن بينهم سالم الخيون ، فأخذنا نستعرض حوادث الماضي ، فقال الشيخ سالم :

« تأكدوا أيها الحاضرون بأن عجمي السعدون أرسل رجاله مرتين لاغتيال سليمان فيضي ، لأنه كان يعاضد السيد طالب ويؤازره ، ولكن الله نجاه في المرتين ، فعاد الرجال خائبين »

وبعدها بثلاثين سنة التقيت بعجمي السعدون في استانبول ، فسألته

مازحاً : لماذا أردت قتلي ؟•

قال : « لعن الله السياسة ، فانها كالخمرة تدفع المرء الى اقتراف أخطر الذنوب ، حتى اذا ما أنجلت نشوتها أدرك أخطاءه »

النادى الادبى وجريدة النهضة فى بغداد

عاد مزاحم الباجهجى من استانبول ، فأصدر جريدة (النهضة) ، وأتفق هو وحمدى الباجهجى ، وابراهيم حلمى العمر ، وبعض الشباب المتحمسين على تأسيس ناد ظاهره أدبى وباطنه سياسى . وهكذا تأسس النادى الأدبى ، فأنضم اليه الكثيرون من العناصر الوطنية فى بغداد ، أخص بالذكر منهم :- الشيخ محمد رضا الشيبى ، الشيخ باقر الشيبى ، تحسين العسكري ، بهجت زينل ، عبدالمجيد كنه ، رزوق غنام ، محمود أديب ، يوسف عز الدين ، مبدى الفرعون ، محمود بعقوبة ، عبدالحميد الشالجى ، صبيح نجيب ، عاصم الجلبى ، وغيرهم ممن لم تتسع الذاكرة لحصر أسمائهم .

كان النادى يعمل بأرشاد يوسف السويدي ، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بحزب الائتلاف والحرية فى البصرة . وباعتبارى معتمداً للحزب المذكور ، كنت دائم الاتصال بمزاحم الباجهجى بالمكاتبه ، وكثيراً ما أرسلت الى جريدة النهضة والى النادى الاعانات المالية التى كنا نجمعها من أعضاء الحزب أو من السيد طالب شخصياً .

غير أن الحكومة أذ ذاك أستشاطت غيظاً من جريدة النهضة فأغلقتها ، وسعت الى القاء القبض على صاحبها مزاحم ومحررها ابراهيم حلمى العمر ، ففجروا الى البصرة . وحل مزاحم فى دار عمه محمد جلبى الباجهجى ، الذى كان مديراً لأموال القاصرين فى البصرة ، ونزل ابراهيم ضيفاً فى دارى ، ثم عاد بعد أيام الى بغداد متكرراً .

مصرع محمود شوكت باشا

أشرنا آنفاً الى أن محمود شوكت باشا تقلد منصب رئاسة الوزراء برغبة من الاتحاديين باعتباره اتحادياً ، الا أنه كان شغوفاً بحب النظام ، ولم يكن

يستيسغ تدخل الجيش فى السياسة ، فمنع الضباط من الانتماء الى جمعية الاتحاد والترقى ومن التردد على نواديها ، اذ كان يرى فى ذلك مخالفة صريحة للدستور الذى يحظر على الضباط الانتماء الى الاحزاب والكتل السياسية •

لم ترق أعماله هذه لعين وزرائه الاتحاديين فأختلفوا معه ، ولما كان هو يتمتع بشخصية قوية ، ومقدرة عسكرية فائقة ، وليس من السهل عليهم تنحيته عن الحكم ، لذلك أضمروا له الشر وعزموا على اغتياله • فدبروا مؤامرة محكمة ترمى الى قتله واتهام خصومهم بالقتل ، فيكونون بذلك قد أصابوا عصفورين بحجر واحد •••

ابتدأت المؤامرة بأن سارت جمهرة من الناس يحملون نعشاً فارغاً فى الطريق المؤدية الى ديوان مجلس الوزراء فى الوقت المعين لحضور الرئيس ، فتبعهم خلق كثير • وعندما اقتربت سيارة الرئيس سد موكب الجنازة الموهومة الطريق ، فأضطرت السيارة الى التوقف قليلا ، وهنا القى المشيعون التابوت ، وهجموا عليها وأطلقوا على من فيها وابلا من الرصاص ، ثم تواروا عن الانظار بعد أن تركوا محمود شوكت مضرجاً بدمائه •

عين السلطان الامير سعيد حليم باشا ، أحد أحفاد محمد على باشا الكبير والذى كان مقيماً فى استانبول بسبب اختلافه مع عباس حلمى خديوى مصر ، عنه خلفاً للرئيس الراحل • فأعاد هذا تشكيل الوزارة بوضعها السابق تقريباً • أجرت الوزارة الجديدة التحقيق فى مصرع الرئيس السابق ، وأتهمت بقتله ثلاثة عشر رجلاً من خصوم جمعية الاتحاد ، جلهم من زعماء الحزب الحر ، وحزب الائتلاف ، ومن المعارضين المستقلين ومن ضمنهم صالح باشا صهر السلطان محمد رشاد • وجاءت الحكومة بشهود زور واثباتات مزورة ، فحكمت المحكمة باعدامهم ، وكانوا أبرياء مما نسب اليهم • ولما أخذ طلعت وزير الداخلية أوراق الحكم بيده الى السلطان للمصادقة عليها ، كانت ابنة السلطان حاضرة تستجير بابيها لينقذ زوجها البرىء وتبكى بكاء مرّاً • فأخذ

السلطان يستعطف طلعت ليدل حكم الاعدام بالسجن المؤبد ، الا أن طلعت
أصر على أعدامه ، فرضخ السلطان للامر وهو موقن ببراءة صهره .
بعد أن نفذ حكم الاعدام أصبح الشعب يخشى بطش الاتحاديين ، فلم
يرتفع صوت بمعارضتهم ، ولم يجسر أحد على انتقادهم ، فصفا لهم الجو ،
وكان لسان حالهم يقول :

صفا لك الجو فيضى وأصفري ونقري ماشئت أن تنقري

سفرة تحفها الاخطار

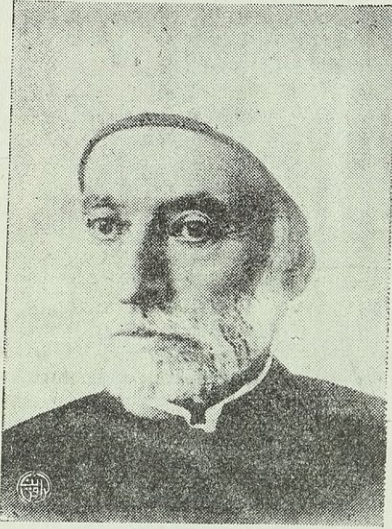
لتنظيم الكفاح الوطني

اتخذ حزب الحرية والائتلاف اتجاها سياسيا جديدا بعد أن أصبح يتمتع
بنفوذ واسع في البصرة والمناطق المجاورة ، فبعد أن كان نضاله يقتصر على
المطالبة ببعض حقوق العرب ضمن نطاق الدولة العثمانية ، أصبح ينادي
بحقوقهم كاملة غير منقوصة ، ويدعو الى تحرر الاقطار العربية من نير
الاستعمار التركي ، وبدل أن يقصر نشاطه على الولايات الجنوبية من العراق ؟
ارتأى أن يأخذ بيد الاحرار في سائر أنحاء البلاد ، فيوحد
صفوفهم وينظمهم في جماعات وأحزاب تعمل في العلن اذا سنحت
الظروف ، وتجاهد في الخفاء اذا ضيقت الحكومة عليها الخناق . لذلك ارتأى
الحزب انتدابى للقيام بهذه المهمة ، فقبلتها مسرورا رغم علمى بالصعاب
والمخاطر التي ستعرض سبيلى .

غادرت البصرة على ظهر الباخرة مجيدية في ١٣ تموز ١٩١٣ مجهزة
برسائل ومنشورات سرية من الحزب الى الوطنيين في أرجاء العراق المختلفة .
وقد احيط سفرى بالكتمان الشديد .

وصلت بغداد في ليلة ١٩ منه ، فوجدت في انتظارى الضابط عبد الحميد
الشالجي ، حسب توصية أخيه عبد الجليل ، فصعد الى ظهر الباخرة وأخذ منى
المطبوعات السرية ونزل بها أولا ، ثم تبعته . فسألنى البوليس عن اسمى
ودونه مع أسماء المسافرين . انتهت الليلة بسلام ، ونزلت بضيافة المرحوم
الحاج مصطفى الوتار ، وأسترجعت المطبوعات من عبد الحميد الشالجي . فلما

ترامى خبر وصولى الى اصدقائنا فى بغداد أقبلوا على زيارتى للتشاور معى
فى المهمة التى جئت من أجلها • وكان من جملة من زارنى يوسف السويدى ،
ورشيد الخوجة ، وعبد اللطيف الفلاحى ، ومزاحم الباجه جى ، وحمدي



يوسف السويدى

الباجه جى ، و ابراهيم حلمي العمر
وغيرهم • أما رجال البوليس فقد
قامت قائمتهم لعلمهم بوصولى الى
بغداد ، رغم الاحتياطات التى
اتخذوها لمنعى من النزول اليها •
فاتشروا حولى بمختلف الازياء
والصور ، يحصون على
حركاتي وسكناتي ويدونون اسماء
الذين يزورونى • ولم تمنعنى
هذه الرقابة الشديدة من الاتصال
بالاشخاص البارزين فى
الحركة الوطنية • فقد

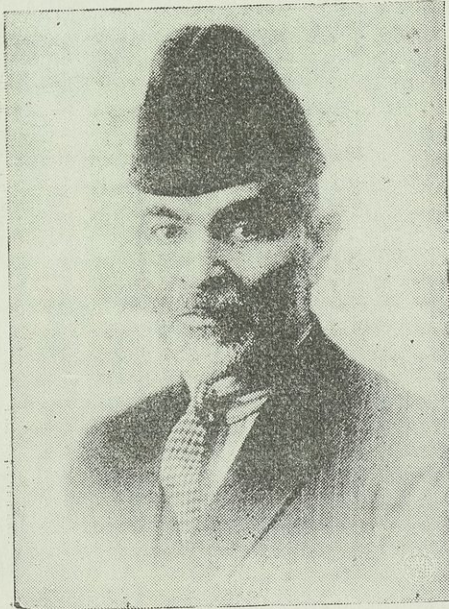
كنت اذا جنّ الليل وهجع الرقباء أخرج متكرراً ، وقد تمكنت بهذه الطريقة
من زيارة يوسف السويدى فى داره ، حيث تعرفت على أحد أنجاله (ثابت)
فأعجبتنى روحه الوثابة وحماسه العظيم ، كذلك زرت آل الباجه جى رداً على
زيارتهم لى ، وعبدالرحمن الحيدرى الذى وجدت فيه استعدادا للتعاون معنا •

لبثت فى بغداد ثلاثة أيام ، ثم غادرتها الى الموصل فى قافلة على ظهور
البغال • وكنت قد أخفيت المطبوعات الممنوعة داخل السرج • وحين وصلنا
سامراء نزلنا فى أحد المقاهى نغتسل من وعشاء السفر ، اقترب منى قومسيرو
بوليس وهمس بأذنى : هل تعرفنى ؟ • قلت : كلا •

قال : أنا عبد المجيد السهروردى ، ابن صفك فى الرشدى العسكرى ،
وقد خاطرت بالاقتراب منك لكى أُنذرك بأن لدينا أمراً بالقاء القبض عليك

وإعادتك مخفورا إلى بغداد ، وقد عمم هذا الأمر على كافة المدن المنبثة في طريقك ، فخير لك أن ترحل حالا والا القى زملائي القبض عليك • قال هذا وانصرف بسرعة •

انزعجت لهذا الانذار ، وأحطت رفقائي علما به ، وكانوا الشيخ قاسم الشعار قاضي الموصل السابق وفريق من طلبة المدرسة الحربية في بغداد ، وكلهم من المتحمسين للقضية العربية ، فأخذوا مني المشورات وأخفوها في أمتعتهم ، وأنفقوا على أن يدعوني باسم مستعار (الحاج على الحصان) ، وأن تستأنف القافلة سيرها حالا ، فسارت على بركة الله • وقبل أن نصل إلى تكريت اعترضت طريقنا عصابة من قطاع الطرق ، فأصليناهم نارا حامية فولوا الأدبار • وفي فجر اليوم التالي وصلنا تكريت ، فاستقبلني سليمان الحاج شعبان - ابن عم مولود مخلص - وأقسم الا أن نستريح عنده يوما ، وتوعد بالويل والثبور لمن تحدّثه نفسه بالقاء القبض عليّ وأنا في ضيافته • وهكذا استرخنا يوما كاملا ، ثم استأنفنا السير ليلا فوصلنا حمام العليل بعد مسير ستة أيام • وهناك وجدت الكثيرين من أصدقائي وأقاربي قد قدموا من الموصل لاستقبالنا •



مولود مخلص

استرخنا في حمام العليل ليلة ، دعاني فيها الحاج أمين الجليلي والاستاذ حبيب العبيدي على العشاء • تحرك الركب في الصباح ، وركب معنا الحاج أمين والاستاذ حبيب أيضا • وفي الطريق إلى الموصل أقبل علينا قوميسر بوليس راكبا ، فتعجبنا لوجوده في مثل ذلك المكان الخالي ، فقال متلعثما : أرسلني مدير البوليس

لاستقبال أحد أقاربه ، الذي قيل أنه جاء في القافلة بصحبة سليمان فيضى ،
فهلأ أريتموني الرجل ؟ • فأشاروا اليّ وقالوا هذا هو سليمان فيضى •

فسألته : ما أسم الرجل الذي تدعي انك قادم لاستقباله ؟
فتلعم وفاه باسم غير واضح • وهنا عرفت ان الاخبار قد سبقتي ، وان
البوليس هنا لن يقصر في ايدائي اذا سنحت له الفرصة • وعندما اقتربنا من
الموصل أرخى القومسير عنان فرسه فجأة ، وأسرع الى مديره يخبره بوصولي •

الموصل عام ١٩١٣

وصلت الموصل فأستقبلني في مشارفها خلق كثير • وأتخذت لسكنائي
فيها داراً ، فتوارد عليّ القوم يهنئونني بسلامة الوصول • وفي الايام القلائل
الاولى التي قضيتها في دراسة الوضع في هذه المدينة توصلت الى معرفة
الحقائق التالية :-

أن المؤمنين بالقضية العربية قلائل جدا ، وأن المشتغلين فيها أقل ، وأن
النزعة الدينية التي يتميز بها أهل الموصل تقف حائلا بينهم وبين التمرد على
الدولة العثمانية ذات الصبغة الاسلامية والخلافة المقدسة ، وأن سطوة الحكومة
الاتحادية فيها أقوى من غيرها من مدن العراق ، وأن مدير البوليس فيها خالد
بك اتحادي متطرف ، ملاً طريقى بالاشواك ، وأحاطني بالجواسيس من كل
جانب ، واستصدر أمرا يمنع الضباط من الاختلاط بيّ ، وأثار في الاوساط
الدينية في المدينة الاشاعات والأراجيف التي مفادها بأنى أبشر بنذ التقايد
الدينية وعصيان خليفة رسول الله • وأنه ذهب بنفسه يطرق أبواب الوجهاء
يلتمس منهم عدم زيارتي أو الاصغاء الى دعوتي •

زارني في دارى الحاج محمد باشا الصابونجي مرتين ، ثم دعاني للافطار
في داره ، وأنهالت عليّ الدعوات من عشرات الشخصيات البارزة ، فأستشأت
خالد بك غيظاً ، وذهب الى محمد باشا الصابونجي وأبان له خطرى على الدين
والخلافة ، وآرائى الثوروية ، ورجا منه الامتناع عن الاحتفاء بيّ لئلا يكون قدوة
لغيره • فأجابه محمد باشا : ان سليمان فيضى بن الموصل البسار ، وهو عزيز

على أهلها ، ففي اليوم الذي يأتي فيه الموصل زائراً ليس لنا محيص من الاحتفاء به ، لا سيما وأن لوالده مكانة محترمة بالنظر لورعه وتقواه • أما إذا كان يحمل بين جنبيه آراء تضر بالمصلحة العامة أو تمس حقوق الخلافة فأننا سوف لا نصغى إليه •

فهم المدير من هذا الكلام معنى الردع والزجر فخرج يتعثر بأذيال الحية •

حدث في تلك الاثناء ان أطلق عبدالمجيد كنه النار على أحمد بك مدير البوليس في بغداد وجرحه جرحاً بليغاً ، فلما القى القبض عليه وجدوا في حوزته ساعة ذهبية ، فرعموا اني قد أهديت عبدالمجيد هذه الساعة أثناء وجودي في بغداد ، واني حرصته على قتل مدير البوليس ، وكأنهم بذلك ارادوا اصابة عصفورين بحجر واحد • فقام البوليس بأجراء تحقيقات واسعة النطاق مع الاشخاص الذين اتصلت بهم في بغداد ، فأنكروا وجود أي شيء من هذا القبيل ، كما أن المتهم نفسه أثبت أن الساعة كانت في حوزته منذ سنين عديدة • فزال الشك ، وحمدت الله على الخروج من هذا المأزق •

ترك الآن جانباً أخبار التجسس والعرقلة لنعود الى صلب الموضوع ، الا وهو العمل على تشكيل الجمعيات السرية •

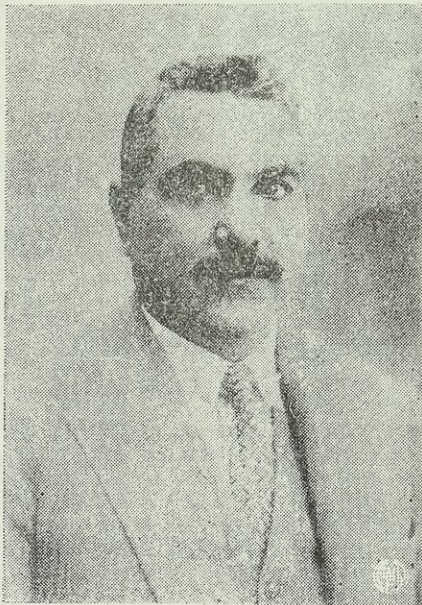
قلت أنني حين وصلت الموصل وجدت أن عدد المؤمنين بالفكرة العربية فيها لا يتجاوز عدد أصابع اليدين وهم : سعيد الحاج ثابت ، وابراهيم عطار باشي ، وداود الملاح آل زيادة ، ومحمد علي فاضل آل حافظ مبعوث الموصل ، وحبيب العبيدي ، والدكتور داود الجلبى • وكان بيني وبين الثلاثة الاوائل مراسلات سابقة في هذا الموضوع • أما من العسكريين ، فياسين الهاشمي الذي كان رئيساً للأركان في الموصل ، ومولود مخلص ، وعلي جودت ، وعبدالله الدليمي •

وبعد وصولي بأيام وضعت الخطط الأساسية للعمل ، وهي تلخص بما يأتي :-

Arabs
in
mosul

بث الدعوة بين العسكريين بمساعدة على جودت ومولود مخلص ، وبشها بين الاهلين والتجار بمعونة سعيد الحاج ثابت و ابراهيم عطار باشي ، اللذين أصبحا فيما بعد لولب الحركة الرئيسي في الموصل ، والتأثير على الاسواق وأصحاب الحوانيت والمهنيين الصغار بجهود الحاج أيوب العبد الواحد ، بالنظر لما له من المحبة في نفوسهم ، ونشر الدعوة في القرى والارياف بواسطة الحاج علي زين العابدين . حتى اذا ما تجمع لدينا العدد الكافي من الاعضاء جمعناهم في جمعية سرية قوية تعمل بانسجام مع حزبنا في البصرة والاحزاب الحرة في البلدان العربية الاخرى .

بدأنا العمل ، وكان شاقاً عسيراً بسبب القيود التي احاطت بها رجال البوليس ، وكان الاتصال بي محظوراً على الاهلين ، كما كان الاقتراب مني ممنوعاً على الضباط كما أسلفت ، فأعتمدت على سعيد ثابت و ابراهيم عطار باشي في تبليغ التعليمات الى المنتسبين ، وفي نقل المطبوعات السرية اليهم ، أو في



تهيئة اجتماعات سرية بيني وبينهم في أماكن خفية ، وفي اقناع الجمهور بوجهة نظرنا . وقام في أوساط الضباط مولود مخلص وعلى جودت بدور مماثل . وكنت اجتمع بياسين الهاشمي سرا في دار حبيب العبيدي ، كما زرته مرتين في داره بعد منتصف الليل .

سرت الدعوة في الاوساط المدنية والعسكرية بصورة مرضية ، فانهالت

ياسين الهاشمي

علينا الطلبات للانخراط في سلك الجمعية من خيرة القوم ، وهم من المدنيين :-

سعيد ثابت ، ابراهيم عطار باشى ، محمود الملاح ، داود سليم ، مكى الشربتى ، السيد عبدالغنى نقيب الاشراف ، محمد الفخرى ، قاسم السيد يحيى الفخرى ، الحاج علي زين العابدين ، رشيد العمرى ، الحاج أيوب عبدالواحد ، آصف قاسم أغا ، عبدالله باش عالم ، عبدالله رفعت العمرى ، مجيد العمرى ، الشيخ قاسم الشعار ، رؤف الغلامي ، الحافظ عثمان المولوي ، شهاب الدبوني ، عبدالله سليمان ، عبدالعزيز حمود القدو ، عبدالرحمن العيديد ، طاهر المصيب العمرى ، مجيد شوقي البكرى ، عبدالعزيز آل خليف أفندى ، صلاح الدين الخطيب ، رشيد الخطيب ، حمدي جلميران ، وكثيرون غيرهم من الوجهاء والتجار والعلماء . كما أن الحاج أمين الجليلي كان متضامناً معنا بتضامنه مع حبيب العيديد .

وأتمى إليها من الضباط بالاضافة الى أصحاب الفكرة أساسا والذين أوردت أسماؤهم أعلاه :-

فوزى القاوقجي ، صادق الجندي ، مجيد حسون ، عبدالرحمن شرف ، جميل روحى ، عاصم حافظ ، توفيق الجلبى ، مختار الطرابلسى ، شريف العمرى .

عملت أياماً فى تنظيم الجمعية ، وفى تزويدها بالتعليمات ، وفى ترتيب منهاجها السرى . وهكذا تألفت أول جمعية سرية فى الموصل للجهاد فى سبيل القضية العربية ، والتى جاء ذكرها فى كتاب مقدرات العراق السياسية الصادر سنة ١٩٢٥ ، لمؤلفه محمد طاهر مصيب العمرى الموصلى (المجلد الثالث الصفحة ٤٥) بالنص الآتى :-

« ونستطيع أن نقول أن أول جمعية وطنية عربية تأسست فى الموصل هى الجمعية السرية التى سعى بتأسيسها الاستاذ سليمان فيضى الموصلى الذى كان قد جاء الموصل سنة ١٩١٣ آتياً من البصرة . بيد أن الجمعية قد تضاءلت عقب تشكيلها بدون أن تأتى بأى عمل » .

النجاة من الشرك

بعد الفراغ من تأسيس الجمعية أزمعت على الرحيل ، وقبيل عودتي بأيام دعاني وكيل الوالى لمقابلته ، فأخبرت ياسين الهاشمى بهذه الدعوة وأتفقنا على أن يحضر هو فى المقابلة أيضا • وكان وكيل الوالى أسعد باشا عربياً يعطف سراً على الفكرة العربية ، فاستقبلني هاشماً وقال لي :

« لقد علمت بالتفصيل عن أعمالك فى الموصل ، وكم كنت أود أن أغض الطرف عنها ، ولكن ظروف منصبى تضطرني الى ارسال تقارير الجواسيس عنك الى وزارة الداخلية بحذافيرها ، فأود أن لا تخرج مركزى وأن تخفف من وطأة نشاطك » •

فلما أخبرته بعزمى على العودة الى البصرة أظهر سروره وأستطرد قائلاً :- تفعل خيراً بسفرك اذ انى أخشى عليك من سليمان نظيف والى الموصل الجديد الذى سيصلها بعد أيام • وأتتهت المقابلة بسلام •

أصر محمد باشا الصابونجى على أن يرسو « الكلك » الحاص الذى أوصيت بصنعه أمام داره ، المطة على دجلة ، لكى يجرى التوديع من هناك • وفى ٢٩ أيلول سنة ١٩١٣ حضر خلق كثير الى دار الباشا لتوديعى ، فركبت « الكلك » ميمماً شطر بغداد • وكان من ضمن أمتعتي طاووسان أرسلهما حبيب العبيدى هدية الى السيد طالب • ولما وصلت تكريت لقيت فيها مولود مخلص وابن عمه سليمان الحناج شعبان ، فنزلت فى مزرعتهما « الشاروق » ثم واصلت السفر الى بغداد ، فوصلتها فى ٦ تشرين اول عام ١٩١٣ ، وفضلت النزول فى الاعظمية كى أحتفى عن أنظار البوليس •

دخلت بغداد سراً ، ولبثت يومين لم أخرج فيهما من دار مضيفى ، وصادف ان حضر عيسى طه (١) من بيروت فى طريقه الى البصرة ، فأتتهزت

(١) أخو زوج المؤلف ، وقد كان فى ذلك الوقت صبياً يتلقى علومه فى بيروت •



سعيد الحاج ثابت

أدعى الحاج علي الحصان
وأعمل في خدمة صاحب
المقصورة • فجازت عليهم
الحيلة ، وعندما تحركت بنا
الباخرة في الصباح الباكر
تفتت الصعداء ، فأدخل الخدم
أمتعتي الى المقصورة ، ووصلنا
البصرة في ١٣ تشرين الاول
عام ١٩١٣ •

نعود الآن الى البحث عن
أعمال الجمعية السرية التي
تألفت في الموصل وعن
مصيها •

فرصة وجوده بصحبي
وحجزت المقصورة في الباخرة
«مجيدية» باسمه • وفي الليلة
الثالثة حضر الى دار مضيبي
كل من حمدي الباجه جي ،
ومزاحم الباجه جي ، وابراهيم
حلمي العمر ، وعبد الحميد
الشالجي ، فأوصلوني الى ظهر
الباخرة حيث ودعتهم شاكرًا •
وأشغل عيسى طه المقصورة
بينما فرشت فراشي أمام بابها •
فلما حضر البوليس لتدوين
أسماء المسافرين أفدت بأني



ابراهيم عطار باشي

أسلفتاني حين غادرت الموصل كان أهلها يترقبون قدوم الوالى الجديد سليمان
نظيف الذي اشتهر بشدته • فلما وصل أخذ الأمور بالشدة والحزم • فألقى
الرعب فى قلوب الأهلين • لا سيما وانه أعدم الشيخ عبدالسلام البارزاني وبعض
رفاقه لتمردهم على الحكومة وأبقى جثثهم على المشانق عبرة لمن تحدته نفسه
بالعصيان • وعندما أعلنت الحرب العالمية الاولى ، وأرتكب جمال باشا السفاح
مذبحته المشهورة فى سوريا ، عثر على مكاتبات ورسائل لدى بعض الشهداء
تشير الى وجود جمعيات سرية فى الموصل والبصرة • فكتب الى واليها يطلب
انزال أشد العقاب بالمشتغلين فى تلك الجمعيات • فأجرى سليمان نظيف
التحقيق فى الأمر ، وتبرع الوشاة بتقديم أسماء سعيد ثابت ، وابراهيم عطار
باشى ، وداود الملاح اليه •

وبلغ الخبر الذوات الثلاث فأسرعوا الى محمد باشا الصابونجى
يستجدون به ليتدارك الأمر • فذهب الى الوالى وأستدرجه الى موضوع
اتهامهم ، فدافع عنهم دفاعاً حاراً وأنكر أن يكون لهم أي نشاط سياسي ، وعلل
كثرة ترددهم عليّ أثناء أقامتي فى الموصل بصدافتهم الشخصية لي ، دون أن يكون
لهم أي علم بمبادئ وأرائي فأقتنع الوالى ببراءتهم ونجاهم الله من شر عظيم •

حزب اللامركزية فى مصر

تأسس هذا الحزب فى كانون الثانى ١٩١٣ من بعض رجال الجالية
السورية فى مصر • وهو يدعو الى النظام اللامركزي ضمن المجموعة العثمانية ،
أي أن تتمتع الاقطار الخاضعة للسيطرة العثمانية بنصيب من الاستقلال فى
الشؤون الداخلية ، وأن تشترك كلها فى سياسة خارجية واحدة وجيش موحد •
وكانت هيئة الحزب تضم كلا من :

رفيق العظم رئيساً ، أسكندر عمون نائباً للرئيس ، حقي العظم سكرتيراً ،
محي الدين الخطيب نائباً للسكرتير ، محمد رشيد رضا ، والدكتور شبلي
شميل ، والمحامى سامي جريديني أعضاء •

الجمعية الاصلاحية في بيروت

تأسست في بيروت في عهد وزارة كامل باشا • وهي تدعو الى اللامركزية • وقد أغلقها الاتحاديون بعد عودتهم الى الحكم ، فأعلنت بيروت الاضراب ، وصدرت الصحف بيضاء مجللة أطرافها بالسواد وليس فيها الا أمر الحكومة القاضي بحل الجمعية • فما كان من الحكومة الا أن عطلت الجرائد أيضاً وأحالت محرريها الى القضاء •

المؤتمر العربي في باريس

انعقد هذا المؤتمر في باريس عام ١٩١٣ ، بناء على طلب من الهيئة المنظمة المكونة من عبدالغنى العيسى ، وعونى عبدالهادى ، ومحمد الحمصانى ، وجميل مردم ، وتوفيق فايد • قد نشأت فكرة عقد هذا المؤتمر عقب تعطيل الجمعية الاصلاحية في بيروت ، وأشترك فيه ممثلون عن جميع الاقطار العربية وعن الجاليات العربية في دول أمريكا الشمالية والجنوبية •

وقد أختير توفيق السويدي - الذى كان طالباً في باريس يومذاك - لتمثيل العراق • وحين التأم عقد المؤتمر انهالت برقيات التأييد عليه من كافة الاوساط والهيئات والمنظمات العربية ، ونشرت الصحف الاوربية تنقاً عنه ، فاكسب قوة معنوية كبيرة ، مما أضطر الحكومة العثمانية الى ارسال مدحت شكرى بك السكرتير العام لجمعية الاتحاد والترقي لمفاوضة المؤتمرين والوصول الى اتفاق معهم • وقد عملت الحكومة من جهة أخرى على تحريض أذئابها في سوريا ليرشقوا الى المؤتمر محتجين على أعماله ومنكرين شرعيته في تمثيلهم • وقد سارت أعمال المؤتمر سيراً مرضياً ، والقى توفيق السويدي في إحدى جلساته خطاباً عبر فيه عن رغبة الشعب العراقى في الحكم اللامركزى وعن أمانيه القومية • وختم المؤتمر أعماله بالاتفاق مع ممثل الحكومة على المواد التالية :-

(١) يكون التعليم في البلدان العربية باللغة العربية في الدراستين

الابتدائية والاعدادية ، وبلغت الاكثرية فى الدراسات العالية • على أن يكون
تدريس اللغة التركية اجباريا فى الدراسة الاعدادية •

(٢) يشترط أن يكون جميع رؤساء الدوائر ، عدا الولاة ، ملين باللغة
العربية وأن يجرى تعيينهم محليا فى الولاية • ولا يعين من العاصمة الا القضاة
ورؤساء العدلية الذين يتم تعيينهم بادارة سنية •

(٣) تعهد ادارة الاملاك الموقوفة للجهات الخيرية المحلية الى المجالس
المحلية •

(٤) تعهد الأمور النافعة « الاشغال » الى الادارة المحلية •

(٥) يخدم الجنود العرب فى البلاد القريبة منهم ، أما الذين تقضى
الضرورة بارسالهم الى اليمن والحجاز أو عسير فيرسلون بنسبة عادلة من
جميع مجندى المملكة العثمانية •

(٦) تكون مقررات المجالس المحلية نافذة ضمن صلاحياتها القانونية •
(٧) توافق الحكومة مبدأيا على أن يشترك فى هيئة الوزارة ثلاثة من
العرب على الأقل ، وأن يعين ثلاثة آخرون كمستشارين أو معاونين فى
الوزارات ، وأن يعين عدد من العرب كأعضاء فى مجلس شورى الدولة ،
وفى محكمة التمييز ، ودائرة المشيخة الاسلامية وغيرها •

(٨) يعين من العرب خمسة ولاة وعشرة متصرفين على الاقل •

(٩) تكون نسبة الاعيان العرب اثنين لكل ولاية •

(١٠) يستخدم فى دوائر الحكومة المختلفة مفتشون أخصائون من
الاجانب تحدد صلاحياتهم بتشريع خاص •

(١١) تمنح الحكومة قروضا مالية لسد عجز الميزانيات فى الولايات
العربية ، كما تنفق نصف واردات الاملاك على شؤون المعارف •

(١٢) تجرى المعاملات الرسمية فى كافة البلدان العربية باللغة العربية ،
على أن يتم تنفيذ هذا البند تدريجياً •

وحين انفض المؤتمر وعاد ممثل الحكومة ليلعب حكومته بنصوص الاتفاق الآنف الذكر قبلت بالشطر الاول من المادة الاولى ، وبالمواد الثانية والثالثة والخامسة ، ورفضت الموافقة على المواد الاخرى • ثم صدرت الارادة السنية بتطبيق المواد الاربع المذكورة وعممت على الولايات العربية • • الا أنها بقيت حبرا على ورق •

الجمعية الاصلاحية في البصرة ومهادنة الحكومة

قرر رأى السيد طالب وبعض أقطاب حزبه على حل حزب الحرية والائتلاف وتأسيس جمعية اصلاحية ، على غرار الجمعية الاصلاحية في بيروت ، ترتبط بحزب اللامركزية في مصر ، وتعمل حسب منهاجه ، وتدعو الى تحقيق أهدافه • فوافقهم الحزب على ذلك الرأى ، ولكنه اشترط أن لا يغلق الحزب أبوابه الا بعد مفاوضة الاتحاديين على حل جمعيتهم في البصرة • وجرت المفاوضات ، فأبدى الاتحاديون استعدادهم لحل جمعيتهم ، خاصة بعد أن شل نشاطها وتفرق أعضاؤها وهزلت ميزانيتها • وهكذا تم حل الحزب والجمعية في آن واحد • وبعد أيام تقدم نفس أعضاء الهيئة المؤسسة للحزب بطلب الى الحكومة لتأسيس الجمعية الاصلاحية ، وقدموا منهاجها المتضمن ثمانية وعشرين بنداً ، على أن يكون مركزها دار السيد طالب • فجاءت الموافقة وأعلن افتتاح الجمعية رسمياً في ٢٨ شباط سنة ١٩١٣ ، وسارع أعضاء حزب الحرية المنحل الى الانتماء الى الجمعية الجديدة ، كما انضم اليها أكثر الضباط العرب في البصرة ، وجرت انتخابات الهيئة الادارية فأسفرت عن نتائج مماثلة لما كانت عليه في الحزب السابق ، واحتفظت أنا بمركزى كمعتمد لها • ومنذ أول تشكيلها بدأت الجمعية بمطالبة الحكومة بالنظام اللامركزي مقتفية آثار الحزب اللامركزي في مصر •

وبأغلاق جمعية الاتحاد والترقي في البصرة تضاعلت سطوة الحكومة

فيها وقوى نفوذ السيد طالب ، حتى أصبح الولاة يملقونه والقواد يطلبون رضاه • فكرت الحكومة في أمر هذا الخصم ملياً ، وخيرت نفسها بين التظاهر

} rise of power
at
S.T.

بعدائه أو أخفاء هذا العداء وأبداء المسألة ، ففضلت الحل الثاني ، لانه لم يكن من السهل على الحكومة التغلب على السيد طالب وهو في البصرة حصنه الحصين • لذلك كتب طلعت بك وزير الداخلية الى والى البصرة ووالى بغداد يبلغهما رغبة الحكومة فى استمالة السيد طالب الى جانبها بمختلف الوسائل الممكنة • فطلب والى بغداد الى رشيد الحوجة رئيس الاركان فى بغداد أن يكتب الى صديقه طالب فى هذا الموضوع • فكتب رشيد الكتاب وسلمه الى والى ليطلع عليه ، وأرسل فى ذات الوقت رسالة سرية الى السيد طالب يخبره بأنه ما كتب كتابه الاول الا استجابة لالحاح والى •

وصل الكتابان الى السيد طالب فى آن واحد فلم يأبه لدعوة الحكومة • أما والى البصرة بالوكالة وقائد حاميتها عزت باشا الكركوكلى ، الذى كان صديقاً حميماً للسيد طالب ، فقد أخبر الوزارة بفشل مساعيه لحمل السيد طالب على مصالحة الحكومة ، فأعتبر طلعت بك هذا الفشل تواطؤاً بين عزت باشا والسيد طالب ، وأعتقد أن والى نفسه يدين بالمبادئ الجديدة ويؤمن بالنظام اللامركزى ، فغضب عليه ، وأمر بنقله ، وبتزليل رتبته ونقل جميع الضباط العراقيين فى فرقته ومعاقبتهم ، وسوق الجنود البصريين الى جهات نائية انتقاماً منهم •

أرسلت الحكومة الى البصرة والياً جديداً هو سليمان شفيق باشا ، يصحبه فوجان من الجنود والضباط الاتراك ، لكي يحلوا محل حامية البصرة المغضوب عليها • وتوجه والى وجيشه من استانبول على ظهر باخرة كبيرة • فأدرك السيد طالب الخطر المحدق بالجنود والضباط العراقيين جزاء ولائهم له ، فرأى أن يعمل على حمايتهم ويقبل بمفاوضة الحكومة • فجرت المراسلات بينه وبين وزيرى الداخلية والحربية طلعت وأنور ، وعرض هو شروطه الاربعة للمهادنة والصلح وهى :-

أولاً - إعادة رتبة عزت باشا اليه •

ثانياً - أن يقسم الوزراء المذكوران بشرف الدولة الا يمسا بسوء

الضباط العراقيين في البصرة ، على أن يكون للحكومة الخيار في نقلهم أو عدمه •
ثالثاً - يبقى الجنود البصريون في البصرة •

رابعاً - أن يعد الوزيران وعداً صادقاً بأجراء الاصلاحات التي تطالب بها الجمعية الاصلاحية في القطر العراقي •
وافقت الحكومة على هذه الشروط ووعدت بتنفيذ الثلاثة الاولى فوراً •
وبتنفيذ الشرط الرابع تدريجياً • وعرضت بدورها على السيد طالب شرطين -
أولهما أن يتوسط بينها وبين ابن السعود لتسوية مشكلة الاحساء • وثانيهما
أن يتولى تأليف لجنة لاعانة الاسطول العثماني • فوافق عليهما السيد طالب
ونشر البيان التالي في الصحف :-

« أعلن مع كمال الفخر الى عموم أهالي الولاية والمملكات أننا قد اتفقنا
للاشتراك في الجهود ، كأننا روح واحدة ، لأجل اعلاء شأن حكومتنا السنية
التي قدرت صداقتنا رسمياً ، فلم يبق بيننا وبين الحكومة السنية خلاف بأى
صورة كانت ، وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالاً قطعياً وصرنا كلنا كتلة
واحدة تعمل على سعادة دولتنا الأبدية وتسعى الى محافظة وحدتنا العثمانية
بكل قوائنا وحتى آخر فرد منا • وللميان حررت الكيفية وأعلن ذلك في ٧
ربيع الاول سنة ١٣٣٢ ، ٣ شباط سنة ١٩١٣ •

نقيب زادة السيد طالب »

على أثر نشر هذا البيان أرسل كل من طلعت بك وأنور باشا رسائل
شكر للسيد طالب ، وجهازاً بشيفرة خاصة كى يستطيع الاتصال بهما رأساً
بدون وساطة الوالى • وقد برت الحكومة بوعدا بتنفيذ الشروط الثلاثة
الاولى ، ولكنها أخذت تماطل في اجراء الاصلاحات المنشودة ، مما اضطر
السيد طالب الى الاتصال بصورة مستمرة بالوزيرين المذكورين بواسطة
الشيفرة للمطالبة بتلك الاصلاحات • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان
الحكومة نقلت الضباط العراقيين الكبار أمثال رشيد الحوجة ، وياسين الهاشمي ،

وعبد اللطيف الفلاحى ، وغيرهم الى أمانة نائية بقصد أضعاف الحركة القومية النامية فى العراق •

وصلت الباخرة التى تقل الوالى الجديد سليمان شفيق باشا وجنوده الى المحمرة ، فأستقبله فيها الشيخ خزعل أمير المحمرة وعربستان ، والسيد طالب ، وبعض أعيان البصرة ، وكان بعضهم يرتدى العباءة فأظهر الوالى اعجابه بها ••• ولما قدم اليه الشيخ خزعل عباءة قرح بها ، فلبسها ونزل بها الى رصيف العشار ، فأطلق عليه الأهلون أسم « الوالى أبو العباية » •••

وقد اتخذ فى فترة ولايته على البصرة سياسة اللطف واللين ، وتودد الى السيد طالب حتى توثقت بينهما أواصر الصداقة ، حتى أنه حين توفى شيخ الزبير تقدم بعض أتباع عجمي السعدون للمطالبة بالمشيخة ، فطلب اليه السيد طالب أن ينصب الشيخ ابراهيم عبدالله الابراهيم شيخا على الزبير فأجابه الى طلبه •

كلمة حق لا بد منها

قد يتساءل القاريء الكريم عن سر تلك القوة التى كان السيد طالب يتمتع بها ، والأسباب التى أدت الى سطوته ونفوذه ، بالرغم من قوة الحكومة العثمانية ويطشها بأعدائها • وأني أجيبه ، عن علم أكيد وصلة شخصية وثيقة ، بأن السيد طالب كان من أدهى الرجال وأشدهم بأسا ، وكان لا يتورع عن الاقدام على أخطر المجازفات فى سبيل تحقيق غاياته ، وكان يلتزم أعوانه ويحميهم ، ويطش بخصومه دون ما تساهل • كان كريما مسرفا ، فلا عجب أن يتعلق به رجاله الاشداء ويفقدونه بأرواحهم ، وكان وطنيا صلبا يقارع ظلم الحكومة العثمانية بلا خوف أو وجل ، ويرفض معاونة الانجليز بأبأه وشمه ، وله فى ذلك مواقف رائعة • وبقيت صفحته الوطنية ناصعة البياض حتى سنة ١٩٢٠ م ، أي بعد عودته من منفاه الاول ، حين لمست منه تساهلا مع الانجليز ، فكان ذلك ايدانا بأنقطاع المودة بيننا ، كما سيأتى ذكره فى أبحاث قادمة •

أما من أين كان ينفق كل تلك المبالغ الطائلة على مناوراته السياسية ،

وكيف كان يعيل ذلك الجيش من الحراس والخدم ، فاني أجيب على ذلك ، عن اطلاع تام ، بأن وارداته من نخيله كانت كبيرة ، وكان يتقاضى من أبيه راتبا شهريا قدره سبعون ليرة ، وراتبا مماثلا من الشيخ مبارك الصباح ، وخمسون ليرة من الشيخ خزعل أمير المحمرة ، لقاء حمايته لمصالحهما الكثيرة وأملاكهما الواسعة فى البصرة . ولم يتوان الاميران المذكوران عن امداده بالسلاح كلما احتاج اليه . وكان راتب النيابة يومذاك خمسين ليرة . أما واردات الحزب والجمعية من بعده فجسيمة ، اذ كانت مئات الليرات تنهال شهريا من الاعضاء والمؤازرين الاغنياء . ولم يكن طالب ليستأجر رجاله وحراسه ، بل كانوا كلهم من فلاحيه وعبيده . أما التهم التى يزعمها بعضهم عن اتصال السيد طالب بالانجليز وتقديمهم المعونة المالية اليه ، فليس لها نصيب من الصحة البتة . أقول هذا بدون أى تأثير أو دافع خاص ، فان الرجل قد لاقى ربه منذ سنين . وأنى والله لو كنت قد شملت فيه رائحة التعاون مع الانجليز لنفرت منه نفور الصحيح من الاجرب ، لذا فاني أبريء ساحة السيد طالب من كل تهمة أو خيانة ، وأسوق شهادتى هذه خدمة للتاريخ .

ابن السعود يحتل الاحساء

ذكرنا فيما مضى أن الاحساء وملحقاتها كانت قد أدخلت تحت سيادة الدولة العثمانية الفعلية فى زمن مدحت باشا ، وبقيت كمصرفية تابعة لولاية البصرة ترسل اليها الحكومة المتصرفين من استانبول . وفى الوقت الذى كانت الفوضى تسود الدولة العثمانية بأسرها ، كانت هذه الفوضى بالغة أشدها فى تلك المنطقة النائية ، حيث لا رقيب على المتصرفين ولا رادع للجندرمة . فلم يطق الاعراب تعسف الموظفين ، ولم يتحملوا الضرائب الثقيلة التى ترهقهم الحكومة بجبايتها ، لذلك ارسلوا الى ابن السعود يطلبون منه انقاذهم من تلك الحالة السيئة . وفى ٥ مايس عام ١٩١٣ احتل ابن السعود بلاد الاحساء ، وأجلى عنها الجيوش العثمانية وجميع الموظفين ، وهيا لهم باخرة أقلتهم الى البصرة .

جرى هذا الاحتلال فى نفس الشهر الذى قتل فيه فريد بك ، فزعمت

حكومة استانبول أن مقتل القائد التركي كان تمهيدا مدبرا من الجمعية
الاصلاحية في البصرة لاحتلال الاحساء من قبل ابن السعود • وفي الحقيقة
ان هذا الزعم عار عن الصحة ، اذ لم يكن أحد من البصريين ليعلم بما كان
سيحدث في الاحساء •

عزمت حكومة استانبول على ارسال حملة قوية في قافلة من البواخر
لاسترجاع الاحساء • وهنا تدخل الانجليز ، فأبلغوا الحكومة العثمانية
معارضتهم لهذه الفكرة ، وذلك رغبة منهم في صيانة السلم في شواطئ البحر
العربي • • وحفظاً لمصالحهم الخطيرة في الخليج • • وهكذا أغلق على الحكومة ،
فقد رعت بوسيلة أخرى ، وهي أن التمت من السيد طالب أن يتوسط بينها
وبين ابن السعود لتسوية النزاع تسوية سلمية ، نظرا للصداقة المتينة التي
تربطهما ببعض •

قدم ابن السعود ، اجابة لطلب السيد طالب الى مكان بين الكويت
والزبير يدعى « الصيحية » ، وتوجه السيد طالب الى المكان المذكور على
رأس وفد قوامه : سامي بك متصرف الاحساء السابق ، والمقدم عمر فوزي
بك ، وأحمد الصانع ، وعبد اللطيف المنديل •

وبنتيجة المفاوضات وافق ابن السعود على أن تسميه الحكومة العثمانية
واليا على الاحساء لمدة عشر سنوات قابلة للتجديد والتمديد • وعاد الوفد الى
البصرة يحمل ذلك الفوز الوهمي وتلك المعاهدة الواهية • فقبلتها حكومة
استانبول على مضض ، وأنعمت على كل من أحمد الصانع وعبد اللطيف
المنديل بلقب الباشوية استجابة لرغبة السيد طالب • وهكذا أسدل الستار
على قصة الاحساء القطر العربي الذي ما زال حتى اليوم جزءا من المملكة
العربية السعودية •

جمعية العهد السرية

اذا كان مدحت باشا أبا الاحرار الاتراك ، فان عزيز علي المصري يعد
يحق أبا الاحرار العرب • لقد آمن منذ كان صبيا في المدرسة الحربية

بحق أمته في الحياة ، وأخذ يدعو لنصرة هذا الحق ، وما زال يدعو له بعد تخرجه وخلال تقلبه في المناصب العسكرية ، دون أن يعرف للكل معنى • وهو كغيره من الأحرار العرب في ذلك الوقت يرى في الحكم اللامركزي خير علاج للوضع • ولم يكن يرى بأسا من الأبقاء على الدولة العثمانية كمجموعة قوية تستطيع الدفاع عن نفسها أزاء أطماع الدول الاستعمارية الأوروبية ، على شرط أن تتمتع الشعوب المنظمة تحت لوائها بالاستقلال الداخلي وأن يشملها الإصلاح التام • ولما أشد التوتر بين الترك والعرب أسس عزيز على في ٢٨ تشرين الأول عام ١٩١٣ جمعية العهد السرية ، وأملى منهاجها على طه الهاشمي ، وهو يتلخص فيما يأتي :-

« غاية الجمعية السعي وراء الاستقلال الداخلي للبلاد العربية ، على أن تكون متحدة مع حكومة استانبول على غرار اتحاد النمسا والمجر • وان الجمعية ترى ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بيد آل عثمان • وتهتم الجمعية بأمر سلامة استانبول من مطامع الدول الأجنبية أهنأما خاصا ، لا اعتقادها أن استانبول رأس الشرق ، لا يمكنه أن يعيش بدونها • وعلى رجال العهد » أن يذلوا قصارى جهدهم في انماء الحاصل المحمود وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة ، لأن الأمة لا تستطيع الاحتفاظ بكيانها السياسي والقومي مالم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة • ويجب على الأمة العربية أن تسعى للحصول على ما يؤهلها لأن تكون القوة الاحتياطية الرئيسية لحسن الشرق أمام الاستعمار الغربي »

أنتمى الى هذه الجمعية في بادىء الأمر من الضباط السوريين :-

سليم الجزائري ، عونى القضماني ، محمد اسماعيل ، مصطفى وصفى ، يحيى كاظم أبو الخير ، محي الدين الحبان ، علي الشاشيني ، وأمين لطفى الحافظ •

ومن الضباط العراقيين :- ياسين الهاشمي ، نوري السعيد ، علي جودت ، جميل المدفعي ، مولود مخلص ، عبدالله الدليمي ، تحسين علي ،

محمد حلمي الحاج ذياب ، علي رضا الغزالي ، موفق كامل ، وعبد الغفور
البديري •

ثم أُنتمى إليها الكثيرون من النواب والطلاب والاطباء العرب • وحين
قدمت استانبول ، مبعوثا عن البصرة ، انتميت الى الجمعية وعملت فيها ، كما
سيأتى ذكره في البحث القادم •



مجلس المبعوثان

الانتخابات النيابية

سبق أن أشرنا الى الانتخابات النيابية التي جرت عام ١٩١٢ الى فوزى
بنيابة العمارة • ولما كانت نتائج تلك الانتخابات على غير ما يهوى الاتحاديون
فقد لجأوا الى تعطيل المجلس الجديد مدة سنة ونصف ، ثم اعتبروا الانتخابات
ملغاة ، وأوعزوا باجراء انتخابات جديدة تضمن لهم أكثرية نيابية ساحقة •

أعلنت نتائج الانتخابات الجديدة في ٤ كانون ثانى سنة ١٩١٤ ،
فأسفرت عن فوز مرشحي الحكومة فى سائر الوية العراق ، عدا البصرة
الولاية الوحيدة التي تقلص فيها ظل الحكومة وتضاءل نفوذ جمعية الاتحاد ،
ففاز بالنيابة فيها خصوم الحكومة من أعضاء الجمعية الاصلاحية • وكانت
النتائج كما يلى :-

بغداد

توفيق الخالدى ، فؤاد الدفترى ، جميل الزهاوى ، مراد سليمان ،
شوكت باشا ، ساسون حسيقل •

البصرة

طالب النقيب ، الحاج عيسى روحى ، عبدالله صائب ، سليمان فيضى ،
عبدالرزاق النعمة ، أحمد كحالة •

الموصل

صالح السعدى ، محمد على فاضل ، ابراهيم فوزى ، داود يوسفانى •

الديوانية

على حيدر ، مدحت باشا ، خالد سليمان ، الدكتور سليمان ، فؤاد
الجيدهجى •

كركوك

محمد على قيردار ، نانظم نفطجى ، عبدالله صافى •

العمارة

شكرى أفندى ، عبدالمجيد الشاوى ، عبدالكريم السعدون •

المنتفك

قریش أفندی ، معروف الرصافی ، عبدالمحسن الشعدون •

السليمانية

حكمت بابان ، الحاج سعيد •

كربلاء

فوزی بك ، السيد عبدالمهدی •

الرحلة الثانية الى استانبول

فی عصر الخامس عشر من شباط ١٩١٤ م غص قصر قاسم باشا الخضيرى - المثل على شط العرب - بجمهور من أعيان البلد والموظفين ، يتقدمهم والى البصرة والسيد طالب ، وقد حضروا لتوديع نوابهم • فألقيت خطابا سجلت فيه شكرنا على تلك الحفاوة ، ثم أستعرضنا حرس الشرف فصدحت موسيقى الجيش بالتشيد الوطنى ، وأقلتنا الزوارق الى الباخرة « دامرة » الراسية فى مياه الشط • كنا أربعة ، أنا والحاج عيسى روحى ، وعبدالله صائب ، وعبدالرزاق النعمة • أما السيد طالب فقد تخلف فى البصرة بأجازة مرضية خشية أن ينكل به الاتحاديون فى اللحظة التى يصل فيها استانبول ، اذ أنهم كانوا ، بالرغم من صلحهم الاخير ، يضمرون له الشر • وأما أحمد نعيم كحالة فكان قد سافر الى استانبول مع عائلته قبلنا بأيام •

تحركت بنا الباخرة ميممة شطر الهند ، فلما وصلت مسقط أُلقت مراسيها هناك ، فصعد الينا منها عبدالله النعمة وعبدالقادر الزواوى مرحبين • ثم أفلعت الباخرة واستأنفت سيرها فوصلت كراجى فى ٢٠ شباط ١٩١٤ • وبعد تجوال قصير فى البلدة نقلنا أمتعتنا الى الباخرة السريعة « لنكة » فأقلتنا الى بومبى • وعلى رصيف ميناء بومبى كان فى استقبالنا عبدالله الفارس وأولاده من أهل الزبير ، وجارالله الطائب وبعض أقربائه وأصحابه من أهل الموصل ، وكلا العائلتين معروفتان بتجارة الخيل بين العراق والهند • أصر كل من الفريقين على أن نزل فى ضيافته ، وبعد أخذ ورد توصلنا الى قسمة عادلة ، وهى أن أكون أنا من نصيب آل طالب ، وأن يكون زملائي الثلاثة من نصيب آل

فارس • وفى خلال الايام العشرة التى قضيتها فى بومبى لقيت من آل طالب ومن عبيدهم الحاج على منتهى الحفاوة والاكرام • فقد وضعوا تحت تصرفى عربية أنيقة كنت أتجول بواسطتها فى ضواحي المدينة الجميلة • وصحبهم يوماً الى سباق الخيل فوجدت فيه متعة شيقة •

وفى صباح ٢ مارت استقلنا الباخرة « مالوجا » قاصدين السويس • وكانت هذه الباخرة على جانب عظيم من الاناقة والضخامة ، وهى ذات حمولة اثنتى عشر الف طن ، وفيها صالات للطعام وللرقص والتدخين والمطالعة ، وكنا نقرأ فى جريدة الباخرة اليومية آخر أخبار العالم منقولة باللاسلكى • وعندما رست الباخرة بعدن استقبلنا فيها محمد آل حسن علي من تجار عدن الكبار ، فرافقناه الى داره فى المدينة الداخلية حيث سربنا القهوة العربية التى كنا فى أشد الشوق اليها • ثم راحت الباخرة تشق عباب البحر حتى وصلنا السويس فى صباح ١٠ مارت ، فأنزلنا أمتعتنا وأستقلنا القطار الى القاهرة فوصلناها فى منتصف ليلة ١١ مارت ١٩١٤ م ، ونزلنا فى فندق « أدين بالاس » •

القاهرة عام ١٩١٤

والقاهرة مدينة كبيرة مكتظة بالسكان ، يخترقها النيل فيضفى عليها روعة وجمالاً ، وتشمخ على جانب منها اهرامات الفراعنة الهائلة عند سفح جبل « المقطم » ، وفى قلبها يربض الأزهر الشريف المركز الاسلامى العظيم ، وتتناثر المتاحف والابنية التاريخية بين أحيائها فتجذب اليها قلوب السواح والزوار ، وتبسط فى ضواحيها حدائق غناء كحديقة الحيوان المشهورة وغيرها • والمكتبات العامة ، والاسواق المليئة بشتى أصناف البضاعة ، ومخازن الآثار والمتحف ، وقصور الحاكمين ، وما خلف أسماعيل من روائع العمارة والفنون ، كل ذلك يستهوى المرء ويستحوذ على قلبه فلا يتمالك من التعلق بهذه المدينة العربية الخالدة •

وفى صباح اليوم الثانى من وصولنا زارنا فى الفندق كل من محمد

رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، وعبدالمسيح أنطاكي صاحب جريدة العمران ،
والسيد حسن خالد أبو الهدى الصيادي رئيس ديوان الحديوي الذي أقام لنا
مأدبة غداء في ذلك اليوم ثم وعدنا بأن يهيئ لنا مقابلة للحديوي عباس حلمي .
وفي صباح يوم ١٣ مارت جرت مقابلتنا للحديوي ، وتناول البحث الحالة
الراهنه في البلاد العربية وما وصلت اليه من الانحطاط والتدهور ، وقال
الحديوي بهذه المناسبة أنه يفخر بأن واردات مصر أصبحت في زمنه ضعف
ما كانت عليه في زمن سلفه ، وأن هذه الزيادة ستنتفيق في سبيل إصلاح البلاد
وتقدمها ونشر العلوم بين أبنائها . ثم زرنا الأمير محمد علي باشا والأمير
عبدالعزیز باشا ، وتداولنا وإياهما في الشؤون العربية العامة .

قمنا بعد ذلك بسلسلة زيارات لاعلام السياسة والأدب
أمثال أسماعيل باشا أباظة ، وسيف الدين بك ، وأحمد لطفى بك المحامى ،
وجرجى زيدان ، والشيخ محمد مهدي ، ومحب الدين الخطيب وغيرهم .

وأجتمعت برفيق بك العظم رئيس الجمعية اللامركزية وتباحثنا طويلا
فرايت فيه سياسيا عظيما مخلصا للقضية العربية ، حتى أن الاتحاديين عقب
انتهاء المؤتمر العربى في باريس أبرقوا اليه يعرضون عليه احدى الوزارات ،
فأجاب بما يأتى :- « أشكركم وأعتذر لأنني طالب إصلاح لا طالب وزارة » .

وفي صباح الرابع عشر من شهر مارت أخذنا القطار الصاعد الى
الاسكندرية فوصلناها بعد ثلاث ساعات ، وهناك كانت الباخرة « تيورى »
تستعد للابحار الى بيروت فركبناها . وصلنا بيروت في صباح ١٦ منه ، ووجدنا
في أستقبالنا لفيضا من أصدقائنا والطلاب البصريين الذين يتلقون علومهم
في معاهدها .

بلغت اقامتنا في بيروت ستة أيام ، تعرفنا خلالها على الرجال العاملين في
الحقل القومى . ثم غادرنا بيروت على ظهر الباخرة « عباسية » ووجهتنا
استانبول . وشاءت الصدفة أن تجمعننى في هذه المرحلة بعاطف بك قائد
الجندرية السابق في البصرة وأحد أعوان فريد بك الذى جاء ذكره في فصل

سابق • وكان على ظهر الباخرة أيضا محمد علي بك أحد أقطاب جمعية الاتحاد ، وعزمي بك والي أنقرا السابق •

أُلقت الباخرة مراسيها في استانبول في صباح ٢٦ مارت ١٩١٤ ، فحللنا في أوتيل « شاهين باشا » •

أســتانبول عام ١٩١٤

ما أن ذاع نبأ وصولنا في الاوساط العربية في المدينة حتى تهافت الاصدقاء على زيارتنا ، وكانوا بين نائب و كاتب وضابط وطالب من المشتغلين بالقضية العربية • وفي أول مساء في استانبول جاءني نوري السعيد ، زميل الدراسة ، وأمتدت بنا السهرة في أحاديث طلية ، فروى لي دخائل السياسة في استانبول ، ورويت له الحوادث الجسام في البصرة والعراق • وأمضى ليلته من بعد ذلك في غرفتي بالفندق • وفي مساء اليوم التالي أقام مأدبة عشاء في فندق « طوقاتيلان » أحتفاء بي دعى إليها نواب البصرة الآخرين وأسعد داغر •

أستأجرت لسكنائ دارا مؤثثة تتألف من طابقين في بناية بمحلة « بنغالتي » مقابل المدرسة الحربية ، وكان يقيم في الطابق الثالث أصحاب البناية ، وهم شاب صيدلي وأخته وأمه •

وكان في البيت غرفة أستقبال رحبة أتخذها العاملون في القضية العربية ملتقى لهم ومكانا آمينا لاجتماعاتهم ، حتى أصبح بيتي بعد أيام أشبه بناد صغير • وكان من جملة غرفه غرفة إضافية لمن يرغب في المبيت عندي من الاصدقاء أو من طلاب المدارس العالية ، حتى اعتاد بعضهم أن يقضى فيها ليالي الجمع •

كان طلاب المدرسة الحربية يفدون الى داري صباح كل يوم جمعة ، فيروون لي ما قاموا به من الجهود في بث الدعوة العربية ، وكنت أخص لهم الحوادث التي تجرى في البرلمان والتي لا تشرها الصحف • وفي خلال الاسابيع القلائل الاولى تم اتصالي بكافة العاملين بالقضية العربية في استانبول •

«وقد جادت ذاكرتي الضعيفة بأسماء القسم الأعظم منهم ، وليعذرني من فاتني
تذكر أسمه :-

نورى السعيد ، أمين العمرى ، أسعد داغر ، عبد الحميد الزهراوى
« عضو مجلس الاعيان » ، عبد الكريم قاسم الخليل « رئيس المنتدى الأدبي » ،
سليم الجزائرى ، أحمد عزت الاعظمى ، عادل أرسلان ، ناجى شوكت ،
سامى شوكت ، ثابت عبد النور ، محمد على مصطفى المهندس ، عاصم الجلبى ،
رياض الصلح ، عبد الرزاق الجراح ، توفيق الدملاجى ، وياسين العريبي •
ومن طلاب الكلية الطبية الذين كانوا على وشك التخرج :-

هاشم الوترى ، فائق شاكر ، اسماعيل الصفار ، جلال الغزاوى ، يحيى
نزّهت ، صائب شوكت ، داود الديبونى ، وعبد الله الدملاجى •
ومن طلاب المدرسة الحربية :-

ابراهيم الراوى ، جميل الراوى ، محمود الشهبانى ، أنطوان لوقا ،
راجى العسكرى ، داود صبرى ، محمد حلمى ، ابراهيم أدهم ، على رضا
الغزالى ، وعيسى الوترى •

وفى تلك الايام قدم استايبول بعض المتخرجين من مدرسة الحقوق فى
بغداد ، بعد استقالتهم من وظائفهم ، لكي ينتموا الى الدورة التطبيقية التى
أزمنت الحكومة عن أفئادها وأعلنت أن مدتها ستة أشهر ، يعين بعدها
المتخرجون فى وظائف قضائية مرموقة ، وكان هؤلاء :-

حسن رضا ، عبدالعزيز الحيايط ، محمد حسين البزركان ، حمدى
صدر الدين ، قاسم ثروت ، عبد الوهاب سناكر ، ناجى الزهاوى ، كمال
الشامى ، ومحمود جلال •

وبعد وصولهم الى استايبول غيرت الحكومة وجهة نظرها ، فجعلت مدة
التطبيق سنة واحدة بدل ستة أشهر ، وأشترطت أن لا يقبل فى الدورة الا
من اجتاز امتحانا نظريا وعمليا ، وحددت كانون الثانى موعدا للافتتاح •

فأسقط في أيديهم وتشبثوا للوصول الى حل عادل لمشكلتهم فلم يوفقوا ، وعادوا
أدراجهم الى بغداد والحياة ملء نفوسهم • وقيل عودتهم زارني بعضهم وشكا
لي الحال ، فوعدتهم ببحث الموضوع في مجلس المبعوثان في الوقت المناسب •
وقد وقيت بوعدى حين طرحت ميزانية العدلية على بساط البحث ، فهاجمت وزارة
العدلية وأتهمتها بالسير على سياسة أرتجالية تؤدي دائما الى الحاق الضرر
بالآخرين •

مقابلة السلطان وبعض الوزراء الاتحادين

بلغنا أن العادة الجارية تقضى بأن يزور النواب الجدد الوزراء في مكاتبهم ،
لذا فقد أجمعنا ، نحن نواب البصرة الخمسة لأداء هذه الزيارة • بدأنا أولا
بطلعت بك وزير الداخلية ، فاستقبلنا استقبالا طاهره تودد واحترام وباطنه
مقت وعدم أرتياح ، وكنا نقرأ في عينيه حقيقة شعوره ، فكانت عيناه تتقلان
شزرا بيننا • ثم زرنا جمال باشا « السفاح » وزير البحرية فاستقبلنا استقبالا
شبه ودي ، وعندما تناولنا بحث التدهور في حالة البصرة العمرانية والثقافية
قال ان البصرة محتاجة الى وال يحمل السوط بيده • فأجبته :

— أوكد لك يا حضرة الباشا ان البصرة انما تحتاج الى وال عاقل عادل •
فأردف قائلا :

لا أوافقك على ذلك فان البصرة اليوم لم تعد ولاية عثمانية بسبب تمرد
أهلها على الدولة •

وزرنا بعد ذلك أنور باشا وزير الحرية فلم نجده •

حل يوم ١٣ نيسان وهو يوم عيد جلوس السلطان محمد رشاد على
العرش ، فدعى النواب والاعيان وكبار القادة والموظفين الى تهنئته في قصر
« طولة باغجة » • كان القصر على جانب كبير من الروعة والفخامة ، وقد هيئت
فيه غرف كثيرة لاستقبال المهثين • فاتحينا — نحن نواب البصرة — زاوية في
أحدى الغرف ، وتوافد علينا بعض النواب والاعيان العرب حتى أصبحت دائرة
جلوسنا كبيرة تستلف الانظار • وصادف ان كان في ركن آخر من الغرفة كامل

باشا والغازى المشير أحمد مختار باشا ، وكلاهما من رؤساء الوزراء السابقين ، فاستفهما عن المجتمعين فى دائرتنا ، فأجاب بعض النواب بأنها دائرة نواب البصرة وأصدقائهم • فأبديا رغبتهما فى التعرف علينا وأرسلنا فى طلبنا ، فتقدمنا للسلام عليهما وشاركناهما مجلسهما • وهنا وجه كامل باشا سؤالا عن الحالة فى البصرة • فأجبناهم بأنها تشكو الإهمال ، والجهل ، والضيم • فقال مستغربا : عجيب أنكم تشكون من غيركم ، وغيركم يشكو منكم • فأجبناه : اننا لم نك لنشككي لو لم يكن فى الوضع ما يبعث على التذمر والشكوى ، وربما كانت صرخاتنا المتوالية فى طلب الإصلاح قد سببت انزعاج المسؤولين • فأبتسم قائلا : - نعم قد يكون ذلك صحيحا لان الصرخات العالية تزعج الآخرين دائما !...

وفى تمام الساعة العاشرة دعينا الى قاعة الاستقبال الكبرى • وأنظم الحاضرون فى صفين طويلين ثم فتحت الابواب فى صدر القاعة فدخل منها السلطان وأعلى المنصة ، وتقدم منه الامير سعيد باشا رئيس الوزراء والقى خطابا مختصرا هنأ فيه ، فأجابه السلطان بكلمة شكر وجهها الى الحاضرين وللشعب العثمانى ، ثم خرج فأنفض الاجتماع •

محاولة اغتيال الخديوى عباس حلمي

كان عباس حلمي خديوى مصر فى وضع لا يحسد عليه • فالانجليز كانوا يرون فيه مشجعا ومعاضدا للاحزاب الوطنية المعارضة للاحتلال ، مثل الحزب الوطنى بزعامة كامل باشا ، وحزب الإصلاح برئاسة الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » • وقد عبر المندوب السامى فى ذلك الحين اللورد كتشنر عن عدم أرتياح حكومته لميول الخديوى فى عدة مناسبات •

وكانت الحكومة العثمانية هى الاخرى غير راضية عنه لاعتقاده بأن أحلال اللغة العربية فى الدوائر الرسمية فى مصر وأقصاء بعض الموظفين الاثراك عن مناصبهم تم بايعاز منه • أضف الى ذلك عطف الخديوى على حزب اللامركزية الذى يناوئ الحكومة العثمانية ، والعداء المستحكم بينه وبين

ابن عمه سعيد حليم باشا رئيس الوزارة في استانبول ، مما ادى الى توسع
شقة الخلاف بين الحديوى والحكومة العثمانية .

وصل الحديوى استانبول بدعوة من السلطان محمد رشاد وحل في
ضيافته . وفي صباح يوم ٢٥ تموز سنة ١٩١٤ استقل احدى العربات
السلطانية وذهب لزيارة طلعت بك وزير الداخلية . وعند خروجه من الباب
العالى ، بعد انتهاء الزيارة ، هاجمه طالب مصرى يدعى محمود مظهر وأطلق
عليه سبع رصاصات ، أصابته ثلاثة منها فخدشت أحداها خده ، وأستقرت
الثانية في ذراعه ، وأطارت الثالثة جزءا من لسانه ، وأصابت الرابعة صهره
جلال الدين باشا في فخذه ، وجرح بعض المارة . أما الجاني فقد لقي حتفه على
يد حراس القصر .

عندما دوت الطلقات كنت في احدى المكتبات القريبة جدا من مكان
الحادث ، فلما بلغت المكان كانت عربة الحديوى قد توجهت الى المستشفى وكان
الشاب المصرى ملقى على الارض مضرجا بدمائه .

وقد حامت الشبهة حول الحكومة ، وأتهمت بأنها ذات يد في المؤامرة ،
بدليل أن حوذى العربة لم يسرع عند وقوع الحادث بل أوقفها حتى أتم
الجاني فعلته ، وأن الحراس الواقفين على الباب لم يسرعوا للدفاع عن الحديوى
كأنهم بذلك أفسحوا المجال للطالب المصرى لانجاز مهمته ، ثم قتلوه بقصد
أخفاء معالم المؤامرة .

ادخل الحديوى المستشفى ، وأعلنت الحكومة ان حادث الاعتداء عليه
كان شخصا وليس سياسيا ، وتمنت له الشفاء . وبعد أن تماثل الحديوى
للشفاء من جروحه ورغب في العودة الى مصر وكانت نيران الحرب العالمية قد
اندلعت ، فمانع الانجليز في عودته ونصبوا حسين كامل على العرش بدلا منه .
وهكذا فقد الحديوى عرشه . . . ورسخت أقدام الانجليز في مصر .

البيك ذو اللحية الطريفة

كان الشيوخ ، وحتى بعض الكهول ، في ذلك الزمن - وفي البصرة

بصورة خاصة - يرسلون لحاهم للمهية والوقار • وكنت أنا دون الثلاثين من العمر أحلق ذقني كما يفعل الشباب ، ولكني بحكم اشتغالي في السياسة وترددى على مجالس الشيوخ كنت أشعر أحيانا بالحاجة الى اطالتها •

وحدث يوما ان كنت فى مجلس أناح الحاضرون فيه ، وكلهم من ذوي اللحي ، باللائمة على الشباب الذين يحلقون ذقونهم كل يوم دون مراعاة للتقاليد الموروثة !! •• ومن يومها عنيت بأرسال لحيه صغيرة ••

وفى أحد عصارى الربيع كنت مع عبدالرزاق النعمة وعبدالله صائب ، نائبي البصرة ، تريض فى حدائق قاضي كوى فى استانبول وننعم بمنظر البحر الخلابة ، فاذا بثلاث فتيات مبرقعات بالبراقع الحريرية الشفافة يقبلن فى أتجاهنا • وشعرت أن أحدهن أطالت النظر الى ، فلما أقتربن من موضعنا قالت لزميلتيها :- أترون كم هي طريفة لحيه هذا اليك الشاب ؟ •• فضحكنا وشاركتها هي فى القهقهة • أما أنا فقد التفت الى زميلي قائلا بالتركية :-

يكفينى ما سمعت اليوم وسوف أتخلص من لحتى الليلة والى الأبد !! •• فلما سمعت الحسنة قولى أردفت قائلة لرفيقتيها :

- لشد ما أنا مسرورة أذ خلصته من لحيه لا تناسبه ••

وفى تلك الليلة رويت الحادث لبعض الاخوان المجتمعين فى دارى ، وأخبرتهم بعزمى على حلاقة ذقنى فى الصباح اكراما للآنسة المجهولة ، وكان بين الحاضرين نورى السعيد فأصر الا أن يأتينى بآلة الحلاقة لتكون تذكارا منه لهذا الحادث الطريف •

وفى صباح اليوم التالى كنت أسير فى طريقى الى البرلمان بخفة الطير كأن حملا ثقيلًا قد أزيح عن كاهلي •••

عزيز على المصرى باشا فى السجن

تخرج عزيز على ضابطا فى الجيش العثمانى ، وتدرج فى سلم المراتب

حتى أصبح أمير لواء • ولما هاجمت إيطاليا طرابلس الغرب أشترك عزيز على
فى المعارك وأبلى فيها بلاء حسنا • الا أنه حدثت بينه وبين أنور باشا مشادة
أنتهت بأن يخلف عزيز على أنور باشا فى القيادة هناك • دارت الايام دورتها
فاذا بأنور باشا وزيرا للحربية وصهرا للسلطان ، يرفع من يشاء ويخفض من
يشاء بغير حساب ، ويسجن ويشنق دون وازع ولا رادع • وجاء دور خصمه
عزيز على فأمر بتوقيفه فى ٩ شباط سنة ١٩١٤ تمهيدا لاحتالته على المحاكم
العسكرية بتهمتين : الاولى اختلاس ثلاثين الف ليرة فى الحرب الطرابلسية ،
والثانية أهانة الضباط الاتراك وأخراجهم من ميدان القتال وأعادتهم الى
تركيا •

أثار توقيف عزيز على أسياء شديدا فى استانبول وفى البلاد العربية ،
فأرسلت برقيات الاحتجاج وأقيمت المظاهرات أنتصارا له • وشمل الاستياء
بعض أقطاب جمعية الاتحاد وبعض الجمعيات التركية ، بالنظر لما يتمتع به
المتهم من عطف الرأى العام التركى والعربى على السواء ، خاصة وأن الامر
بتوقيفه جرى بعد أن أعلنت الحكومة العفو العام عن جميع الجرائم السياسية
التي وقعت قبل سنة ١٩١٣ •

وقد بذل رجال العرب الاحرار فى استانبول جهودا جبارة لانقاذه ،
فكانوا يراجعون المقامات العليا وذوى النفوذ وسفارات الدول الاجنبية لاقناعها
بالتدخل فى القضية • وحين علم أهل عزيز على بالخطر المحدق به جاءت الى
استانبول شقيقته وأحد أقربائه • فرغب المشتغلون فى قضيته بالاجتماع بهما
سرا ، وقد جرى الاجتماع فى دارى وأفهمنا قريبه بالمساعى والمحاولات
المتعددة التى لم تثمر بعد • وكان عدد المجتمعين ثمانية :

مؤلف الكتاب ، قريب عزيز على المشار اليه ، نوري السعيد ، ثابت
عبدالنور ، عبدالله الدمولوجى ، عادل أرسلان ، أسعد داغر ، والدكتور
أسماعيل الصفار •

وقد بلغ التحمس بثابت عبدالنور أن أعلن عن تطوعه لاختطاف عزيز

على من السجن اذا ساعدناه فى ذلك ، فلم نوافقه على اقتراحه لاستحالة
تجاحه •

وبعد ذلك الاجتماع كان ثابت يطرق أبواب المفوضيات والسفارات
متكررا بأزياء مختلفة خوفا من جواسيس الحكومة ، حتى أنه ارتدى يوما
ملابس قسيس وأخفى وجهه بلحية كثة مستعارة ودخل السفارة الانجليزية
وطلب منها التدخل رسميا باعتبار ان عزيز علي مصرى التبعية وان لانبجلترا
الحق فى صيانة حياته بحكم ارتباطها الوثيق بمصر •

لم تجد كل هذه المحاولات نفعا • وقدم عزيز على الى الديوان العرفى
فى أول نيسان سنة ١٩١٤ ، وأستمع القضاة الى شهادات شهود الزور وأكاذيبهم
الملفقة فحكموا عليه بالاعدام •

قابل رأى العام التركى هذا الحكم بسخط شديد ، فتقدم وفد من
الشبيبة التركية ، برئاسة الدكتور حسين حيدر بك الى جمال باشا وطلب منه
أن يتدخل فى الامر لينقذ سمعة صديقه أنور باشا من الوصمة التى ستلحق
به فيما لو نفذ حكم الاعدام •

بلغ سمع أنور باشا صدى الاستهجان والامتعاض فى كافة أنحاء الدولة
العثمانية ، فأدرك خطأه فى مغالاته بالانتقام من عزيز على • وقبل أن يقدم
الحكم للسلطان للمصادقة عليه أقامت السفارة الفرنسية مأدبة فى دارها ، دعى
اليها الوزراء الاتراك والسفراء الاجانب ، كان الغرض منها بحث قضية عزيز
على • وفى ركن من إحدى الغرف أحتل المسيو جورج ريموند المراسل
الحربى لجريدة « الستراسيون » بجمال باشا ، وحثه على أقناع صديقه أنور
بالعفو عن عزيز على ، وحذره بأن الحكم اذا نفذ فسوف يخسر أنور باشا
مركزه الاجتماعى والسياسى فى الداخل والخارج • وازاء هذا الضغط
المتواصل أقنع جمال باشا أنور باشا بالعفو عن عزيز على ، فأصدر السلطان
عفوه عنه ، بشرط أن يغادر استانبول حالا وأن لا يعود اليها وأن لا يتدخل مرة
أخرى فى شؤون الدولة العثمانية •

أطلق سراح عزيز علي فسافر في اليوم التالي الى مصر • وقد فضل المناضلون العرب ألا يتصلوا به ، لئلا يخرجوا موقفه ، وهو محاط بالجواسيس والأرصاد • وفي آخر ليلة قضاها عزيز علي في استانبول جاءني نوري السعيد ويده ربطة عنق وقال : هذه ربطة أهدها اليك عزيز علي رمزا للشكر وتذكارا للنضال المشترك •

بعد أن تم أبعاد عزيز علي باشا قامت الحكومة بسلسلة اضطهادات للضباط العرب ، فأنزلت رتب بعضهم ، ونقلت فريقا منهم الى أماكن نائية وأساءت معاملة الآخرين • فقلل ياسين الهاشمي الى أدرنة قبيل الحرب العالمية الاولى ، وطلبت وزارة الحربية من رشيد الحوجة وعبد اللطيف الفلاحى الحضور الى استانبول ، وكان غرضها التكيل بهما ، فلما وصلا بيروت سهل لهما صييح نشأت رئيس الجندرية فيها سبيل الفرار الى مصر • وكان صييح نشأت اتحاديا في ميوله ، ولكن شهامته أثبت الا أن ينقذ صديقيه مما يراد بهما من سوء • وفي خلال اقامتهما في مصر أرسل اليهما توفيق الخالدي الاتحادي كتب أمان ودعاهما للقدوم الى استانبول ، فتشجعا وحضرا الى استانبول حيث تسلما أمرا بالنقل الى أنقرا • فلما أشتعلت نيران الحرب نقلا للتفتيش على الحدود البلغارية • وبلغهما وهما في الميدان أن الحكومة فتشت داريهما فلم تعثر على شيء يستحق الذكر •

ان هذه الاضطهادات المنظمة التي أرتكبتها الحكومة الاتحادية مع الضباط العرب كانت العامل الرئيسى الذى دفع السيد طالب الى مهادنة الحكومة ، رغبة منه فى حماية الضباط المضطهدين ، كما سبق البحث عنه •

مجلس النواب العثماني عام ١٩١٤

جرى افتتاح المجلس النيابى فى ١٤ مايس ١٩١٤ بحضور السلطان محمد رشاد • وتلى سعيد باشا خطاب العرش ، ثم جرى تحليف النواب اليمين القانونية • وبعد ذلك وزع النواب فى أربع شعب ، فكان من نصيبى الانتماء الى الشعبة الاولى التى تضم من بين نوابها الشريف فيصل بك نائب

جدة (جلالة الملك فيصل الاول) • وكانت العادة الجارية أن يجتمع نواب الشعب المختلفة قبيل الجلسات للمداولة في الشؤون البرلمانية ، فحاز فيصل أعجابه بوقاره وورزاته وقوة شخصيته •

وفي الجلسة الثانية والجلسات التي تلتها صادق المجلس على مضابط انتخابات النواب المحالة اليه من قبل لجنة التدقيق ، ولكن مضبطة انتخاب نواب البصرة لم تكن بينها • فأدركنا أن في الامر سرا • لذلك أمتنعنا عن الاشتراك في الجلسات وأكتفينا بالجلوس في شعبنا المختلفة ، وأبرقنا الى السيد طالب - بوصفه رئيس الجمعية الاصلاحية - نخبره بالامر • فجاءنا الرد التالي برقيا :

« أتركوا استانبول توجهوا الى مصر أنتظروا التعليمات هناك »

ولما كانت مراسلاتنا - نحن نواب البصرة - مراقبة ، فكان من الطبيعي أن يطلع طلعت بك وزير الداخلية على نص البرقية • وفي صباح يوم ١ حزيران ، بينما كان المجلس منعقدا وكنا نحن المضرين جالسين في الشعبة تتداول في أمر الذهاب الى مصر حالا أو التريث بضعة أيام ، واذا بطلعت بك يدخل الشعبة • وبعد أن حيانا تحية ودية أبدى استغرابه من عدم اشتراكنا في الجلسة ، كأنه لا يعلم عن الامر شيئا ، فلما أخبرناه بالسبب تظاهر بالتعجب ، ووعدنا بأن يقدم المضابط الى المجلس حالا ، ثم خرج • ومرت دقائق عاد على أثرها ودعانا للدخول ، فلم نكد ندخل حتى كان رئيس المجلس يعلن المصادقة على مضابط نواب البصرة الخمسة • ومنذ ذلك اليوم واطبنا على الحضور في جلسات المجلس •

وراء الستار

برع الاتحاديون في تدبير المؤامرات البرلمانية والمخاتلات السياسية لتنفيذ ما آربهم ، فاذا فشلت تلك المؤامرات لجأوا الى التهديد والعنف ، لالقاء الرعب في نفوس المعارضين ، وكان من أساليبهم أيضا اثاره الضجيج في الجلسات عندما يخرج أحد الخطباء موقف الحكومة • فباشارة بسيطة من أحد

الوزراء الاتحاديين يبدأ أنصار الحكومة فى القرقة على الطاولات واحداث الضجيج والصراخ حتى يئأس الخطيب من اسماع صوته فيترك المنبر • وكانوا اذا عرض الرئيس قانونا ترغب الحكومة فى تصديقه ، أو طرح سؤالاً للاكتفاء بالذاكرة حول موضوع تخشاه الحكومة ، صرخ أنصارها بملء حناجرهم « قبول •• قبول » لكى لا يبقى للمعارضين مجال لطلب الكلام حوله • وكان منظر هؤلاء ، وفيهم بعض المعممين وذوى الحى الطويلة وبعض الشيوخ والباشوات ، وهم يأتون من الاعمال ما يخجل من أتيانه الصبيان ، أقول كان منظرهم أحيانا يثير الضحك والاشفاق •

أما اذا لمس الاتحاديون من أحد النواب عنادا فى الرأى وأصرارا على المعارضة ، أرسلوا من يحمل اليه التهديد فى ثوب النصيحة • وقد حدث عندما ورد الى المجلس قانون يقضى بتخصيص راتب شهرى مدى الحياة قديرم خمسون ليرة لعاطف بك لقاء خدماته الوطنية ، تلك الخدمات التى لم تكن فى الحقيقة سوى تطوعه لقتل شمسى باشا أبان الثورة الاتحادية فى سلايك ، صارحت بعض النواب بعزمى على توجيه استيضاح الى الحكومة عن خدمات الرجل بقصد احراجها • رفعت الجلسة لكي يتناول النواب الغداء ، فأخذت مكاني على احدى الموائد فى مطعم البرلمان ، واذا بشكيب أرسلان نائب حوران الاتحادى يقبل على ويشاركنى المائدة • فلما استقر به المقام همس لى بأنه سمع عن عزمى على طرح الاستيضاح وما سيؤول اليه ذلك من احراج لموقف الحكومة ، لأن عاطف بك قاتل بنظر الجميع ، وتخصيص راتب له معناه تشجيع الحكومة للقتلة ، ولذلك فانه - أى شكيب - ينصحنى بصرف النظر عن الاستيضاح المذكور • ولما كنت أعلم أنه مرسل من قبل الوزراء الاتحاديين أبديت له اصرارى على الاستيضاح ، وشكرت له نصحه • فترك المائدة وخرج من المطعم •

انتهى النواب من تناول طعامهم فأعلن عن استئناف الجلسة • وبينما كنت سائرا الى مكاني سمعت الرئيس ، وكان هو وعدد من النواب الاتحاديين

قد أخذوا أمكتهم قبل المناذاة باستئناف الجلسة ، سمعته يقول : « القانون رقم كذا » ؛ فصرخ النواب الجالسون :- قبول • ثم انتقل الى قانون آخر • ولما طلبت الكلام حول راتب عاطف بك ، أجاب رئيس المجلس بأن القانون المذكور تم قبوله وانه لا يرى مبررا لبحثه ثانية • حيثئذ علمت ان القانون الذي لم يذكر الرئيس اسمه ، بل ذكر رقمه ، كان هو ذلك القانون الذي أزمعت على معارضته ؛ وان جلوس الرئيس وبعض الاتحاديين في القاعة مبكرا كان حسب خطة مرسومة •

وفي حادثة مماثلة أرسل اليّ الاتحاديون صديقي توفيق المجالي ينصحنى بالتخفيف من معارضي • فأجبت صراحة بأن يذهب الى مرسله ، ويخبرهم بأنني حين تركت البصرة دونت وصيتي بأمل أن لا أعود اليها سالما ، وأني أعارض الحكومة لا لمجرد المعارضة بل خدمة للصالح العام ، وسوف يرون كيف أنني أويد القوانين النافعة •

ان هاتين الحادتين تمثلان السياسة التي أتبعها الاتحاديون في كم أفواه العرب • وقد جاء في كتاب « ثورة العرب » الصادر في مصر سنة ١٩١٦ م ما يؤيد ذلك ؛ فيقول المؤلف مثلا :-

« لم تكف الحكومة الاتحادية بانتخاب كثير من الاتراك عن البلاد العربية ، بل كمت أفواه العرب ، ولا سيما الاصلاحيين منهم ، ووضعتهم تحت المراقبة الشديدة ثم رغبت في عدم قبول نوابهم ، وخصوصا نواب البصرة ، في مجلس النواب ، وكادت تتجح في ذلك لولا خوفها من زعماء العرب وأحزابهم ، لا سيما السيد طالب النقيب الذي كان قد أستقل تقريبا في القسم الجنوبي من العراق »

وجاء في مكان آخر من الكتاب نفسه :-

« وبديهي ان ما صرح به نواب العرب الكرام عن بلادهم كان دون الحقيقة بمراحل ، لأن حريتهم كانت محدودة ولانهم كانوا دائما مهدين بالمشقة أو الاغتيال ان هم أعربوا عن آرائهم بصراحة ووضوح »

على المنبر

كانت تلك الدورة من الدورات غير الاعتيادية للمجلس النيابي ، وأمدتها خمسة وثمانون يوما • وقد قدمت فيها الحكومة الى المجلس عددا كبيرا من اللوائح والقوانين والانظمة ، مرّ بعضها بسلام وقوبل البعض الآخر بمعارضة شديدة • وقد رأيت من المناسب أن أنقل جميع أقوال نواب العراق في تلك الدورة ، مستخلصة من محاضر الجلسات الرسمية :-

المؤلف - نائب البصرة

- (١) اعتراض حول قانون أستملاك الاملاك •
 - (٢) ملاحظة حول منهاج المدرسة الملكية • وهي المدرسة التي يعين خريجوها قائممقامين أو معاوني ولاية •
 - (٣) كلمة لتأييد جعل المدرسة المذكورة داخلية لكي يتسنى لابناء البلدان القصية الانتماء اليها ، بعد أن كانت وفقا على أهالي أستانبول والمدن المجاورة •
 - (٤) اعتراض على قانون الاوقاف فيما يخص بيع الاموال المنقولة وغير المنقولة ووجوب اناطته بدوائر الاجراء •
 - (٥) خطاب حول الخط الحديدي بين دمشق والمدينة المنورة وضرورة اصلاحه ووضع حد لتلاعب الموظفين في المحطات •
 - (٦) في فصل الميزانية : انتقاد الحكومة على تبذيرها واسرافها في الوقت الذي يذهب وزير ماليتها للاقتراض من الدول الاوربية •
 - (٧) خطاب في معارضة لائحة ذيل قانون الجزاء حول محاكمة الصحفيين وخلق حرية الصحافة جاء فيه :-
- « أود أن أسأل الحكومة ومقرر اللجنة الحقوقية لماذا لا تشدد الحكومة هذا التشديد على المجرمين والقتلة بدل الكتاب القديرين والمتورين وأرباب الاقلام الحرة • ان هذا القانون الذي يضيق الحناق على حرية النشر والصحافة ليتعارض مع الدستور تعارضا واضحا • واذا كان غرض الحكومة من تشريعه

اتقاء القدح والانتقاد على صفحات الجرائد والمجلات فمعنى ذلك أنها ترمى إلى اخماد الازهان وتكسير الاقلام ومحو الحريات ، ثم تتشدد بعد ذلك بحمايتها للدستور وتمسكها بروحه » .

(٨) رد على بارصاميان نائب سيواس لمهاجمته حرية الصحافة .

(٩) خطاب في بحث وزارة العدلية جاء فيه :-

« ان اسم وزارة العدلية يدل على أنها الوزارة التي ينبع منها العدل ثم يجرى في محاكم الدولة ودوائرها ، وأنها الوزارة التي لا تعرف غير الاستقامة ديدنا والانصاف سبيلا . والحقيقة أيها السادة ان وزارة العدلية اليوم لا تخالف القوانين المشروعة فحسب ، بل القانون الاساسى نفسه ، لا سيما في البلاد العربية »

ثم تناولت بالنقد الطريقة الشاذة التي سارت عليها الوزارة في عزل الحكام ونقلهم ، وبالحاصة العرب منهم ، وضربت مثالا على ذلك عزل رئيس محكمة استئناف البصرة على أثر مقتل فريد بك بدون توجيه أى تهمة اليه . وتطرق بعد ذلك الى ضرورة استعمال اللغة العربية في المحاكمات ، فقلت بهذا الخصوص :-

« تصوروا أيها السادة محاكمة تجري في احدى محاكم العراق . فالحاكم يجهل العربية ، والمتهم يجهل التركية ، ويقوم الكاتب أو المباشر بمهمة الترجمة ، فأى ظلم هذا الذى يجرى باسم القانون حين يخطئ المترجم . لقد قال لى يوما أحد الحكام الاتراك :- أن ضميرى معذب لانى لا أفهم ما يقوله المتهم نصا كما انه لا يفهم أسئلتي » .

ثم أشرت الى قضية خريجي مدرسة الحقوق العراقية الذين جاءوا استانبول لدخول الدورة التطبيقية فيها بناء على دعوة الحكومة ، وما أصابهم من الحمية والضرر بعد ذلك .

ولما فرغت من القاء هذا الخطاب نهض توفيق الخالدي وأعلى المنبر ،

فبحث أولاً في سيرة حياة فريد بك وبديع نوري ، واثني على شجاعتهم ومقدرتهما ، وكيف أنهما لقياً حتفهما برصاص الخونة ، وأتهم رئيس محكمة الاستئناف - الذي دافعت عنه في خطابي السابق - بأنه تعمّد توجيه التهمة الى ضابطين عثمانيين لاختفاء معالم المؤامرة . وقال ان الواجب كان يقضى على وزير العدلية بدعوته الى استانبول ومحاكمته لينال عقابه . ثم أردف قائلاً : « ومما يؤسف له أن مقتل فريد وبديع نوري جاء تمهيداً لاحتلال ابن السعود الاحساء ، تلك البلاد التي خرجت من يد الدولة العثمانية » . . . كذا . ولما وصل الى هذه المرحلة من خطابه طلبت الكلام ، فأوما طلعت بك الى رئيس المجلس برفع الجلسة فرفعت . وبينما نحن خارجون من القاعة لحق بي أحد الكتاب وأخبرني بأن وزير الداخلية ورفاقه يرغبون في مقابلتي في غرفة الوزراء . فذهبت اليهم وكان الحاضرون : طلعت بك ، ابراهيم بك وزير العدلية ، جاويد بك وزير المالية ، وصالح الدين جيمجوز أحد الاقطاب الاتحاديين . أستقبلني الجميع بشاشة غير معهودة ، فلما جلست سألتني طلعت عما نويت أن أقوله عندما طلبت أذناً للكلام . فأجبت بأن توفيق الخالدي أتهم أهل البصرة بقتل فريد وبديع ، كما أتهمهم بأن عملهم المزعوم ذاك كان سبباً لخروج الاحساء من البلاد العثمانية . وبصفتي نائباً عن البصرة ، يتحتم على أن أدفع هذه التهمة الكاذبة ، كما أنني سأبرهن للمجلس العالي بأن سوء ادارة الحكومة هي التي سببت ضياع الاحساء ، وأقدم الأدلة الثابتة على ان احتلال الاحساء قد جرى قبل مقتل فريد بك . . الذي لم يقتله البصريون . .

فقال طلعت : أتعلم أن أكثرية النواب لا يعرفون ما هي الاحساء وأين تقع ، لذلك فأني لا أحب أن تفتح علينا هذا الباب . فقلت : ولكن هل ترضى بأن يتهم البصريون فيسكت نوابهم ، والسكوت معناه الاعتراف بصحة التهم .

فقال : وهل تعتقد أن نواب البصرة الآخرين يوافقونك فيما ذهبت

اليه ؟

قلت : نعم •

قال : فأذا دعوتهم ووجدتهم لا يؤيدونك ، فهل تقتنع بالعدول عن الكلام ؟

فأجبت : لا أظن ذلك •

قال : فلتدعهم •

وأرسل في طلبهم ، فجاؤوا وأجابوه بأنهم متفقون معي في الدفاع عن البصرة • فالتفت إلى وخاطبني قائلاً :-

- هل تقبل ترضية لكي تلزم الصمت حول هذا الموضوع •

قلت : اذا كانت الترضية شخصية فلست بقابلها ، وان كان فيها نفع لبلادي فأني أقبلها •

قال طلعت : أعرض شروطك •

فتذاكرت مع زملائي الاربعة وأتفقنا على الشروط التالية :-

أولاً - أن يأمر وزير العدلية بجعل اللغة العربية لغة رسمية في محاكم العراق •

ثانياً - أن ينقل فوراً كل حاكم في تلك المحاكم لا يحسن العربية •

ثالثاً - على وزير العدلية عند أجابته على أقوال النواب أن لا يكذب الحقائق التي أوردتها في خطابي السابق عن وزارته •

وهنا تدخل وزير العدلية قائلاً :-

أن الشرطين الاول والثاني يمكن قبولهما ، ولكني لا أخالك ترضى بأن أصدق على أقوالك التي كنت لي فيها تهماً بالغة • فهل يرضيك أن أمر على أقوالك دون أن أشير إليها لا مصداقاً ولا مكذباً ؟

فأجبت بالقبول • وقد برّ كل منا بوعده : فلزمت الصمت بقية

الجلسة ، وأصبحت اللغة العربية منذ ذلك الحين اللغة الرسمية في المحاكم ، ونقل الحكام والقضاة الاتراك وأستعيز عنهم بحكام عرب ، وبقيت الحال كذلك حتى الاحتلال البريطاني •

(١٠) طلب تأسيس محكمة تجارة نبي البصرة •

(١١) خطاب مطول حول المعارف ، استعرضت فيه الحالة السيئة التي وصلت اليها حالة التعليم في العراق ، كما طالبت بفتح مدرسة سلطانية في البصرة • وقد وعد وزير المعارف في تلك الجلسة بفتح المدرسة المذكورة ، وبالفعل تم تأسيس المدرسة المذكورة في أيلول سنة ١٩١٤ م التي دامت حتى عهد الاحتلال •

(١٢) معارضة قانون التجنيد :- سنت الحكومة قانونا جديدا يقضى بتجنيد الميعل والطلاب ، ونشرت الصحف لائحته قبل تقديمه الى المجلس ، فقبول بأمتهاض شديد في كافة الاوساط • وبعد أيام وردتني عريضة مرسله من قبل حبيب العبيدي وموقعة من قبل العلماء والشيوخ في الموصل يستعطفون الحكومة لتعيد النظر في مادة تجنيد الميعل والطلاب •

قدمت العريضة الى وزير الحربية وأحتفظت بصورة منها كي أطلع عليها النواب ، فأقنع سبعون منهم بمعارضة القانون • فنظمت تقريرا خاصا برفض القانون وقع عليه هذا العدد من النواب • وجاءني أحد نواب اليمن وطلبها مني ليوقع زملاؤه عليها أيضا ، فلقية طلعت بك وأخذها منه ، قائلا بأنه لم تعد هناك حاجة لهذا التقرير ما دامت الحكومة نفسها قد صرفت النظر عن القانون المذكور • فلما بلغني ذلك كتبت تقريرا آخر ، وبدأت بجمع التواقيع مرة ثانية ، حتى بلغت الأربعين • فلما علمت الحكومة بأمر هذا التكتل أخذت تماطل في تقديم القانون المذكور وتؤجله من يوم الى يوم ، وكان قصدها من ذلك أن تعتبره من القوانين المؤقتة التي تصبح نافذة المفعول عند اقتضاء الظروف ، ومن غير حاجة الى مصادقة المجلس •

وهكذا كان : فالقانون لم يقدم الى المجلس ، ولكنه أصبح نافذا عندما أعلنت الحرب العالمية الاولى . ولا زلت أحتفظ بالتقرير وتواقيع النواب عليه حتى الآن .

جميل صدقي الزهاوى - نائب بغداد

(١) كلمة حول قانون الاستملاك .

(٢) خطاب جرىء فى الضرائب جاء فيه :-

« لماذا تجبى الضرائب من الفقراء عن دورهم ، ولا تؤخذ عن قصور ومصيفات أسرة آل عثمان وسائر أملاكهم ، مع أنهم يتقاضون رواتب ضخمة من خزينة الدولة » . ولما قوبلت هذه الكلمة بالضجيج أردف قائلا :- « اني أحترم آل عثمان أكثر منكم ولكني أطلب المساواة التامة »

(٣) كلمة حول نظام الحراسة الليلية .

(٤) عند بحث قانون المطبوعات قال منتصرا لحرية الصحافة :

« لقد أثبت تاريخ الامم أنه كلما أشد تضيق الخناق على أصحاب الاقلام والافكار كلما كان الانفجار عظيما وسريعا . وها نحن اليوم نشرع قانونا يرمى الى محاكمة الكتاب والمفكرين قبل محاكمة المجرمين واللصوص »

(٥) كلمة حول المدرسة الملكية .

(٦) كلمة فى بحث قانون الزراعة .

(٧) مطالبة الحكومة بجعل الاحكام العرفية قابلة للتمييز فى محكمة

تمييز عسكرية أو مدنية .

(٨) المطالبة بجعل اللغة العربية لغة المحاكم الرسمية . وعندما وصل

الى قوله :- « ان أهل العراق لا يعرفون التركية » ؛ نهض فؤاد الجيهجي

نائب الديوانية معترضاً فقال :- « يا جميل أفندي البغداديون لا يتكلمون
كلهم العربية » ، ثم جلس كمن أدى واجبا عظيماً !! ♦♦

(٩) طالب بتأسيس مدرسة للطب في بغداد أسوة بدمشق ♦

(١٠) طالب بجعل التدريس في مدارس العراق باللغة العربية ♦

(١١) خطاب انتقادي قال فيه :-

جاء في الآية الكريمة : « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » ، فلا
يظن أحد بأن القصد من الصالحين هم العباد والنسك ، وإنما القصد
الصالحون لاعمارها ♦ وهنا ضج النواب المعمون وصاحوا : انزل يا زنديق
انزل يا كافر ! ♦ فلما أستمّر في خطابه هاجموه وهموا بضربه ، فتدخل نواب
العراق لتهديئة الوضع ، وانزلوا الخطيب من المنبر ♦

(١٢) كان بعض القادة البحريين قد أوقفوا أوقافاً تعطى غلتها الى الأئمة
الذين يقرأون البخاري الشريف في البواخر الحربية ♦ فلما جاء بحث هذه
الاوقاف نهض جميل صدقي الزهاوي وقال :

« اننا نعرف أن البواخر تسير بالبخار لا بالبخاري ، فلماذا لا تنفق تلك
الواردات على نشر التعليم ليتقن الناس استعمال البخار ما دام هو الذي يسير
البواخر ، بدل أن تنفقها على قراءة البخاري الذي ليس له في تسييرها منفعة
أو أثر » ♦

فضج المجلس ، وكال له المتدينون الفاظ الكفر والاحاد ، وهجم بعضهم
عليه يريدون ضربه ، فتدخل النواب العراقيون ثانية لانتقاذه ♦

شوكت باشا - نائب بغداد

(١) بحث مختصر في قانون الاعشار ♦

(٢) خطاب حول ادخال الأساليب الزراعية الحديثة في البلاد ♦

(٣) خطاب حول مشاريع الري في العراق •

(٤) كلمة في بحث الاوقاف •

توفيق الخالدي - بغداد

- (١) خطاب حول إصلاح الجندرية والمطالبة بتشكيل قوات الهجانة •
- (٢) خطاب كله مديح لوزارة سعيد حليم القائمة يومذاك ودم للوزارات السابقة • جاء فيه : ان الامة الآن برفاه وسعادة بفضل عناية الحكومة الحاضرة •
- (٣) المطالبة بحفر نهر الخالص المدرس •
- (٤) خطاب في رثاء فريد بك وبديع نوري مرّ ذكره آنفا •
- (٥) كلمة حول المدرسة الملكية •
- (٦) كلمة في بحث تشكيل محاكم الاستئناف •

فؤاد الجبيهجي - نائب الديوانية

- (١) نبذة في موضوع الرسوم •
- (٢) الكلمة التي اعترض بها على خطاب جميل صدقي الزهاوي وهي ان البغداديين لا يتكلمون العربية ! • •

ناظم نفطجي - نائب كركوك

- (١) اعتراض على قانون الاستملاك •
- (٢) طلب محاكمة المسؤولين عن فشل مشروع نهر الرشادية المتفرع من الزاب الكبير والذي كلف الخزينة مبلغا طائلا •

فوزي بك - نائب كربلاء

- (١) بعض ايضاحات حول ميزانية وزارة الحربية •

خالد سليمان - نائب الديوانية

(١) خطاب القى فيه اللوم على الحكومة ودائرة البوليس لاهمالهما حراسة اخيه الشهيد محمود شوكت باشا .

مراد سليمان - نائب بغداد

(١) خطاب مماثل لخطاب أخيه خالد سليمان حول مصرع أخيهما محمود شوكت .

العودة الى البصرة

قاربت الدورة البرلمانية نهايتها . فأقام السلطان في ٢٣ تموز سنة ١٩١٤ حفلة شاي في قصر يلدز للأعيان والنواب . ويلدز هي مجموعة القصور التي أنشأها السلطان عبد الحميد ، فجاءت آية في الروعة والضخامة . وباتهاء الحفلة تقدمنا لمصافحة السلطان محمد رشاد وتوديعه .

وقد حدد اليوم السابع من آب موعدا لحتام الدورة ، فقررنا نحن نواب البصرة مغادرة استانبول قبل ذلك التاريخ ، خوفا من الاتحاديين الذين قد تسول لهم أنفسهم اضطهادنا بعد أن ترفع عنا الحصانة النيابية في عطلة المجلس . وهكذا ركبنا الباخرة (توفيقية) مع الحاج عيسى الامام وعبدالرزاق النعمة في ١ آب متوجهين شطر بيروت ، اما عبدالله صائب فقد غادر استانبول ، قبل ذلك بيومين ، مستصجبا معه توفيقا ونجم الدين ولدى السيد طالب ، اللذين كانا في ذلك الحين يتلقيان العلوم في استانبول .

وكان من جملة رفاقنا في الباخرة محمد فوزي باشا العظم نائب دمشق ، ومحمد بيهم بك عضو مجلس الاعيان ذاهبين الى بلديهما . وصلنا بيروت فنزل فيها العظم وبيهم ، وأخذنا نحن الباخرة « برنس عباس » الى بور سعيد ومن ثم الى البصرة بحرا . الا أنه عند وصولنا بور سعيد أعلنت الحرب ، ولم يعد الحصول على مكان في البواخر متيسرا ، لذلك عدنا أدراجنا الى بيروت على ظهر الباخرة « واشنطن » بقصد السفر الى العراق برا .

وعندما علم أصدقاؤنا بعودتنا احتفوا بمقدمنا ، وأولوا لنا الولايم ، وأقاموا

لنا الحفلات التكريمية ، وكان أبرزها وليمة بيهم بك في قصره البديع • ومن بيروت استقلينا القطار الذاهب الى حلب ، فوصلناها واستقبلتنا الشبيبة الحلبية بحفاوة بالغة ، اذ كانت أخبار مواقف نواب البصرة الجريئة في البرلمان قد ذاعت في البلدان العربية كافة •

وفي حلب فاجأني شكري العسلي بزيارة غير منتظرة ، وقال حين رأى تعجبي من وجوده في حلب :- لا تعجب ، فأنا أعمل الآن مفتشا اداريا في دمشق ، وقد نذرت أن أقبلك يوما من فمك ، وها قد حان اليوم الذي أفي به نذري ، فما علمت أنك في حلب حتى سعت اليك فيها •

فشكرته على عواطفه النبيلة وشعوره الصادق • وتغدينا سوية ثم عاد الى دمشق •

زرنا والي حلب وطلبنا اليه أن يؤمن لنا حراسة كافية في طريقنا المحفوف بالمخاطر • وعند خروجنا من لدن والي حلب ، التقينا صدقة بجعفر العسكري الذي كان مديرا للجندرية في حلب يومذاك • فرافقني الى الفندق ، وجلسنا ساعات نتحدث في الشؤون السياسية ، فألفيته متحمسا للقضية العربية •

وفي ١٥ آب غادرنا حلب في ثلاث عربات : الاولى والثانية لركوبنا ، والثالثة لامتعتنا ، يرافقنا اثنان من خيالة الجندرية • وكان في توديعنا جعفر العسكري وبعض الشبان الحليين • وسارت العربات في تؤدة ، فبلغنا مسكنة ، ثم تركناها وأنحدرنا في الطريق الوعرة المحاذية لنهر الفرات • وما أن مضت ساعات حتى رأينا قافلة مقبلة • فلما التقينا بها ، توقفنا للتعرف على أصحابها ، فاذا بها تتألف من ثابت السويدي وثلاثة من خيالة الجندرية • فزولنا وتعانقنا ، وأشرنا على الرجال بالاستراحة ساعة • وفي تلك الساعة روى لنا ثابت القصة التالية ، قال :- كنت أشغل قائممقامية قضاء البشيرية في ولاية ديار بكر ، وجاءت أوامر الحكومة الى والي رشيد بك الجركسي بذبح الارمن القاطنين في تلك الولاية ، فأرسل هذا عصاة من الجراكسة تولوا ذبح الارمن

والمسيحيين على اختلاف مللهم ، بصورة وحشية لا يمكن وصفها • حتى لم
ينج من أيديهم طفل ولا شيخ ولا امرأة • وكان من الطبيعي أن أعترض على
قتل المسيحيين العرب ، الذين يشهد الجميع بأنهم لم يعصوا أمر الحكومة ولم
يكن لهم أدنى علاقة بالارمن • وكتبت الى الوالى أصف له المذابح البربرية
التي أرتكبها رجاله • فغضب مني وشكاني الى استانبول ، وأتهمني بحماية
الارمن ، فأمرت الحكومة بنقلى الى قضاء « روم قلعة » من أعمال حلب ، وها أنا
ذاهب الى القضاء المذكور •



ثابت السويدى

انتهت فترة الاستراحة ،
فودعنا بعضنا واستأنفت القافلتان
سيرهما فى اتجاه معاكس •
ومررنا بعد ذلك بدير الزور ،
والبوكمال ، وعنه ، ثم وصلنا
بغداد فى ٣١ آب • فنوافد
الاصدقاء لزيارتنا ، واحتفى
بنا الشعراء والادباء ورجال
الصحافة • وقد افتقدت من
بين زائرى يوسف السويدى ،
الذي كنت أعلم مقدار حبه لي •
فعجبت للامر ، وذهبت اليه فى
داره ، فلما دخلت وجدته

كثيرا حزينا ، وكانت نبرات صوته تدل على تأثر شديد ، فعلمت ان فى الامر
سرا ، فلم أشأ أن أسأله ، بل طفقت أحدثه عن استانبول وعن الطريق التى
سلكتها ، فلما جئت على ذكر مقابلتى لابنه بكى بكاءً مرا ، وقال بصوت
متهدج : لقد قتل ثابت • • أعتالته الحكومة الظالمة قبل أن يصل الى مقر
وظيفته • فوقع على النبأ وقع الصاعقة ، ولم أتمالك نفسى من البكاء • نعم
بكيت على ثابت الذى أحببته منذ اللحظة التى عرفته فيها ، فقد كان سُهْما

جريئاً مخلصاً • ولم يسعفنى لساني بغير عبارات التعزية ، ثم أنصرفت مبثساً ،
ونحيب الشيخ المكلوم يتردد في أذني •

وبعد إقامة قصيرة في بغداد توجهنا الى البصرة بالباخرة ، فوصلناها يوم
١٨ ايلول • وكان يوما مشهودا ، اذ كان رصيف الميناء والطرق المجاورة
مزدحما بالمستقبلين • وكان سرورهم عظيماً بسلامتنا ، بعد الاشاعات المتباينة
التي دارت حول مصيرنا •



بہنی و بہن نور می السعید

بينى وبين نوري السعيد

هذا فصل معترض فى الكتاب كالجملـة المعترضة فى حديث المرء • وهو قصة وقعت حوادثها فى فترات متباعدة ، قصة متسلسلة ذات حلقات محكمة الاتصال ببعضها •

وانى أستسمح القارئ الكريم عذرا اذا ما أنتقلت به فجأة من سنـى الحرب العالمية الاولى الى عام ١٩٣١ لآتم عليه سرد الحلقات الأخيرة من القصة • ولا يحسبن أحد أن من وراء هذا الفصل قصداً غير رواية حوادث شقية ، وتسجيل تاريخ حري بأن لا يهمل • ولا يظنن أمرؤ انى أعتب أو ألوم ، وما اللوم والعتب الا تفريج هم ، وقصتى هذه ليست من الهموم •• فقد مرت على حوادثها السنون ، وطمست معالمها الأيام ، وانى اليوم أستعرض صورها كمن اعتلى جبلا وراح يحرق فى الوادى السحيق الذى تركه وراءه ، فلا يرى فيه غير هوة مظلمة يكتنفها الضباب ، تساوت أجزاءها فى ناظره •• أما الأشجار ، وأما الصخور ، وأما الأكواخ فلم تعد تبدو للعيان ، ولو ان رسومها ما زالت عالقة بالذاكرة •

كذلك أنا اليوم ، وقد بلغت الشيخوخة ، سيات عندى مر الايام وحلواها ما دامت قد أنقضت وأدبرت • ولكن الذى يثلج صدري كلما عدت بذاكرتي الى الوراء ، اننى لم أرتكب اثما ولم أصب أحدا بسوء عن قصد • أما اذا كان أحد غيرى قد أرتكب الأثم وأصاب الناس بسوء ، فان هذا لا يؤلمنى البتة ، حتى ولو كنت أنا الضحية ••

زمالة فى الدراسة والسياسة

لعل القارئ الكريم يذكر ان اسم نوري السعيد قد ورد فى الفصل الاول من هذا الكتاب فى عداد طلاب المدرسة الرشدية العسكرية فى بغداد ، تلك المدرسة التى قضيت فيها عدة سنين • ولا عجب فى أن تسفر هذه الزمالة عن نسيج من الصداقة والألفة ، الفة يعرف مداها كل الذين جلسوا على رحلة واحدة ، وأكلوا من مائدة واحدة ، وأقاموا فى غرفة واحدة أعواما طويلة •

ثم لعله يذكر أيضا كيف انني أخرجت من المدرسة الرشدية فأخذت لى فى الحياة سبيلا آخر ، واذا بطالب الحرية يغدو محاميا ، ومن بعد نائباً فى مجلس المبعوثان باستانبول .

هناك التقيت بنورى السعيد زميل الصبا ، وكان هو فى السنة الأخيرة من دراسته العسكرية التي تؤهله لكي يكون ضابط ركن فى الجيش العثماني . أقول التقيت به فى استانبول ، فكان لقاء حارا وكان غناقا . وتوثقت من بعد ذلك بيننا أواصر الصداقة ، فكان هو كثير التردد على دارى دائم الاتصال بي . أما أنا فلشد ما أعجبت باخلاصه ووجهه لى ، وبشأطه فى مضمار الدعوة للقضية العربية ، واقدامه على المخاطر واستهائته بالصعاب . لقد كان - والحق يقال - من أشجع المستغلين فى تلك القضية فى استانبول ، بالرغم من كونه طالبا فى الحرية ذات القيود الثقيلة والشروط القاسية ، وبالرغم من الخطر الذى يتهده فى أية لحظة فيما لو اكتشف أمره . وقد ألمحت الى جانب من نشاطه فى موضوع سجن عزيز على المصرى باشا ، وفى الحقيقة ان اتصال نورى وعبدالله الدمولوجى بعزيز على المصرى بعد خروجه من السجن وقيل سفره الى مصر قد أثار حولهما الشبهات ، ونبه الحكومة الى خطرهما ، فأحاطتهما بالجواسيس يتعقبون أثرهما ويتشممون رائحة التمرد فيهما . حتى ضاقت عليهما شبكة التجسس ، فأحسا بالخطر الكامن وراء هذه المطاردة الصامتة ، وعولا على الهروب . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ ومن ذا الذى يدبر لهما أمره فى عاصمة الدولة التى تعج بالجواسيس والأرصاد ؟ والى أين يلتجئان بحيث لا تصل اليهما يد الحكومة ؟ ثم هب انهما وصلا الى المنجأ الأمين فماذا عساهما يفعلان هناك ؟

وفى حالة من القلق الشديد ، وبذهنية مشوشة بمثل هذه الاسئلة المخرجة ، قدم نورى السعيد وعبدالله الدمولوجى دارى ذات ليلة وأخبرانى بأن الحكومة الاتحادية قد عقدت العزم على اغتيالهما . وانه حين بلغهما ذلك حاولا تضليل الجواسيس والافلات من شبكة المراقبة للوصول الى دارى ،

وها هما فيها الآن ، أما الخطوات التالية في سبيل النجاة فقد تركا تدبير أمرهما
الى .



نورى السعيد باللباس العربى

كان عليّ أن أحيط أمر اختفائهما في داري بكتمان شديد ، ولما كانت
الدار مشتركة بينى وبين العائلة الأرمينية ، كما أسلفت ، لذا كان من
الضرورى أن أشتري سكوت أفراد تلك الأسرة بأى ثمن . قلت ان هذه
العائلة تتألف من مدام آغاوي ، وأبنتها الشابة ، وأبنها الصيدلى ؛ وهم يقيمون
في الطابق الثالث من البناية . وتتعهد المدام داري بالعناية ، وتقوم باعداد
الطعام لي ، فهي وثيقة الاتصال بي دائمة التردد على غرف البيت . وقد
سبق ان لاحظت هذه السيدة تعدد الاجتماعات في داري منذ ان سكنتها ،

وتردد أبناء العروبة عليها للمشاورة والمداولة ، كما أدركت أننا نحيط جلساتنا تلك بكتمان شديد ، فانها ، أى مدام آغاوى ، حين كانت تأتى بالقهوة المضيوف قطعوا حديثهم أو أبدلوه ، حتى اذا ما أدبرت استأنفوه • فلما ضاقت ذرعاً بهذا الحذر من جانبنا صارحتنى يوماً بما يدور فى خلدنا قائلة :-

« انى أرمنية ، وقد ذبح الاتراك آلافاً من الارمن الابرياء ، فأرجو أن لا تحسبنى جاسوسة ، بل على العكس ، انى أفرح اذ أراكم تتآمرون على الحكومة القائمة وتعملون على مقاومة ظلمها ، وأقسم لك بشرفى بأننى سوف لا أفشى لكم سراً • »

وقد وفّت المرأة بعهدا حقاً ، وكتمت أسرارنا حتى النهاية • ومن طريف ما يذكر انى التقيت بـ مدام آغاوى فى استانبول عام ١٩٣٩ - أى بعد مرور ربع قرن على تلك الحوادث - وذكرتني هي بالايام الخوالي ، وقالت :- أريد أن أبوح لك بسر كتمته عنك فى وقته ، خشية أن أثير أوهامك ومخاوفك ؛ ذلك انه بعد انتقالك للإقامة فى دارى أرسل طلعت بك وزير الداخلية بطلبى ، فذهبت لمقابلته فى بيته ، فطلب منى مراقبتك ، ووعدنى بمكافأة كبيرة ان أنا أخبرته بأنباء مهمة عنك • فأجبت بالطاعة ، ولكنى علمت فى سرى أن نزيل دارى رجل يناضل فى سبيل الحق ... لذا كنت دائماً فى جانبك •

نعود الآن الى صلب الموضوع ، فأقول ان مدام آغاوى كان لا بد وان تعلم بأقامة نوري وعبدالله لدى ، لذلك دعوتها فى الحال وأنفهمتها خطورة الوضع ، وأطلبت منها ان لا تسمح لزائر أو ضيف بالدخول الى البيت فى غيابي ، واذا ما سأل أحد عن نوري وعبدالله فلتجب بعدم وجودهما هناك • قضينا تلك الليلة فى قلق شديد ، فكانت قلوبنا تخفق بشدة لوقع أقدام المارة فى الشارع ، وتثور أعصابنا كما سمعنا طرقاً على أبواب الدور المجاورة ، وكانت عقارب الساعة تدور ببطء شديد كأن الاعياء قد أصابها ••

مرت الليلة بسلام ، فلما أصبح الصباح جاء بعض أصحاب نوري

وعبدالله بأمّعتهما الى داري سرا • وفي ذلك اليوم أتخذت فندق طوقا تليان مقرا لي ، كي أدفع الشبهة عن داري ، ومن هناك أرسلت أحد الزملاء للتحرّي عن أول باخرة تغادر استانبول ، فعاد وأخبرني بوجود باخرة متجهة الى مصر بعد يومين ، فدفعت له ثمن تذكرتين في الدرجة الاولى وطلبت منه أن يقتنيهما في الحال •

وفي اليوم المعين للسفر حررت كتابا الى السيد طالب أشدت فيه بأعمالهما الجليلة في سبيل القضية العربية ، ورجوته أن يؤويهما في داره ، ويعني بهما ، ويدفع عنهما كل شر تريده بهما الحكومة • وسلمت الكتاب الى نوري ، وزودتهما ببعض المال ، ودبرت أمر وصولهما الى الباخرة بحيلة بارعة • ذلك انني اتفقت مع مدام آغاووني على أن تكتب أسماهما على الحقائق وتظاهر هي بالسفر ، ويصعد في أثرها نوري وعبدالله متكررين متظاهرين بتوديعها • وقيل أن تقلع الباخرة من الميناء بدقائق تغادرها المدام وحدها ، فيرحل الهاربان آمين •

وحانت ساعة السفر ، فركبت المدام ونوري وعبدالله عربة أسدلت ستائرهما ، وتوجهوا صوب الميناء ، ولم نشأ أن نودعهما لئلا تثير فضول البوليس • لبثا في الدار تنتظر عودة المدام بقلوب واجمة • ومرت الدقائق كالساعات ، فاذا بالباب يطرق ، ثم تدخل المدام مستبشرة ، والقت بنفسها على الكرسي ، لفرط ما أصابها من أجهاد في تلك اللحظات الحرجة ، وراحت تحدثنا عن براعتها في التمثيل والتضليل •••

وبعد أيام على سفرهما جاءني بريقة من السيد طالب بالرمز المتفق عليه :
« هديتكم الربطتين وصلت كونوا مطمئنين »

البصرة عام ١٩١٤

عندما عدت الى البصرة في ١٨ أيلول ١٩١٤ ، بعد انتهاء الدورة النيابية ، لقيت السعيد والدملوجي في دار السيد طالب معززين مكرمين ، فعبرا عن شكرهما العميق لي وعن أمتانهما العظيم للسيد طالب • وبعد أيام عين الدكتور

الدملوجي طيبيا لابن السعود في الاحساء بمساعي عبداللطيف المنديل ، فسافر إليها ، وبقي نوري وحده في البصرة . فكنت أجتمع به كل يوم تقريبا ، ولم يكن هو ليقل عني اعجابا بالسيد طالب ومحبة له . حتى انه حدث ذات يوم أن قدم البصرة ضابطان يحملان رسالة من أنور باشا الى السيد طالب ، فأنزلهما في داره وكان برفقتهما خادمان . وقد اكتشفنا ، نوري وأنا ، ان هذين الخادمين كانا في الحقيقة مجرمين شهيرين حكم عليهما بالسجن المؤبد في بغداد ، وانهما لا مفر في نفس الحكومة أخرجا من السجن وأرسلا في رفقة الضابطين . فاعتقدنا بوجود مؤامرة على حياة السيد طالب ، واتخذنا للمحافظة على حياته تدابير محكمة ، وتولى نوري بنفسه مراقبة الخادمين . فكان اذا جن الليل التف بعبائة ممزقة وحمل فراشا مهلهلا الى غرفة الضيوف ، وتظاهر بالنوم والشخير وراح يرقبهما من ثقب العبائة ، حتى تمكن من أكشاف ما لديهما من أسلحة ، فأحطناهما بمراقبة شديدة الجأتهما الى الفرار .

مرض نوري ، وكانت تدهامه الحمى ليلا ، فألمني ذلك ، وكنت أمرضه بنفسى وأسهر على راحته ، حتى اني كنت أبيت الى جانبه بعض الليالى حين تشدد عليه وظأة المرض . وعندما عازمت على السفر مع السيد طالب الى نجد ، كما سيأتى ذكره في الفصل القادم ، رغبت في أن نصحب معنا نوري السعيد ، اذ كنا نخشى أن تنتهز الحكومة العثمانية فرصة غياب السيد طالب فتبطل به ، خاصة وان الجيوش العثمانية أخذت تتوافد على البصرة للدفاع عنها بعد إعلان الحرب . الا أن الدكتور رامى الذى كان يعالجه أصر على عدم ذهابه معنا ، وأخطرنا بان السفر سيقضى على حياته لا محالة . حينئذ نقله السيد طالب الى المستشفى الاميركى ، وتركه وديعة عند الدكتور بنت والقس وانيس ، وأهاب بهما أن يكتما سره ويبدلا أسمه ويعنيا بصحته ريثما يعود من نجد ، وتعهد بدفع مصاريفه كلها من نفقته الخاصة ، أى نفقة السيد طالب ، فوعدها خيرا . وعندما عدت من نجد كان الانجليز قد أحلوا البصرة ، فلقيت نوري لا يزال في المستشفى آمنا بعد أن نجاه الله من شر الاتراك . وبعد ذلك أجمعت به مرات عديدة ، وكنت أصحبه أحيانا في

عربتي الى المنتزهات القريبة لأسرى عنه • وذهبت اليه يوما كعادتي فلم أجده
في غرفته ، فسألت عنه الأب وانيس ، فأخبرني ان الحكومة الانجليزية
أسرته باعتباره ضابطا عثمانيا ، ثم أرسلته الى الهند •

وبعد أسره بمدة ، وفي يوم لم أدونه بوقته من عام ١٩١٥ دعاني السرى
برسى كوكس الحاكم العام لمقابلته ، فذهبت • وكان أستقبله لينا لين الأفعى ،
فسألني عن صديق حميم لى من الضباط أسمه نورس ، وعما أستطيع أن
أدلي به عن مبادئه وميوله • فأجبت بآني لا أعرف شخصا بهذا الاسم • فقام
الى المنضدة وقلب بعض الاوراق ، وقال : عفوا ، ان أسم صديقك الضابط
هو نوري سعيد وليس نورس • وهنا دافعت دفاعا حارا عن نوري ، وأخبرته
بنضاله ضد الاتراك ، وبإخلاقه للقضية العربية ، وقصة فراره من استانبول
ولجؤه الى البصرة ومطالبة الاتراك برأسه • فقال كوكس : أطمأنتي بأننا
اذا كلفنا نوري بمهمة تنفع العرب فهل يؤديها بأمانة ؟ •

فأجبت : ان نوري يؤديها بأمانة ، وبمقدرة أيضا ، وربما يضحى بحياته
في سبيلها اذا أقتضت الحال ؛ فشكرني على هذا التطمين وقال انه سوف
يعتمد على تزييتي لنوري لأنه يثق بكلامي •

وعلى أثر هذه المقابلة نقلت الحكومة الانكليزية نوري من الهند الى مصر ،
كى يتصل بالشرىف حسين أمير مكة تمهيدا للثورة العربية الكبرى •
لقد جاء نوري السعيد على هذا الجزء من سيرة حياته فى الأحاديث
الصحفية التى نشرها عام ١٩٤٧ ، ولكن الذى يطالع تلك الاحاديث لا يفوز
منها الا بعض الحقيقة ، وليس بها كلها ، ولست والله أدري على من يقع اللوم ،
عليه أم على ذاكرته ، ولا أدري كيف يبيح السياسي المحنك لنفسه اغفال
الحقائق التاريخية الثابتة من مذكراته ؟ •

يقول نوري السعيد : كنت شخصا من الذين يعتقدون هذه الفكرة -
فكرة القومية العربية - فسفرت أنا والدكتور عبدالله الدمولوجى فوصلنا

البصرة • وكان الوسيط لتحقيق هذه الفكرة المرحوم السيد طالب وجماعة آخرون من بينهم المحامي سليمان فيضي الذي كان يومئذ نائبا في مجلس النواب العثماني • وفي هذه الاثناء أصابني المرض فبقيت في البصرة حيث أندلعت نيران الحرب وأنضمت الدولة العثمانية الى جانب المانيا فذهب الدكتور الدمولوجي الى ابن السعود ريثما أتمائل للشفاء والحق به • ولكني لم أشف الا بعد مدة طويلة من دخول الانجليز البصرة فمكثت في المستشفى ومن ثم أخذوني الى الهند حيث بقيت مدة من الزمن نقلت بعدها الى مصر ولا أعلم سبب هذا النقل الى الآن وكان ذلك في سنة ١٩١٥ ٠٠٠ الخ)

رد الجميل

بعد تأسيس الحكم الوطني في العراق قدم نوري السعيد بغداد عام ١٩٢٠ وسكن دارا مجاورة لداري في (خضر الياس) في جانب الكرخ ، وكنت آنذاك حاكما في محكمة الاستئناف ، فكنا نجتمع بين حين وآخر بقدر ما تسمح به أوقتنا • أما هو فقد تقلد المناصب الكبيرة ، كسائر اخوانه الذين اشتركوا في الثورة وانضموا تحت لواء الحسين •

وفي سنة ١٩٢٢ قدمت استقالتى من الحاكمية ، وأصررت عليها رغم الحاح رئيس الوزراء بسحبها وعرضه شتى العروض لترضيته • ولم يكن قصدي من ذلك غير التحرر من قيود الوظيفة والعودة الى الحياة الحرة • فعدت الى البصرة ، وزاولت مهنة المحاماة غير نادم على ما فعلت ، وغمرني شعور بالراحة والطمأنينة بأبتعادي عن الحياة القلقة التي تفرضها المناصب في عاصمة الدولة الناشئة •

وفي الحقبة التي تلت ذلك كان نوري السعيد ، وهو في دست الحكم يأتي البصرة بين حين وآخر فتبادل الزيارات الودية ، ولم يحدث ما يكدر صفو العلاقات بيننا حتى حدث ما لم يكن في الحسبان •

ففي الخامس عشر من تموز عام ١٩٣١ أعلن الاضراب العام في البصرة ،

على أثر صدور قانون رسوم البلديات ، وقد اتخذ فور اعلانه شكلا غير سلمى .
فسار المضربون فى الشوارع فى شبه مظاهرات مسلحة ، وأخذوا يتحرشون
بالمؤسسات الحكومية . والتقى فريق منهم بسيارة متصرف البصرة آنذاك
فخري الملى فأحاطوا بها وكسروا زجاجها ، مما اضطره الى اللجوء الى
دار المجتهد السيد عبدالله الموسوى طالبا حمايته ، فأرسله هذا بحماية بعض
السادة والعلماء الى دار المتصرفية . ومن هناك طلب المتصرف الى المتظاهرين أن
ينبوا عنهم ممثلين لاجراء المفاوضات ، فتذاكر رؤساؤهم فيما بينهم ،
وأخبروا المتصرف بانتخابهم أيي والمحامي محمد زكي . أما أنا فلم أكن قد
علمت بأمر الاضراب الا بعد الحادثة المذكورة ، ولا أعرف مدبريه ، ولم أكن
أعلم حتى ذلك الحين شيئا عن مطالب المضربين . وكنت فى تلك الساعة جالسا
فى مكتبى ، فخابرنى المتصرف تلفونيا وأعلمنى برغبة المضربين الآنفة الذكر ،
فأعذرت ، فرجا منى قبول التوسط وانهاء الازمة بسرعة ، فرفضت . وفى
أثناء تلك المخاطبة رأيت الناس يتوافدون على مكتبى ، وبينهم كبار التجار
وأصحاب المخازن ورؤساء العمال ، حتى ضاق بهم . وكانوا يلحفون فى
قبولى التوسط بينهم وبين الحكومة . ثم سمعت هتافا من الخارج ، فخرجت
لأستطلع الخبر ، فرأيت آلاف المتظاهرين يحملون العصى متجهين أمام داري
هاتفين بحياتي . وفى ذلك الموقف جاء محمد زكي الى مكتبى ، وكان قد
حدث له نفس ما حدث لي . أما المتصرف فلم ينقطع عن مكالمتي تلفونيا كل
بضعة دقائق ، وهو يلحف فى الالتماس والرجاء حتى انه كان يستجد بي
لانتهاء خطورة الموقف وانقاذ سمعته ومركزه من هذه الورطة . فلم يسعنى
أزاء هذا الاصرار الا القبول مكرها . فتذاكرت ومحمد زكى مع المضربين
بشأن مطالبهم وشروطهم لانهاء الاضراب ، ثم توجهنا الى العشار فى سيارتي ،
وكانت هى السيارة الوحيدة التى خرجت فى ذلك اليوم الى الشوارع ، لذا
فقد كانت عرضة للاعتداء عليها من قبل المضربين والشرطة على حد سواء مالم
يتأكدوا من هوياتنا . وفى منتصف الطريق أعترضتنا جمهرة من المتظاهرين
كانوا قد أحاطوا بمدير الشرطة درويش لطفى وأحد معاونيه ، وأوسعوهما

لكما وضربا ، فأسرعنا الى أنقاذهما ، وحلنا بينهما وبين الجمهور الغاضب ،
وأخذناهما بسيارتنا الى العشار •

وصلنا المتصرفية فاستقبلنا المتصرف ، وكان يقبلنا ويتوسل إلينا أن نقوم
بدور الوسيط وأن نهدي الحواطر الهائجة ، وأخبرنا بأنه قد دعى المجلس
البلدى للاجتماع بأمر وزير الداخلية للقيام بتعديل بعض المواد ، ورجا منا
أن نبليغ المتظاهرين قرارات المجلس المذكور وأن نقنعهم بالتزام الهدوء
والسكينة • فخرجنا منه ، وفى طريق عودتنا لقينا أحد رجال الشرطة وهو
يلاقى صوف الضرب والتعذيب من المتظاهرين ، فخلصناه منهم ، وأركبناه
السيارة ، ولكن أحد المتظاهرين أراد ألا أن يتم انتقامه فألقى عليه حجرا
ثقيلًا أصاب محمد زكى بدلا عنه ، فتدفقت الدماء بغزارة من رأسه ، مما
الجأنى الى نقله الى المستشفى فى الحال والعودة وحدى الى المعمة •

وفى أثناء انعقاد المجلس البلدى عملت المستحيل لمنع هجوم الجمهور
على دار البلدية ، فكنت أخطب فيهم مهدئا ، وممنيا ، وكنت احذر رؤساءهم
من وخامة العواقب ، حتى بح صوتى فلم أعد أستطيع الكلام • وفى تلك
الساعة قدمت سيارة مسلحة متوجهة صوب دار البلدية ، فهجم عليها الناس
وتعاونوا على القائها فى النهر بمن فيها من رجال الشرطة ، مما اضطر قائدها
الى توجيه الرشاشات عليهم مهددا باطلاق النار ، ولكن الجمهور الغاضب
أستمر فى محاولته لقتلها الى النهر • حينئذ أسرع الى مكان الحادث
وتوسلت الى المضربين أن يكفوا عن هذا العمل الخطير الذى قد يؤدي الى
اراقة دماء المئات منهم ، وأعتليت جناح السيارة وأمرت سائقها بالسير
بطيئا ، فأفسح المتظاهرون لها المجال حتى مرت بسلام •

استمر الاضراب على شدته وعنفه ثلاثة أيام ، ثم انتهى على أثر تعديل
بعض مواد الرسوم • ثلاثة أيام بذلت فيها من الجهود لتقريب وجهات النظر بين
الشعب والحكومة ، ولحقن الدماء ، ولصون كرامة الموظفين وسمعة الحكومة ،
ما جعل الجميع يسعون لتقديم الشكر والدعاء لي • وجاءني المتصرف يقدم

شكره ، فعانقني وقبلني وهو يقول ان لسانه ليعجز عن التعبير عن مدى شكره • وجاءني مدير الشرطة ومعاونوه لتقديم شكرهم أيضا • وحسبت وحسب الناس ان الامر قد انتهى •

الا انه في مساء ١٩ تموز اتصل نوري السعيد رئيس الوزراء بابراهيم الراوي آمر حامية البصرة يومذاك وطلب اليه القاء القبض على وتوقيفي ، فاعتذر الراوي قائلا انه يعرف الدور الذي لعبته في تسوية الخلاف ، ولهذا فانه لا يستطيع القيام بهذه المهمة • وفي صباح ٢٠ منه قدم الباشا بنفسه بالطائرة وأمر بتوقيفي ، فأوقفت • وطلبت الشرطة من المحكمة تمديد مدة التوقيف ، فأمتعت المحكمة عن الموافقة ، وكانت هيئتها مؤلفة من الحكام ابراهيم الشاندر وتوفيق النائب وكامل سعيد • وكان رأيهم مطابقا لرأي ابراهيم الراوي آمر الحامية • ولكن الشرطة أبقتني موقوفا رغم ذلك الى يوم ٢٤ منه • وفي مساء ذلك اليوم ، بينما كنت أتناول عشاءي مرتديا ملابس النوم ، أتاني مدير الشرطة وأخبرني بعزمه على نقلي الى مكان ملائم تتوفر فيه وسائل الراحة والنظافة ، فطلبت منه أن يمهلي كي أردتدى ملابسى ، فأجاب بأن المكان قريب ولا حاجة بى الى ذلك ، أما أمتعتى فوعد بنقلها بعد ذاك • فتوهمت انه صادق فى دعواه • ولما خرجنا الى فناء البناية أحاط بي رجال الشرطة المسلحون وأقتادوني الى سيارة مسلحة وجدت فيها رفاقي الموقوفين الخمسة وهم : الحاج ابراهيم البجاري ، وحبيب الملاك ، وطه الفياض ، وحسن الناصح ، وكانظم الحاج شويش • وسارت بنا السيارة ، ومن أمامها وخلفها سيارات مسلحة ، الى محطة القطار • وهناك أركبنا فى عربة من الدرجة الثالثة برفقة اثنى عشر شرطيا ومفوض واحد • وسار بنا القطار ونحن لا نكاد نصدق ما يجري حولنا ، ولا نعلم ما يراد بنا • وكنا جميعا بملابس النوم ، ولم يكن أحدا ليحمل معه فلسا واحدا ، ولم يكن لدينا زاد أو ماء المطريق • وماهى الا ساعات حتى علت وجوهنا الأوساخ والأتربة ، واشتد بنا الجوع والعطش ، فتصدق علينا رجال الشرطة بكسر من الحبز •• وتنف من الرقى •• وجرع من شربة مكسورة ••

أما أنا فلم يغمض لي جفن ، وكنت ساهما كمن استغرق في حلم مزعج .. فلما دارت عجلات القطار الى الامام ، مزمجرة صاخبة ، انسابت ذكرياتي الى الوراء ، راجعة بي رويدا رويدا الى الماضي السحيق . فأراني واقفا في مجلس المبعوثان أصرخ بصوتي الجمهوري ، مطالبا بحقوق هذه الامة ، بينما يحدجني صناديد الاتحاديين بنظراتهم شزرا ، يودون لو يخمد هذا الصوت الى الأبد ...

وأراني ساهرا أسطر المقالات النارية في جريدة « الايقاظ » ، داعيا الى تحرير هذه الامة من نير العبودية ، قتلانها الايدي في الصباح ، وتقرأها الافئدة قبل العيون ، معجبة بروح الكاتب الحر ، ثم يقتادني الجندمة لأثال العقاب ، فالتاهم باسم غير هياب ...

وأراني في سواد الليل ، أصدر الاوامر ، وأوزع العتاد على المدافعين عن حياض الجمعية الاصلحية ، ليلة لقي فريد بك وأعوانه مصرعهم على أيدي رجالنا ، وما ذاك الا دفاعا عن كرامة هذه الامة ..

وأراني متكرا أجوب المدن العراقية ، وأنظم الجمعيات السرية ، وأبث روح النضال ، وأشد عزائم المناهجين عن قومية هذه الامة ، فيطاردني الاتحاديون ، ويتربصون بي الفرص ، ويطالبون برأسي حيا أو ميتا ، ثم يرجعون خاسئين ..

وأراني في مواقف المعروفة مع الانجليز في بداية الاحتلال ، أرفض مساوماتهم بشمم وأبء ، وأصد عنهم يوم أقبلوا عليّ ؛ ويوم لاذ بهم الكثيرون ، فبدلوا كرامة الامة لقاء جاه فارغ ، وباعوا حقوقها بأبخس الاثمان

يسير هذا الشريط السينمائي شوطا في التاريخ ، فيبلغ اليوم الذي أعلن فيه الحكم الوطني في العراق ، يوم قيل ان الامة نالت استقلالها وانها تحكم ذاتها بنفسها . الامة التي كافحت لأراها متحررة من نير العبودية والرق ، وناضلت في سبيل أعلاء كلمتها ؛ أقول انه في عهد الاستقلال

والدستور والحرية ، فى عهد الحكم الذاتى ، فى هذا العهد نفسه أرانى جالسا على مقعد مهشم فى عربة القطار ، بجلبى القذر ووجهي الأشعث ، من غير زاد ولا مال ، يحيط بي أنفار من الشرطة ينظرون اليّ نظرهـم الى مجرم أثيم ، ويقتادونني الى منفاي .. بعيدا عن أهلي وبلدي ... ألا ما أعظمها خاتمة للمطاف الطويل ، ألا ما أبدها نهاية للنضال المرير ...

ويصفر القطار صفيره الحاد ، فيصحو الحالم ويعود الى الواقع ؛ ولكن الكابوس لا ينفك يرهق باله فيحاور عقله مشغقا .. رويدك أيها العقل المنعب ، أما آن لك أن تنعم ببعض الراحة ؟ علام تصر على أن تخترق الحجب والأستار ، فتتفد الى دخائل بعض القلوب ، لتعلم ما الذي دهاها ، وأين تكمن شياطينها التي توسوس لها ؟ .. ولكن هيهات أن يستطيع العقل الهمود ما دامت هناك أجراس تدق حوله ، وهيهات أن تنظفي جذوة النار ما دامت هناك وقود تتدفق اليها . أبنى العقل ألا أن يستكشف المجاهل ، فأوغل فيها وأوشك أن يتيه مرارا ، ثم آب بالخبر اليقين ، وبالعلم الأكيد . لقد ساء (الباشا) أن يعلم بأنتسابي الى حزب الأخاء الوطني ، وساء أن أكون معارضا للمعاهدة التي أبرمها مع الحليفة العزيزة .

وفى طرفة عين أصبحت فى نظره خطرا على الأمن ، ومبعضا للشعب ، ومصدرا للمتاعب ، ومثارا للقلق ... فوجب عليه أن يدرأ عن البلد خطرى ، وأن يحفظ الامة من شرورى وآثامى ، فيعزلنى عن الناس كما يعزل الأجنب عن الصبح ...

وصلنا بغداد ، فأركبنا فى سيارة مسلحة الى الرمادى ، حيث تناولنا طعاما خفيفا للمرة الاولى بعد ثلاثين ساعة ! .. واستأنفنا السير الى عنه ، فاستقبلنا القائم مقام شاكر محمود المعروف بشاكر (قنبر علي) ، وأخبرنا بأننا سنبقى فيها مبعدين حسب قانون العشائر !! وتصدق على (بدشداشة) وملابس داخلية ، فأستحممت وأخذت قسطا من الراحة بعد تلك السفرة النحسة .

وقد لقينا من أهالى عنه وراوة اكراما بالغا ، فأولموا لنا الولاثم ، وأجزلوا
لنا الهدايا • حتى ان السيد أحمد الراوى المحامى فى بغداد أرسل كتابا الى
أحد أقربائه فى راوة أوصاه بى خيرا • فحضر هذا القريب ، وعرض على
كل مساعدة ، وقدم لى رزمة من الاوراق المالية ، أعدتها اليه شاكرا صنيعه •
واستمر من بعد ذلك يرسل إلينا الفواكه والاطعمة •

وجاءت أوامر الباشا بعد أيام تقضى بمنع السكان من الاختلاط بنا ،
وبتكليفنا بأعالة أنفسنا ، وبقطع المصروفات الحكومية عنا ، خلافا للقوانين
المرعية ، وبنقلنا الى البناية المتهمة من بقايا السراى العثمانى المهجور • وفى
هذا المكان الهادى قضينا مائة يوم ، الا ان الامور من حولنا لم تكن هادئة •
فقد راحت جرائد حزب الأخاء والحزب الوطنى تهاجم الحكومة فى موضوع
ابعادنا • وطيرت برقيات الاحتجاج على ابعادنا من الموصل وبغداد وعنه وراوة
تحمل مئات التواقيع •

وقدم جميل المدفعى احتجاجا بصفته رئيسا لمجلس النواب • أما بعض
أهل البصرة ، الذين أصابنى ما أصابنى من أجلهم ، فقد كتبوا مضبطة الى
الحكومة يشكرونها على عملها الصائب • فله درهم من رجال !! ويا تاريخ
سجل !!

كانت التقارير المرسلة من شرطة التحقيقات فى البصرة تشيد بأعمالى فى
الأضراب ، مما أثار استغراب موظفى وزارة الداخلية ، فذهب عبدالرزاق
حلمى متصرف لواء بغداد الى مزاحم الباجه جى وزير الداخلية وأطلعته على تلك
التقارير وعبر عن استغرابه من موقف الحكومة تجاهى • فأجاب الباجه جى :-
ان هذه هى رغبة الباشا • فقال عبدالرزاق :- ولكن سليمان فيضى صديقك
وصديق الباشا حسب ما أعلم • فأجاب : هذا صحيح ، ولكنه مغرور ومتعجرف
فينبغى أن يعاقب !!

كان المغفور له جلالة الملك فيصل الاول متقنيا عن العراق فى تلك الاثناء ،
وكان يقوم بمهام العرش نيابة عنه المغفور له جلالة الملك علي ، فلم يشأ أن يتدخل
فى الأمر • وعند عودة جلالته بلغه نبأ الابعاد ، فأمر باطلاق سراحنا •

عدنا الى بغداد ، ونزلت وحبيب الملاك فى أحد الفنادق • فتوافد علينا القوم للتهنئة ، وبينهم زعماء الاحزاب ، ورجال السياسة ، والصحفيون ، والاصدقاء • وكان ياسين الهاشمى يزورنا صباحا ومساء • وفى مساء اليوم التالى دعينا للتشرف بمقابلة جلالة الملك فيصل • وفى المقابلة المذكورة جرى الحديث التالى :-

قال المغفور له : انى عفوت عنكما وأرجو أن لا يحدث بعد اليوم شىء مما جرى •

فأجبت : انى أقبل هذا اللطف بكل شرف ، ولكنى لا أعتبر كلمة العفو الا لطفًا ، لانى لست مجرما ولم يكن تصرف نوري معي من العدل فى شىء •

فقال جلالته : لا تجادلنى يا سليمان •

قلت : ليس هذا جدال بل هو بيان حقيقة ، أنى لا أقبل أن أصبح مجرما يعفى عني بمجرد أن يرمى نوري السعيد بتهمة وهمية •

فقال جلالته : على كل حال أتمنى أن أسمع عنكما أخبارا سارة •

وفى مساء اليوم الثالث جاء لزيارتنا ياسين الهاشمى وعلى جودت الايوبى وعبدالله حافظ ، وأخبرنى بأن الشبيبة البغدادية ستقيم حفلة شاي عصر اليوم التالى احتفالاً بنا • وبالفعل فقد وزعت بطاقات الدعوة على عدد كبير من رجال الاحزاب • الا انه فى صباح اليوم الرابع اتصل بى عبدالرزاق حلمى تلفونيا ، وأخبرني بأن الباشا قد علم بأمر هذه الحفلة ، وأنه يطلب منا أن نعتذر عن قبولها • فأجبت بأن هذا غير ممكن ، أما اذا كانت الحكومة غير راغبة فى اقامتها فلتمنعها بالقوة • وفى أثناء هذه المخاطبة كان علي جودت وعبدالله حافظ قريبين مني ، فذهب الاول ليخبر الهاشمى بأزماع الحكومة على أحباط الحفلة • وبعد دقائق كلمني عبدالرزاق حلمي قائلاً :- ان الباشا أمر بإلغاء الحفلة بالقوة وبتسفير كما حالا بالسيارة على طريق العمارة • فلما علم الهاشمى بهذا اتصل فوراً بجلالة الملك محتجاً على الاعتداءات التى يرتكبها نوري السعيد ، خلافاً للقوانين وللحرية التى كفها

الدستور للأفراد • فأجاب جلالته بأن رئيس الوزراء هو المسؤول عن أعماله وليس للملك أن يتدخل فيها •

حضرت ثلة من الشرطة أمام الفندق ، ففرقت الحاضرين ، ووضعت أمتعتنا في سيارة ، ثم أركبتنا فيها قسرا وأررفت معنا مفوض شرطة •

أسلمنا أمرنا الى الله ، وسرنا بدون توقف حتى وصلنا العمارة ليلا ، فاستقبلنا الشيخ محمد العربي ، ودعانا لتناول العشاء والمبيت في داره • ولم نكد نفرغ من العشاء حتى جاءنا على خالد الحجازي مدير الشرطة آنذاك ، وأخبرنا بأوامر وزير الداخلية التي تقضى بالسفر حالا الى البصرة ، فاستأنفنا السفر ليلا ، ودخلنا البصرة قبل بزوغ الشمس • وكانت ترافقنا من القرنة الى البصرة سيارة معاوني الشرطة فأوصلوا كلا منا الى داره • وقد علمنا بعد ذلك ان الغرض من تعجيل وصولنا الى البصرة كان للحيلولة دون استقبالنا من قبل الاهلين استقبالا شعبيا ، خاصة بعد أن علم المسؤولون ان في نية أصحاب سيارات الاجرة التبرع بسياراتهم لركوب المستقبلين احتفاء بمقدمنا •

وبعد أن أصبت بعض الراحة خرجت الى الديوان لاستقبال المهنيين ، وكانوا كثيرين جدا ، بينهم بعض الذين وقعوا على المضبطة في اتهامنا • وكنت أشفق عليهم اذ أراهم يدخلون وعلى وجوههم شحوب الجبن ، لا يجسرون على رفع أنظارهم اليّ ، حتى اذا ما غالبوا خجلهم قالوا : (وجهنا أسود وياك يا أبو محمد • والله مضونا المضبطة وما ندرى شكوا بيها •••)

الصلح

في عام ١٩٣٥ قدم البصرة نوري السعيد ومحمد زكي ، الوزيران في وزارة الهاشمي ، فأقام تحسين على متصرف البصرة مأدبة غداء على شرفهما • وبينما كنت في مكتبي اترأس لجنة المهرجان ، الذي أقيم ابتهاجا بقانون خدمة العلم ، اتصل بي المتصرف وبلغني دعوة لحضور المأدبة ، فأجبتة بانني لن أحضر مجلسا يضم نوري ، فقال : ولكني دعوتك بناء على رغبته ، لأنه

يود أن يعنذر اليك عما جرى في الماضي • فكررت الاعتذار ، ولكنه أصر
فرضيت •

استقبلني نوري من الباب معانقا مقبلاً وهو يقول : ألا قاتل الله السياسة ،
فأنها تفسد بين الاخ وأخيه ، والابن وأبيه •
ولم أشأ أن أقنع بهذا العذر أو أسلم بهذه النظرية في السياسة ، بل
لمته لوما شديدا ، فكرر الاعتذار ، والتفت الى نجله صباح وقال له : « ترى
سليمان فيضي عمك الصدك » • فضحكنا ، وزال في الحال أكثر ما كان
يقربي من حقد وبغض ، وتركت للأيام ما بقي منهما تزيله وتمحوه •



الحرب العالمية الأولى

البصرة على فوهة بركان

في الثامن والعشرين من تشرين الاول عام ١٩١٤ أعلنت الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء فكان اعلانها ايذاناً بزوال الاختلافات الداخلية وبتوحيد صفوف الأمة للدفاع عن الوطن الغالي . وقد وردتني ، كئائب عن البصرة ، بعد اعلان الحرب بيوم واحد برقية من أنور باشا يرجو مني فيها التعاون التام مع الحكومة وحث الشعب على التطوع في الجيش . فشرعنا نعمل بهمة ونشاط ، وأسسنا جمعية الهلال الاحمر في البصرة ، وبدأنا بجمع التبرعات السخية لها .

تواترت الانباء على ان الانجليز يتهيأون لانزال قواتهم في البصرة ، وان قطع الاسطول البريطاني وعدداً من البواخر المشحونة بالجنود قد تجمعت أمام البحرين منتظرة الإشارة ببدء الهجوم . لذلك سارعت الحكومة العثمانية بارسال جيوشها الى البصرة ، مما أشاع بعض الاطمئنان في نفوس البصريين ، خاصة وان جاويد باشا القائد العام في بغداد راح يطمئن صبحي بك آمر حامية البصرة عن قرب وصول النجيدات .

كان القنصل البريطاني في البصرة قد غادرها الى المحمرة غداة اعلان الحرب ، ومن هناك أرسل أحد رجال الشيخ خزعل حاملاً رسالة سرية الى السيد طالب ، يقترح حضوره لعرض بعض المقترحات البريطانية حول مستقبل العراق .

ذهب السيد طالب ليلاً بزورق بخاري الى قصر الفيلية ، وتوجه من هناك برفقة الشيخ خزعل الى دار الحاج رئيس التجار ، التي اتخذها القنصل مقراً له ، حيث استمع الى المقترحات البريطانية التي تتلخص في أن يقدم السيد طالب للحلفاء جميع المساعدات الفعلية لاحتلال البصرة ، مقابل تعهد الانجليز بتنفيذ الوعود التالية بعد أنجاز الاحتلال :-

١ - تنصيب السيد طالب حاكماً عاماً على ولاية البصرة ولوائي الناصرية والعمارة .

- ٢ - جعل اللغة العربية لغة رسمية فى الدوائر الحكومية والمدارس •
 - ٣ - تعيين موظفين عراقيين فى جميع مناصب القضاء وفى الدوائر الرسمية •
 - ٤ - جعل ادارة الاوقاف أهلية تحت اشراف الحكومة •
 - ٥ - اعفاء أملاك السيد طالب وأملاك أسرته من الرسوم الاميرية •
 - ٦ - تعين الحكومة البريطانية بأمر المصارف والشؤون الاقتصادية والزراعية عناية خاصة لغرض تقدم البلاد ورفقها •
- وقد منح القنصل البريطانى للسيد الطالب عقب عرض شروط حكومته الآتية الذكر الى الفوائد التى جناها راجات الهند الذين آزرروا بريطانيا ،
والى النكبات التى حلت بالذين رفضوا التعاون مع الانجليز •
- فاستعمل السيد طالب القنصل بضعة أيام للتفكير فى المقترحات الآتية
الذكر قبل البت فيها • وقد اطلعنى عند عودته على تلك المفاوضات ، وعلى
تلميح القنصل عن راجات الهند الذى كان ينطوى فى الحقيقة على تهديد
صريح • وبعد تمحيص ومداولة عاد السيد طالب الى المحمرة سرا بعد يومين ،
وقدم بنفسه المقترحات التالية الى الحكومة البريطانية :-
- ١ - ان البلاد العربية ترغب فى التخلص من نير الاستعمار التركى لتعيش
مستقلة لا لتبتلى بأستعمار جديد • لذلك فانه - أى السيد طالب - يتعهد
باعلان الثورة ضد الترك ، مستعينا بالضباط والجنود العرب وبالعشائر
العراقية ، بدون تدخل الجيش البريطانى •
 - ٢ - على الانجليز أن يمدوه بالسلاح ، والذخائر ، والمال ، والطائرات ،
والطيارين ، والفنيين فقط •
 - ٣ - أن تبقى البواخر والقطعات البحرية الانجليزية فى الخليج الفارسى
خارج مياه شط العرب وأن لا تدخل الاراضى العراقية الا عند اقتضاء
الضرورة •

- ٤ - فى حالة اشتراك جيوش المانية ضد العرب فيحق حينئذ لبريطانيا أنزال جيوشها فى البلاد .
- ٥ - اذا تم أخراج الترك من البلاد ، تؤسس دولة مستقلة دستورية تحت حماية الانجليز ، ملكية أو جمهورية حسب رغبة الشعب .
- ٦ - يمنح الانجليز امتيازات اقتصادية فى العراق ، ويكون المستشارون الفنيون من الانجليز دون سواهم .
- ٧ - ان النفقات التى يتكبدها الانجليز فى مساندة الثورة تعتبر قرضا على البلاد ، يسدد على شكل أقساط من الميزانية وتنتهى الحماية بتسديده ، وتبقى الامتيازات الاقتصادية وحدها نافذة .
- ٨ - ان تصبح هذه الشروط أساسا لمعاهدة دولية يوقع عليها مندوب رسمى عن الحكومة البريطانية .
- قابلت الحكومة البريطانية هذه المقترحات بالرفض وأصرت على مقترحاتها الاولى . فأرسل السيد طالب رأيه النهائى فى رسالة ضمنها الجملة التالية :-
- « انى لا اوافق على ذلك بتاتا وانى ساعاضد الترك مهما كلف الأمر » .

طالب عدو الانجليز والترك معا

خبير السيد طالب أمل الانجليز ، فلم يكتف برفض المخالفة معهم ، بل أعلن عن عزمه على مقاومتهم تضامنا مع الترك .

وفى تلك الظروف العنيفة ، وبينما كان كل فرد منا قد نذر حياته للدفاع عن البصرة وكرس جهوده لتأييد الحكومة العثمانية ، وردت رسالة سرية من عبدالكريم السعدون الذى كان يزور بغداد آنذاك ، يفصح فيها نوايا الحكومة تجاه السيد طالب وأقطاب الجمعية الاصلاحية ، ويكشف النقاب عن محتويات كتاب سرى أرسله جاويد باشا قائد الجيش فى بغداد الى صبيحي

أمر حامية البصرة ، يوعز اليه بالتظاهر بالامتثال لزعماء الجمعية والسيد طالب ،
بقصد أبقائهم في البصرة ريثما تصل الجيوش العثمانية اليها ، فيسهل حينذاك
القاء القبض عليهم .

على أثر ورود هذا الكتاب أجمع كل من السيد طالب ، وأحمد باشا
الصانع ، وعبد اللطيف باشا المنديل ، ومؤلف الكتاب ، وعبد الله صائب ، وعمر
فوزي المحامي ، وتشاوروا في الأمر ، ثم قرروا أن يغادر السيد طالب
ومؤلف الكتاب - عدوا الحكومة للدودان - البصرة بأسرع ما يمكن . فذهب
عبد الوهاب باشا المنديل الى الزبير ، لغرض اعداد العدة للسفر من خيام
وجمال وركائب^(١) ومؤونة وماء وغير ذلك ، فجمعها بمعونة شيخ الزبير
ابراهيم العبدالله وعبد الكريم الدخيل ، وأرسلها سرا الى منطقة الرافضية
القرية من الزبير .

وفي فجر اليوم المعين للسفر تشاورت مع السيد طالب ، ففضلنا أن
يكون سفرنا علنيا ولكن بصورة مفاجئة بالنسبة للحكومة المحلية ، وأن يكتسب
صبغة رسمية وطنية . وقد تم ذلك فعلا ، بأن دعونا عمر فوزي المحامي الذي
كان يجيد حل الشفرة وكتابتها ، وطلبنا اليه أن يكتب شفرة موقعة من قبل
أنور باشا وزير الحربية ، يلتمس فيها من السيد طالب السفر الى نجد لاقناع
ابن السعود وابن الرشيد بمعاونة الجيوش العثمانية في الدفاع عن البصرة ،
ثم وضعنا الشفرة داخل غلاف برقية . ولما توارد القوم على ديوان السيد طالب
في الصباح ، دخل أحد الخدم يحمل البرقية المزورة ، ففضها السيد طالب
وناولها الى عمر فوزي ، وطلب اليه أن يحل رموزها ويقرأها على الحاضرين .
فلما قرأها اعتقد الجميع بانها حقيقية ، حتى ان صبحي بك قائد الحامية لما بلغه
خبرها حضر لدى السيد طالب وعرض عليه خدماته .

وفي عصر ذلك اليوم ٥ تشرين الثاني ١٩١٤ خرجنا من البصرة ، وكان

(١) الجمال الاصلية المخصصة للركوب .

ففى توديعنا الوالى والقائد وجمع غفير من الاهلين والموظفين ، فلما وصلنا
الرافضية وجدنا كل شىء جاهزا ومهيأ •

وقيل سفر القافلة بدقائق حضر الحاج مصطفى النورى معتمد الشيخ
خزعل ويده رسالة سرية الى السيد طالب ، جاء فيها التعديل الاتى
للمقترحات الانجليزية :

« أن يلتزم السيد طالب جانب الحياد أثناء الحرب مقابل وعد الانجليز
بجعله حاكما عاما مدى الحياة على العراق من الفاو الى آخر نقطة يصل اليها
الاحتلال » •

فكتب السيد طالب على ورقة الجواب التالى ، وسلمها الى معتمد الشيخ
خزعل ليوصلها الى القنصل البريطانى فى المحمرة :-

« انى أرفض كل اقتراح من هذا القبيل ، وقد عزمت على السفر الى
نجد ، فابحثوا عن من يعينكم على أستعمار بلاده ، واعلموا ان الذى لا يرضى
بحكم الاتراك اخوانه فى الدين حري به ان يأبى حكم الانجليز » •

معضلة فى الكويت

سارت القافلة من الرافضية عند الغروب فى طريقها الى الكويت ، وكان
فيها - عدا السيد طالب ومؤلف الكتاب - كل من عبدالوهاب المنديل ، والشيخ
احمد الابراهيم ، وعبدالكريم الدخيل ، وعبدالعزيز المكنزى ، وتوفيق
الحموى ، وهو أحد الضابطىن اللذين جاءا بمهمة خاصة لدى السيد طالب
وكان قد أبدى رغبة شديدة فى الذهاب معنا ، ونحو من أربعين رجلا بين
جمال وخادم وطاه وسائس خيل •

وصلنا الجهرة صباح ٧ منه فاستقبلنا الشيخ جابر الصباح ولقيف من آل
صباح والوجهاء ، ثم دخلنا الكويت وحللنا فى قصر الامير •
وفى مساء ذلك اليوم زار القنصل البريطانى الكرنل كرى قصر الامير ،
وأجتمع بالسيد طالب والشيخ مبارك ، وأعاد عرض المقترحات البريطانية •



المؤلف عام ١٩١٤

ثم حضر في صباح اليوم التالي للغرض نفسه • وفي المرتين رفض السيد طالب المطالبين الانجليزية رفضاً باتاً •

وفي مساء ذلك اليوم أرسل القنصل معتمده الحاج عبدالله وليس الى السيد طالب يرجو منه الحضور في دار القنصلية • فطلب مني السيد طالب مرافقته الى هناك • ولما ذهبنا أخبرنا القنصل بأن آخر التعليمات التي لديه تقضي بأن يؤخذ السيد طالب الى الباخرة الراسية قرب الفاو ، والتي تحمل على ظهرها السر برسى كوكس ، وأن يبقى فيها ريثما يتم احتلال البصرة فيدخلانها سوياً ؟ السيد طالب كحاكم عام والسر برسى كوكس كممثل للحكومة البريطانية • فأجابه السيد طالب بأنه لو جرى ذلك حقاً لكانت وصمة شنيعة وجريمة وطنية لا تغتفر • فأخذ القنصل يحاول اقناعه ، فاستمهل السيد طالب للتفكير في الامر • ولما خرجنا سألتني رأيي ، فأجبت به بأنني لن أزيد حرفاً على جوابه الذي أفاد به الى القنصل ، فأبدى ارتياحه لهذا التأيد وسرنا الى قصر الامير •

عندما وصلنا القصر احتل السيد طالب بالشيخ مبارك في احدى الغرف وجلست أنا في الشرفة المطلة على البحر ، وبعد حين سمعت السيد طالب يقول بنبرة عصبية : كنت الى الآن أدعوك بعمي ، اما الآن فأقول لك يا مبارك اذا منعتني من الخروج من الكويت فسأطلق من مسدسي هذا طلقتين تستقر الاولى في رأسك والثانية في رأسي •

وبعد هذه المشادة فتح الشيخ مبارك باب الغرفة ، ورأني جالساً في الشرفة فناداني قائلاً : تعال احضر معنا وشوف رأي صاحبك المجنون - يعني طالباً - •

فلما دخلت أخبرني السيد طالب محتداً بأن الشيخ مبارك يمنعنا من مغادرة الكويت الى نجد بناء على توصية الانجليز • فقال الشيخ مبارك انه مضطر الى تلبية طلب الانجليز ، وانه لا يستطيع مخالفة أوامرهم ، وان طالباً لا يقدر موقفه هذا بل هدهد بالقتل •

استطعت أن أهدى خواطر الحليين المتخاصمين ، فجلسنا نحن الثلاثة تدبر الامر بينا ، ثم انتهينا الى حل معقول ؟ ذلك انه عندما يدخل الشيخ مبارك الى دائرة الحرم عقب الغداء لينام ، حسب عادته ، نسرع نحن بمغادرة القصر ، تاركين له خطابا مغلقا ، حتى اذا افاق من نومه وفض الغلاف اكتشف أمر سفرنا المفاجيء ، فيكون له حينذاك العذر أمام الانجليز •

أوعز السيد طالب الى جميع رفاقنا بالذهاب حالا الى الجهرة حيث تنتظرنا الجمال والاثقال ، واستبقاني وعبدالوهاب المنديل وأحد الخدم مع أربعة من الخيول السريعة • ولما كان عبدالله صائب وعمر فوزى قد أصابهما الاعياء والمرض ، لعدم تعودهما على الركوب ، فقد اعتذرا عن مواصلة السفر مع الباقين وفضلا العودة الى البصرة •

وبعد أن تغدينا مع الشيخ مبارك ذهب هو الى الحرم ، فغادرنا نحن الاربعة القصر على خيولنا تاركين له الخطاب المتفق عليه • فلما وصلنا الى الجهرة رأينا الجميع على أتم استعداد ، فوصلنا السفر متجهين الى بريدة ، وكان ذلك عصر يوم ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ •

النخوة العربية

فى صباح ١٨ تشرين الثاني ١٩١٤ وصلنا بريدة ، وكان فى استقبال القافلة بعض أنجال الامام ووزرائه ونحو من ثلاثمئة فارس • سار الموكب الكبير الى قصر الامام حيث اجتمعت جماهير غفيرة من الناس لتحييتنا • وعند باب القصر استقبلنا الامام عبدالعزيز آل السعود • ثم صعدنا بعد ذلك الى القاعة الكبيرة ، وقام الفرسان السعوديون بعرض العابهم البارة فى الفسحة الكائنة أمام القصر الكبير • وبعد أن تناولنا القهوة قال طالب للامام : ان أخانا سليمان يود أن يلقى كلمة على الجماهير المحتشدة قبل تفرقها لأن مهمتنا تتطلب ذلك • نزل الامام والسيد طالب والحاضرون الى ساحة القصر فتقدمت والقيت خطبا ارتجاليا جاء فيه :-

« سيدى الامام الاعظم ، سادتى الحضار الكرام

السلام عليكم ورحمة الله • وبعد فقد جئنا من البصرة نحمل اليكم تحيات أهلها ، ونعبر عن آمالهم الكبار بشهامتكم الاسلامية ونخوتكم العربية • لقد هاجم الانجليز البصرة بلد اخوانكم فى الدين قاصدين احتلالها وفرض الرق والعبودية على سكانها ، وهذا لا شك مما لا ترضاه حميتكم الدينية • فلنجدة النجدة يا آل يعرب ، والنخوة النخوة يا بنى عدنان وقحطان • أغثوا من استجار بكم من اخوانكم وأبناء عمومكم ، وادفعوا عنهم كيد الكائدين وبطش المستعمرين • ان المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها كالجسم الواحد اذا تألم عضو فيه تألمت له سائر الاعضاء ، فأملى وطيء فى أنكم ستألمون لما أصاب اخوانكم أهل البصرة ، فتبهون لنصرتهم وتسارعون الى نجدتهم ، ان الله فى عون المرء ما دام المرء فى عون أخيه •

وهنا قام الامام وصاح بأعلى صوته « ليك •• ليك »

فقلت : جزاكم الله خيرا انه لا يضيع أجر من أحسن عملا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته • »

بقينا بعد ذلك فى ضيافة الامام ، فخصص لنا جناحا مستقلا فى قصره • وكان موقف كل من السيد طالب والامام فى غاية الحراسة • فطالب يعلم انه لو عاد الى البصرة قبل انسحاب الانراك منها لآلقوا عليه القبض وبطشوا به ، وانه اذا عاد اليها بعد احتلالها من قبل الانجليز لواجه فيهم خصومه الجدد • اما ابن السعود فكان هو الآخر فى حيرة من أمره ، فقد وردده كتاب من الكابتن شكشير معتمد بريطانيا فى البحرين ينصحه فيه بالتزام الحياد التام ، ويحذره من معاداة بريطانيا ، لأنها قادرة على احتلال الموانئ السعودية وفرض الحصار على البلاد ، ويذكر له بأنه سوف يحضر نجد قريبا للمباحثة فى هذا الشأن •

وفى اليوم الثانى من وصولنا حامت شبهة الامام حول الضابط العثماني

توفيق الذي كان في معيتنا ، بعد ان رآه يترصد له في طريقه الى الحرم ، فأمر
بتسفيره حالا الى الاحساء • وقد بقي فيها مدة ثم توفي هناك •

وفي اليوم الثالث طلب مني الامام مرافقته الى مكتبه الخاص ، وكلفني
بتحرير رسالة الى الشريف حسين أمير مكة ، يخبره بوصول السيد طالب
وتحريضه اياه على محاربة العثمانيين ضد الانجليز ، ويعبر له عن حيرته في
الامر ، وخشيته من احتلال الانجليز لمراقته ، ويسأله ابداء رأيه في الموضوع
ومعالجة الامر بحكمته المهودة • ثم ختمت الكتاب بعبارات التودد والاحترام التي
أملأها علي ، مما يشابه كتابة الابن الى أبيه • ولما أنهيت الرسالة قرأتها على
الامام ، فأبدى استحسانه وأمر بارسالها على جناح السرعة •

وبعد ذلك بثلاثة أيام دعاني مرة أخرى للحضور الى مكتبه ، وأملى
علي رسالة ثانية الى الشريف حسين ، يخبره فيها بعزمه على السفر الى
العراق تلبية لرغبة السيد طالب ؛ الا انه في الوقت ذاته سيصدع لأى أمر أو
ارشاد يردده من الشريف • وبعد الفراغ من كتابة هذه الرسالة أبدى الامام
رغبته في ابقائي بمعيتة ، فيكفل لى أعلى المناصب وأرغد العيش ، فأعذرت
باني متزوج وأخشى أن يكون في اقامتي بنجد مضايقة لزوجتي وأطفالي •
فقال عذري قبوله •

النجدة المتأخرة

عقد الامام اجتماعا حضره السيد طالب ومؤلف الكتاب وعبد الوهاب
المنديل ، وأعلن عن موافقته على السفر الى العراق بجيشه ورجاله ، وقد أدرك
السيد طالب كما ادركت من لهجة الامام انه لم يكن مجدداً في زحفه هذا ،
وانه يقصد كسب الوقت ريثما تنجلي نتيجة المعركة المنتظرة بين الانجليز
والعثمانيين في البصرة •

أبرق السيد الطالب الى أنور وطلعت برقيتين ينبئهما بموافقة الامام على
مساعدة العثمانيين ، وأرسل أحدهما عن طريق المدينة المنورة والثانية عن
طريق البصرة ، وأوصى الحكومة بالاستعداد لتجهيز الجيش الوهابي بالموثون

والذخائر • وفى فترة الاستعداد للسفر ذهبنا الى عنيزة صحبة الامام ، استجابة لدعوة أميرها • فاستغرقت السفرة يومين عدنا بعدهما الى بريدة •

وفى خلال الاحاديث التى كنا تتبادلها مع الامام فى اجتماعاتنا المتعددة فهمت أنه لم يكن يرغب فى نشر التعليم بين أفراد الشعب ، وان اصراره على تحريم التدخين انما يعود الى رغبته فى أن ينبذ الشعب السعودى جميع المكيفات بما فيها الدخان • وقد روى لنا يوما قصة العقل المقصب ، فقال ان آل سعود يرتدون العقل المقصب من قديم الزمان ، الا انه - أى عبدالعزيز - أقسم أن لا يلبسه حتى ينتقم من عدوه ابن الرشيد ، وبقي يرتدى العقل الاسود حتى اليوم الذى حملوا اليه ختم ابن الرشيد بعد مقتله ، حينئذ نادى ان اتونى بعقل مقصب ، فلما أحضره وضعه على رأسه بين الهتاف والاهازيج •

غادر الركب بريدة فى صباح ٢٨/١١/١٩١٤ ، وكان عدد رجال الامام لا يزيد على خمسمائة فى بداية الأمر ، الا انه كان ينضم اليهم كل يوم حوالى السبعين رجلا من الاماكن التى يمر بها الركب • كنا نسير كل يوم أربع ساعات ، ثم نستريح فى الخيام حتى اليوم التالى • وكنت أنا والسيد طالب نقيم فى خيمة كبيرة معا • وصلنا الزلفى فى ٤/١٢/١٩١٤ واذا بمجموعة من الرسائل تنتظرنا فيها من أصحابنا وأقربائنا فى البصرة ، يخبروننا بدخول الانجليز الى البصرة بعد ان حلت الهزيمة بجيش العثمانيين فى ١٩/١١/١٩١٤ فوقع علينا النبأ وقوع الصاعقة • وكانت الصدمة عيفة جدا بالنسبة للسيد طالب ، الذى يعلم مدى كره الانجليز له ، واستحالة التحاقه بالعثمانيين ، بعد ان أصبح محققا لديه رغبتهم فى التخلص منه بالرغم من المساعدات الجمة التى قدمها اليهم مؤخرا •

وفى الحال اجتمع أصحابنا فى خيمتنا للمداولة فى التطورات الجديدة • ثم دخل الامام أيضا وتلى علينا الرسائل التى وردت اليه من البصرة بهذا الشأن ، وأبان عقم المحاولة التى نحن مزعمون القيام بها بعد هزيمة الجيش العثمانى • لذلك اقترح التوقف عن السير ، فسلمنا جميعا برأيه • ثم انتقل

الحديث الى موقف السيد طالب الذى أصبح معضلة عويصة • فأبدى الامام استعداداه لأن يولى السيد طالب امارة الاحساء ، فأبى طالب ذلك وشكر الامام على كرمه وعطفه •

وبعد مداولات طويلة قر رأى الاكثرية على أن يستسلم السيد طالب للانجليز ، بشرط أن يوافقوا على ذهابه الى بومبي ، ويضمنوا له حرية العيش والتنقل فيها ، ريثما تضع الحرب أوزارها فيعود حينذاك الى بلده •

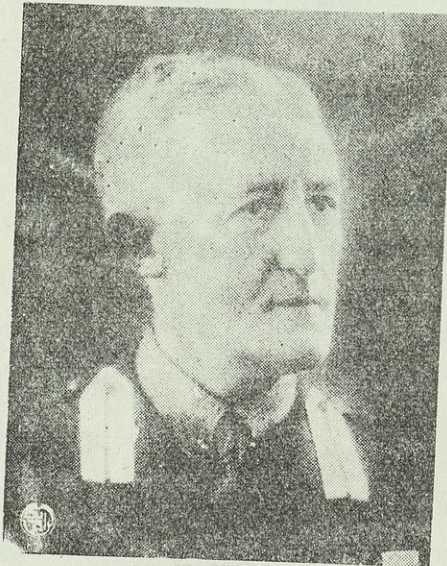
حرر الامام كتابا الى السر برسى كوكس يعرض فيه هذه المقترحات ، وكتب السيد طالب رسالة الى كوكس أيضا بهذا الشأن • بقى اختيار من يقوم بمهمة حمل الرسالتين الى كوكس ومفاوضته وأقناعه ، فاقترح الامام أن أقوم أنا بهذه المهمة ، ونال اقتراحه ترحيبا من طالب وبقية الحاضرين ، فوافقت عن طيب خاطر • وفى الحال أمر ابن السعود بتهيئة لوازم القافلة الصغيرة المؤلفة منى ومن ثلاثة من البدو ، أحدهم شمري وثانيهم مطيرى وثالثهم من العجمان ، وهم ينتمون الى القبائل الثلاث الرئيسية التى تقطن فى الطريق بين الزلفى والبصرة •

تحركت القافلة مساء ذلك اليوم فى طريق (الباطن) المعروف ، وكنت أطوي الليل والنهار فى السير ذلولى النسيطة ، وكان جل طعامى من المعلبات التى زودنى بها الامام • ولما أوشكنا على اجتياز موقع « الرقعى » القريب من الكويت ، هاجمتنا كوكبة من الفرسان الشمريين لا يقل عددهم عن ثمانين ، فاضطرونا الى التسليم ؛ وأبقونى فى الأسر ظنا منهم بأننى السيد طالب • وكان على أن أحاول الافلات من هذا الأسر بأى وسيلة كانت لكى أصل البصرة قبل فوات الأوان • ولما كان مثل هذا الغزو منتظرا فى مسالك الصحراء ، فقد احتطت للامر بأن أوصيت رفاقى الثلاثة بإخفاء شخصيتى الحقيقية ، متظاهرا بأنى ضابط عثمانى أرسل الى نجد لغرض التقريب فى وجهات النظر بين الامام وابن الرشيد وحثهم على توقيع الهدنة • فانطلت الحيلة على الشمريين ، وتكفلوا باطلاق سراحى حالا ان أنا أقسمت ألا

أخبرن أحدا من السابلة بأمر ذلك الكمين ، فأقسمت وأستأنفت السير بأقصى سرعة ، حتى وصلت الزبير في مساء ١٢/٨/١٩١٤ • نزلت في ضيافة الشيخ خالد والشيخ عذبي آل صباح ، وأرسلت كتابا الى أحمد الصانع أستفسر منه عن وجود محذور من دخولى البصرة بالنسبة للسلطات البريطانية ، فأجاب بالنفى ، فدخلت المدينة ليلا •

طالب في الأسر

في صباح ٩/١٢/١٩١٤ قابلت السر برسي كوكس ، وقدمت اليه كتابي الامام والسيد طالب ، وأنكرت القصد الحقيقي من ذهابنا الى نجد ، مدعيا بأن سفرنا الى هناك كان فرارا من الترك ، ورويت له خبر الكتاب السري الذي أرسله جاويد باشا الى صبحي بك حول اغتيال السيد طالب • ولشد ما عجبت اذ أخرج كوكس الكتاب المذكور بالذات وقال ، مؤمنا على قولي ، بأن رجاله عثروا عليه في حقبة صبحي بك عند وقوعه في الأسر قرب القورنة •



السر برسي كوكس

أطرق كوكس مليا بعد هذا الحديث ، ثم طلب الي أن أوافيه في صباح اليوم التالي • فلما ذهبت أخبرني بموافقته على الاقتراح ، وسلمني كتابا الى الامام وآخر الى السيد طالب ، ووعدني وعدا قاطعا بأن طالبا سوف يلقي من السلطات المسؤولية في يومى غاية الاكرام • ثم زودني بجوازات سفر له ولولديه وبعض خدمه ، واختار الباخرة التي تغادر الكويت في ٩/١/١٩١٥ واسطة لسفرهم •

أرسلت الكتابين مع كافة المعلومات الى نجد بيد ساع خاص ، ولبتت في البصرة حتى يوم ١٩١٥/١/٦ ، أى قبل موعد سفر سيد طالب الى الهند ثلاثة أيام . حينئذ ذهبت الى الكويت لتوديعه ، فلما وصلتها وجدته قد بلغها قبل بسويغات فقط .

وجدت طالباً فى هذا اللقاء غير طالب الذى عهدته من قبل ، فقد كانت معنوياته منهارة ، وقد ساورته الهموم وأتتبه الوسواس ، فاختفت تلك القوة الكامنة وراء نظرائه ، وتضاءلت تلك الصلابة المتناهية فى شخصيته . فرثت فى سرى لحاله ، وعصف بي الالم ، وتمنيت لو استطعت التسرية عنه . ثم ناولنى كتاباً من ابن السعود هذا نصه :-

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل الى جناب الاكرم الأ مجد الافخم
حضرة الاخ المكرم سليمان فيضى المحترم دامت معاليه آمين .

بعد أهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام والسؤال عن تلك الذات البهية والاخلاق الرضية . ان سألتكم عنا فله مزيد الشكر طيبين ولروابط المحبة والصدقة مراعين . أحوالنا جميلة تسركم من كافة الوجوه . أخذنا كتبكم الكرام سرنا سلامتكم وبما ذكرتم صار لدى المحب معلوم خصوصاً عما أبدىتموه شاكرين همتكم ولا زلتم موفقين . ومن خصوص أحوالنا وجميع مافى الحاطر حضرة محب الجميع الأخ السيد طالب بك يبلغكم به شفاها أن شاء الله .

وهذا ما لزم بيانه نرجو دوام مودتكم واتصال أخبار سلامتكم والسلام على من يعز عليكم ومنا الاخوان والاولاد يسلمون والسلام .

فى ١٥ صفر سنة ١٣٣٣ هـ

عبدالعزیز بن عبدالرحمن السعود

خان يوم سفر السيد طالب ، فأرسل الي كتابا مفتوحا معلنونا الى أخيه السيد يوسف النقيب في البصرة يوصيه فيه بأن يعطيني احدي عرباته مع خيلها • فلما قرأت الكتاب رحت أجول في أنحاء القصر باحثا عنه ، فوجدته متكئا على سياج الشرفة ينظر الى البحر ، وقد علت وجهه سحابة من الكآبة ؛ فبادرته قائلا بأن اهداءه العرببة اليّ ليس الا مظهرا من مظاهر الكلفة التي كانت قد رفعت بيننا منذ زمن بعيد • لذا اقترحت عليه أن يهديها الى غيري من أصدقائه • فأجابني قائلا :

أخي سليمان ، والله لا أدري كيف أكافئك على اخلاصك لي وحبك ولكن ...

فلا شكرنك ما حيت وان أمت فلشكرنك أعظمي في قبرها
وما ان أكمل هذا البيت الا وسالت الدموع من عينيه • فتأثرت لمنظره تأثرا شديدا • • ذلك الرجل الحديدي الذي دوّخ الدولة العثمانية واستهان بسلطانها وصرع قادتها • • انه الآن يبكي في انتظار الباخرة التي تقله الى منفاه • فقبلته وقلت له :

لا تيأس من رحمة الله ، ان الله يدبر الأمور •

ثم ناولته جوازات السفر له ، ولولديه نجم الدين وتوفيق ، وللطاهي والحلّام •

وصلت الباخرة بعد الظهر ، فصعد اليها طالب وصحبه ، وأبحرت بهم ميممة شطر بومبي • وقفت على ساحل البحر أرقبها وهي تختفي عن الانظار وقد حملت على ظهرها أعز أصدقائي وعصيدي في الكفاح ، فوجدتني وسط فراغ هائل لا يمكن سده ، واستسلمت لحزن عميق وألم ممض • وفي صباح

اليوم التالي قفلت راجعا الى البصرة ، بعد أن قبلت هدية الشيخ مبارك ، وهي عبارة عن عباءة فاخرة .

أخذت كتابا من طالب ينبئني بوصوله بومبي وإقامته فيها . ثم جاء الكتاب الثاني يقول فيه ان الانجليز نقلوه من بومبي الى قرية تسمى (بانكالور) ، ويرجو مني أن أذكر السر كوكس بالعهد الذي قطعه لي في الأُس القريب . راجعت كوكس وأطلعته على الكتاب ، فأجاب بأنه كان صادقا في وعده ، الا ان حكومة الهند لم توافق على بقاء طالب في بومبي ، وانه ليس في استطاعته ارغامها على ذلك ، فبعثت الى السيد طالب بجواب كوكس .

علمت بعد ذلك أنه بعد مغادرتي نجد وصلها الكابتن شكسبير ، وقابل الامام في (الحنية) قرب (الجمعة) ومن ثم أقام عنده . فلما حدثت المناوشات بين ابن السعود وبين سعود الرشيد في ١٩١٥/١/٢٤ التي خضرها الامام بنفسه مستصجبا منه الكابتن شكسبير ، لقي هذا الاخير حتفه في المعركة ، فتأثر الامام تأثرا بالغا لمقتل صديقه .

البصرة في عهد الاحتلال الانجليزي

أدى انتقال الحكم من أيدي العثمانيين الى الانجليز الى حدوث تبدلات جوهرية في حياة الناس ، وفي القيم الاجتماعية والسياسية للأفراد ؛ أو بالأحرى ان الاحتلال الانجليزي للبصرة كان بمثابة انقلاب حاسم في مختلف نواحي الحياة فيها . فحين عدت الى المدينة كان الكثير من أوصافها قد تغير ، فبرزت الى الميدان طبقة جديدة من التجار والمتعهدين والوجهاء ، بالغت في الترحيب بالاحتلين الجدد ، وربطت مصالحها بمصالحهم . بينما ناوأ المستعمر اولئك الذين أعرضوا عن اتمرغ على أعتابه ، وربأوا بأنفسهم من التهاك على نيل مرضاته .

أغلق الانجليز المحاكم المدنية في البصرة ، فاضطرت الى امتحان مهنة أخرى غير المحاماة ، وأسست محلا تجاريا للاستيراد والتصدير في البصرة ، ثم وسعته ونقلته الى العشار التي أكسبها الاحتلال أهمية تجارية عظيمة .

وقد ظننت باديء الامر ان اشتغالي فى الامور التجارية سوف يعيدني عن جو السياسة ، ويوفر عليّ الانعاب التى قد تنجم عن الاحتكاك بالسلطات الحاكمة . ولكن الأمر فى الحقيقة لم يكن كذلك ، فان الجواسيس الذين بشهم الانجليز فى أنحاء المدينة كانوا يهددون السكان الآمنين بوشاياتهم وتقاريرهم ، وكان العقاب الذى يلحق بالضحايا الأبرياء هو النفي الى الهند ، حتى جاوز عدد المنفيين من أهالى البصرة المئات . وكنت أرى ان الجو بيني وبين الانجليز أخذ بالتلبّد . عدت يوما الى دارى فوجدت بطاقة زيارة باسم الاستاذ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المصرية ، وقد كتب على ظهرها ما يأتى :-

ان محب الدين الخطيب وعبد العزيز العتيقى قد توجهوا الى البصرة بمهمة سياسية فأرجو أن تروج مهمتهما .

أسرعت الى محل اقامتهما فعلمت أن البوليس قد أوقفهما ، فذهبت الى الموقف وعينا حاولت مكالمتهما هناك . وبعد أيام علمت ان الانجليز أعادوهما الى مصر مخفورين . وحدثت بعد ذلك بعض الحوادث التى كشفت عن غطرسة الانجليز ، واعتدادهم بأنفسهم ، ونظرتهم الى الشعوب الخاضعة لحكمهم ، مما جعلني أسرف فى الابتعاد عنهم . ومن جملة تلك الحوادث ان المستر بولارد ، الذى كان قنصلا لبريطانية فى البصرة فى عهد العثمانيين ، والذى كان يعتز بصداقتى الشخصية حتى انا كنا تبادل الزيارات فى المناسبات والاعياد ، أقول انه أصبح بعد الاحتلال مديرا للمالية فى البصرة . وصادف اني رعبت فى استئجار أرض تعود للموقف لوضع بعض البضائع عليها ، فانفقت واياه - بصفته مديرا للمالية - أن نخرج للكشف عليها لتقدير أيجارها . فحضر لى فى الموعد المعين ، ولم تكن عربتي قد حضرت بعد ، فاقترح أن نستأجر عربية توفيراً للوقت ، فوافقت ، وصعد هو قبلي فجلس على مقعدها الخلفي وأشار اليّ بالجلوس على المقعد الصغير أمامه . فاشمأزت نفسى من هذه العجرفة

الطارئة ، وقلت له بلهجة قاسية : اذهب أنت بهذه العربة وسوف اوافيك الى هناك بعربتي الخاصة .

فلما حضرت عربتي ذهبت بها ، فوجدته ينتظرنى ، واستقرض منى روبية دفعها لسائق العربة . وبعد ان كشف على الارض عدنا بعربتي ، فلما أوصلته الى دائرته قلت له : لا تتعب نفسك بتقدير هذه الارض فلست أرغب فى استئجارها بعد اليوم . قلت هذا وانصرفت بعربتي مسرعا . وفى صباح اليوم التالى وردني كتاب اعتذار وشكر على الروبية !! .

وفى تلك الفترة كنت مواظبا على مراسلة السيد طالب فى منفاه . وكانت رسائله تصلنى بصورة منتظمة مرة كل اسبوع ، كما ان رسائله الى عائلته كان يرسلها بواسطتى . وفى ذات يوم أرسل الى أحمد الصانع كتابا يشكو فيه الوحدة ، ويتمنى لو ان أحمد الصانع يستطيع اقناعي أو اقناع عبدالله صائب للذهاب الى الهند والاقامة معه وتسليته فى منفاه ، وكان عبدالله صائب فى ذلك الحين قد غادر البصرة سرا الى بغداد ، ليجد فيها عملا يكسب منه بعد أن سد الانجليز أبواب الرزق . ولكنه بمجرد وصوله الى بغدادلقى الاتراك القبض عليه ، وأودعوه السجن مكبلا بالقيود ، بتهمة صداقته للسيد طالب وفوزه بنيابة البصرة خلافا لرغبة الحكومة الاتحادية .

فلما اطلعتني أحمد الصانع على الكتاب الآنف الذكر آلمتني اللهجة الحزينة التى عبّر فيها طالب عن تعاسته وشقائه فى منفاه . فأخبرت أحمد باشا باستعدادى للذهاب الى بانكالور ، حالما توافق السلطات الانجليزية على ذلك ، تاركا ورائي زوجتي وأطفالى ، ومودعا تجارتي بيد عمى الحاج طه .

فما كان من أحمد باشا ، ازاء هذا الاخلاص المتناهي والتضحية العظيمة ، الا ابداء اكباره واعجابه الشديد بوقائي . قدمت فى الحال طلبا الى كوكس لآخذ موافقته ، فأجاب هذا بكتاب مؤرخ فى ١٠/٣/١٩١٥ بالرفض رفضا باتا .



عبدالله صائب

وهنا يتختم عليّ أن أسرد
الحاتمة المحزنة التي انتهت اليها
المرحوم الشهيد عبدالله
صائب • فانه حين أوشكت
بغداد على السقوط بيد
الانجليز ، صدرت الأوامر
الى الجيش التركي بالانسحاب ،
مستنصحا المسجونين
السياسيين ومن بينهم عبدالله
صائب ، فاقبضوا مكبلين
بالسلاسل وراء الجيش

المنهزم • حتى اذا صاروا الى الجسر العائم فوق دجلة أطلق الحراس النار
على عبدالله صائب فأردوه قتيلا ، وألقوا بجثته في النهر • فلحقت روحه
الطاهرة بأرواح اخوانه الشهداء الاحرار تشكو الى بارئها ظلم الترك
ويعطشهم •



لورنس فی العراق

الكاتبين لورنس في البصرة (١)

فى الساعة التاسعة من صباح الجمعة ٧ نيسان ١٩١٦ ، بينما كنت جالسا فى مكتبى التجارى دخل عليّ رجلان أحدهما المدعو الياس يلدا من أهالى البصرة ، وثانيهما شاب مصرى لم أعرف اسمه ، وقدا اليّ الكتاب التالى :-

البصرة ٧ أبريل ١٩١٦

حضرة الأكرم الافخم سليمان فيضي أفندي المحترم
أسعد الله أوقاتكم • بعده أرجوكم تشرفون الى محلي اليوم نومرة ٦
درب الاعوج فى العشار لاجل المواجهة ودمتم •

دائرة الاخبار العسكرية

C.C. More, Capt.
General Staff, Intelligence.

والكاتبين مور هذا كان قبل عهد الاحتلال قنصلا لبريطانيا فى الكويت ، ولم تكن لي به معرفة سابقة • فلا غرو أن يثير كتابه هذا مخاوفى في زمن كان الرجال يساقون فيه الى السجون والمنافي سوق الاغنام الى المجازر •

طلبت من الرجلين أن ينصرفا اولا ثم الحق بهما ، فأبيا وأخبراني بأنهما أمرا بأحضاري حالا الى دائرة الاستخبارات • فأوجست خيفة وتعوذت بالله • ثم استمهلتهما لحظة ، وأخرجت ما كان فى صندوقى الحديدي من أوراق نقدية ، وأسرت الى كاتبى بكتمان الخبر ريثما أعود ؟ فاذا لم أعد فى المساء فليعتبرنى موقوفا ، وليخبر أهلي وأصحابى ليرسلوا الي فراشى والبسنى • خرجت مع الرسولين فأخذنا عربية ، ولحظت أنهما كانا يكلماني بلطف وتأدب ، ثم أخبراني بأن الكاتبين مور أوصاهما بوجوب معاملتى بكل تجلّة

(١) نشر هذا الفصل فى ثمانية أعداد من جريدة « صوت العراق » لسان حال حزب النهضة • وذلك فى الأعداد ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ وتاريخ ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٧ و ١٨ تشرين ثانى سنة ١٩٢٩ •

واحترام ، فتذكرت الاحترام والتودد الذي لقيته من الماجور كريكس مدير الشرطة ، ورغبته فى تناول الشاي فى ضيافتي فى نفس اليوم الذي أجرى فيه تفتيش داري . فأيقنت أن توصية الكابتن مور لا شك مقدمة لنفي أو سجنى . وطفقت أفترض الفروض السيئة فيما لو أرسلت الى المنفى ، وتوقفت أعمالى التجارية ، وتبعثت أموالى ، وما سوف يحل بعائلتي من نكبات الخ بينما كانت العربية تدلف الى الزقاق القدر الذي أسماه الكابتن درب الاعوج .

توقفت العربية أمام بناء قديم ، فترجلت وزميلاي ودخلنا الدار ، فطلبا مني الانتظار برهة فى فئائها ريشا يشعران الكابتن بحضورى . وما أسرع ما خرج هذا فاستقبلني بالترحاب ، ثم أدخلني الغرفة .

كانت الغرفة فسيحة ، صفت فى جانب منها بضعة كراسى حول طاولة صغيرة ، ووضعت فى الجانب الآخر منضدة الكابتن مور . وكان واقفا بجوار الطاولة ضابط آخر بهي الطلعة برتبة كابتن ، يحلي كتفيه بشارات الاركان القرمزية ، افتر ثغره عن ابتسامة عريضة غير متكلفة . قدمني الكابتن مور اليه ثم قدمه اليّ قائلا : - أقدم اليك الكابتن لورنس الذى طلب تنظيم هذه المقابلة الخاصة والتي أعقد انها على جانب من الخطورة والاهمية .

فتقدم لورنس وصافحني مصافحة تتم عن صداقة أكيدة خالصة ، وراح يرحب بي ويعبر عن اشتياقه الشديد للتعرف بي ، وتلهفه لهذه المقابلة ، كل ذلك بلهجة مصرية متقنة تكاد لا تدرك اللكنة الاجنبية فيها الا بعد لاي .

أما أنا فقد زایلني الكابوس الذى استولى على مشاعري فى الطريق الى هذا المكان ، وبدأت الطمأنينة تسرب الى نفسي تدريجا .

جلسنا نحن الثلاثة حول الطاولة ، ورحت أرشف القهوة التي قدمها لورنس اليّ ، واسترسل هو فى التودد اليّ وأكثر من السؤال عن صحتي واشغالى وراحتي ؛ وكان بين حين وآخر يعتذر عن ازعاجه اياي بهذه المقابلة .

و كنت أجيّب على أسئلته باقتضاب وحذر ، بينما رحت أحث الفكر عن سبب معقول لهذا التودد • إذ لم يكن من الجائز أن يبدي ضابط في جيش محتل ضروب المجاملة والملق لمواطن من بلد مستضعف • وكنت أخشى أن يكون قد حدث في الأمر التباس ، وإن المقصود بهذه الدعوة رجل سواي ، أو لعل هذا الضابط قد التقى بي يوما وجمعتنا صحبة عابرة فأراد أن يجددها ويحييها لأمر في نفسه ••• ولكن أين التقينا ومتى ؟ لست أذكر ، أو لعلني أكاد أجزم أن شيئا من هذا لم يقع البتة • ولما ضاق صدري ، بادرت بتوجيه بعض الأسئلة إليه ، لعلها تلقي على الغموض ضوءا : فسألته عن كيفية تعلمه اللغة العربية واتقانه لها ، فأجاب قائلا : - اني ربيت في بلاد العرب واني أحب العرب كثيرا •



لورنس

وباشارة من لورنس غادر الكابتن مور الغرفة وأغلق خلفه الباب ، فبقينا نحن الاثنين وحدنا •

لم تكن الثورة العربية في الحجاز قد نشبت حتى ذلك الحين ، ولم اكن أعلم من أمر لورنس شيئا ، فقد كانت أعماله واتصالاته في الحجاز والجزيرة العربية تحاط بالكتمان قبل نشوب الثورة • أما الشهرة

التي اكتسبها لورنس ، وأخباره العجيبة ، ومغامراته الجريئة ، فقد ذاعت بعد الثورة المذكورة في ١٠ حزيران عام ١٩١٦ ، أي بعد مقابلي له بشهرين •

اختارني الانجليز لقيادة الثورة ...

وبعد انفرادنا في الغرفة جرت بيننا المحادثة التالية ، أسوقها الى القاري الكريم بأمانته ، واذا كانت السطور الآتية تختلف عن حديثنا في شيء فانما في الالفاظ وليس في المعاني • ورغبة مني في الاختصار فسوف أرمز الى لورنس بالحرف « ل » والى اسمي بالحرف « س » :

ل - اني وصلت البصرة هذا الصباح قادما من مصر لغرض الاتصال بك شخصيا ، لذلك طلبت حضورك الى هنا حال وصولي •

س - أشكرك ، وأرجو أن تسامحني اذا سألتك عما اذا كان أحدنا قد تشرف بمقابلة الآخر قبل اليوم •

ل - كلا ، لم يسبق ان تعرف أحدنا على الآخر ، ولكني أعرفك جيدا ، أو بالأحرى أعرف عنك الشيء الكثير ، خاصة عن أعمالك •

س - كيف ولماذا عرفتي ؟ ثم ما الذي تعنيه بأعمالي ؟ •

ل - أعني أعمالك السياسية • قلت اني أعلم كل شيء عنك فأرجو أن تخبرني بالحقيقة كاملة • حدثني عن جمعية العهد وعن مدى قوتها •

س - لا توجد جمعية بهذا الاسم ولا غيره ، كما وانني لم أسمع عن وجود أية جمعية في البصرة منذ الاحتلال •

ل - أرجو أن لا تخف عني شيئا •

س - تأكد انه لم يبق لتلك الجمعية أو لغيرها أثر في عهد الاحتلال ، كما وانني شخصيا نفضت يدي من كل موضوع يمت الى السياسة بصلة ، وقد حصرت جل همي في اشغالي التجارية وأموري الخاصة •

ل - ألم تكن قبل الحرب نائبا معارضا للاتحاديين في مجلس النواب العثماني ؟

س - نعم كنت •

ل - ألم تكن منتسبا الى حزب اللامركزية وجمعية العهد ؟ •

س - نعم كان ذلك قبل الحرب أما الآن ••

ل - ألم تعمل على بث الفكرة القومية العربية في العراق لا سيما في الموصل ؟
س - نعم هذا صحيح •

ل - أخالك لا تزال حذرا مني ، فلكي أزيل هذا الحذر أبلغك تحيات بعض أصدقائك ، الذين طالما أثنوا على كفاحك في سبيل القضية العربية ، وأطروا جهادك في مضمار القومية ، مما حدا بي الى مقابلتك والاعتماد عليك لانجاز مهمتي الخطيرة • أما أولئك الاصدقاء فهم عزيز علي ، والسيد رشيد رضا ، ورفيق العظم ، وحقى العظم ، وحسن خالد الصيادي •

س - أشكرك على ثقتك بي ، كما أشكرهم على حسن ظنهم وجميل ثنائهم •
اني في الحقيقة لم أقم بعمل يستحق الذكر •

ل - هذا تواضع • على كل فاني أرجو أن تكون الآن في غاية الاطمئنان ، وأن لا تتخش بأسا • اني أثق بك وأصدق كل ما تقوله ، فأخبرني عن جمعياتكم وعن مدى قوتها • انك تعلم اننا أعداء الترك ، وزيادة على ذلك فاني أعاهدك على كتمان المعلومات السرية التي سوف تدلي بها الي •
س - تأكد انه لا توجد الآن في البصرة أية جمعية • وكل ما ذكرته كان قبل الحرب •

ل - ما هو مدى اتصالك بعزيز علي ؟

س - لم يسبق ان قابلته ، وانما تجمعتني واياه رابطة المبدأ • عرفته قبل أن يعرفني لصيته الذائع • أما هو فقد عرفني يوم سجن في الاستانة وحكم عليه بالموت ؟ فكان فريق من أصحابه ، وبعض أقربائه ، ولقيف من أعضاء جمعية العهد والضباط العرب يجتمعون في داري بالاستانة لتدبير أمر نجاته ، حتى يسر الله أمر خروجه من السجن وسفره الى مصر •

ل - كيف ومتى عرفت السيد رشيد رضا ورفيق العظم وحقى العظم وحسن خالد ؟

س - تعرفت بالسيد رشيد رضا حين زار البصرة قبل خمس سنين ، ثم التقينا مرارا في مصر • أما الآخرون فقد تعرفت عليهم أثناء زيارتي لمصر في الطريق الى الاستانة • هذا علاوة على الاتصال الكتابي والمراسلة المستمرة التي كانت بيني ، بصفتي سكرتيرا للجمعية الاصلاحية وحزب الائتلاف ، وبينهم بصفتهم أقطاب الفكرة العربية •

ل - ما هي علاقتك بياسين الهاشمي ؟

س - اني أعرفه مذ كنا طلابا في المدرسة ، ثم توثقت صداقتنا عندما ذهبت الى الموصل عام ١٩١٢ لغرض تأسيس جمعية اصلاحية فيها ، ولبت الفكرة القومية العربية بين أبنائها • وكان ياسين في ذلك الوقت قائدا لحامية الموصل ، وكان هو الآخر متحمسا للفكرة ، فكان يعينني في مهمتي ويسهل لي الاجتماع بالضباط العرب سرا •

ل - أتدري أين هو الآن ؟

س - كلا •

ل - انه في أدرنة قائدا لحاميتها • وقد أرسلته الحكومة الاتحادية الى هناك بعد أن افتضح أمر انتمائه الى جمعية العهد •

س - لم أكن أعلم ذلك •

ل - أتعرف نوري الشعلان ؟

س - كلا •

ل - ماذا تعلم عن محمد النجيفي من أهالي الموصل ؟

س - أعرفه • فهو من وجهاء الموصل •

ل - انه اتحادي أليس كذلك ؟

س - حينما كنت في الموصل علمت انه اتحادي ، كذلك كان الكثيرون غيره •

ل - هل تربطك بالأمير عبدالعزيز السعود معرفة أو صداقة ؟

س - عرفته شخصيا منذ سفرتي الى نجد بصحبة السيد طالب النقيب . لقد
نزلنا في ضيافته ولقيت منه محبة وتوددا ، حتى انه فاتحنى أكثر من
مرة طالبا بقائي في خدمة امارته ، فاعتذرت .

ل - هل تعرف الشريف حسين شريف مكة ؟

س - نعم قابلته مرتين أو ثلاثة في مكة سنة ١٩١٠ أثناء وجودي فيها لاداء
فريضة الحج .

ل - هل تعرف أحدا من أولاده ؟

س - تعرفت على الشريف فيصل نائب جدة في مجلس النواب العثماني حين
كنت نائبا عن البصرة . ورأيت الشريف عبدالله في مكة والاستانة دون
أن يحصل بيننا تعارف .

ل - أتدري أين الشريف فيصل الآن ؟

س - كلا .

ل - انه الآن في الشام .

س - ليس لي علم بكل ما يجري في البلاد العثمانية ، بسبب انقطاع البريد
بين البصرة وبين الاقطار العربية التي لا تزال في قبضة الاتراك .

ل - من تعرف من أهل سوريا ؟

س - لي أصدقاء كثيرون هناك مثل محمد كرد علي واخوانه ، وشكيب
أرسلان ، وفوزي العظم ، وشكري العسلي ، وعادل أرسلان ، وبيديع
المؤيد ، وعبد الحميد الزهراوى ، وسليم الجزائري ، وفارس الحورى ،
ومحمد بيهم ، وسلام علي سلام ، واحمد طيارة ، والشيخ عباس
الازهرى ، وبشير القصار ، وعبد الغنى العيسى ، وطه المدور ، وعمر
حمد ، وعبد الكريم قاسم الخليل ، وغيرهم .

ل - هل تعرف عبدالرحمن باشا اليوسف ؟

س - نعم •

ل - كيف ترى وضع الضباط العرب فى الجيش العثماني الآن ؟

س - أعتقد ان أكثرهم غير مرتاح من الترك •

ل - هل تعلم السبب الذى حدا بي الى القدوم الى البصرة ومقابلتك ؟

س - لا أبدا •

ل - غاية جلية جدا ، فيها استقلال بلادك وسعادة العرب فى مختلف أقطارهم ، وفيها تقدمك مغنويا واستفادتك ماديا اذا عاضدتى وأنجزت المهمة التى سوف أعهد اليك القيام بها •

س - يا حبذا سعادة البلاد واستقلالها • ولكن كيف يتسنى لي أن أعاضدك وأنا فرد • وما هو هذا العصد الذى ترتجيه مني يا ترى ؟

ضرب على الوتر الحساس

وهناك اعتدل لورنس فى جلسته ، وأطرق قليلا كمن يستجمع شتات فكره ليصوغ عبارات الحديث الخطير الذى سوف يدلي به ، ثم تابع حديثه قائلاً :-

ل - اني شغوف بحب العرب ، مفتون بسجايهم ، حريص على كل ما ينفعهم • وقد سنحت لي الفرصة الآن لتحقيق أمنيته بتقديم خدمة عظيمة اليهم ، وخاصة العراقيين منهم ، بأن أعمل على انالهم استقلالهم • انها يا سيدى فرصة ذهبية ، ذلك ان أكثرية الشعب الانجليزى لا تترتاح الى استعمار بلاد جديدة بعيدة عن الجزر البريطانية ، وهذه الاكثرية الشعبية تسند حزب الاكثرية فى البرلمان • فمن الواضح ان ان لا تفكر الحكومة البريطانية فى استعمار البلدان التى سوف تصبح تحت الاحتلال البريطانى بعد الحرب ، وهى بدون شك عازمة على افساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها ، بشرط ان

يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال ، وان يبرهنوا على رغبتهم فيه .

وهناك على ما أعتقد وسيلة واحدة لتحقيق ذلك ، ألا وهي الثورة ؛ فإذا أعلن العرب الثورة على الاتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال ، والحرية . أما اذا قبعوا في دورهم ، آملين أن تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك أمر غير معقول ، خاصة وان بريطانيا مسؤولة أمام حلفائها عن تصرفاتها تجاه الشعوب الخاضعة للحكم العثماني . اذن فلا بد من الثورة لتسال البلاد العربية استقلالها . وقد فوضتني الحكومة البريطانية لاشغال تلك الثورة وبذل ما يلزم لها من المال والسلاح وغير ذلك ، كما خولتني حق اتخاذ جميع الوسائل والطرق التي تكفل نجاحها . واني قد احترت لتقوم بمهمة اذكاء نار الثورة ، بعد الذي علمته عنك من رجال القضية العربية البارزين في مصر . فان أقدمت فانك واجد كل ما تحتاج اليه من وسائل هذه الثورة ، فسأضع تحت تصرفك البنك بكل أمواله ، وسيمدك الجيش بما تشاء من السلاح . فهيا الى العمل في سبيل القضية العربية وفي سبيل استقلال بلادك وحرية قومك .

س - انتك غير موفق على ما أظن في اختيارك اياي للقيام بمثل هذا العمل الجبار . فأنا رجل متحضر لا تعضدني عشيرة ، وأنا متوسط الحال ليس لي نفوذ الاثرياء وسطوة الاقطاعيين . انتك بحاجة الى رجل ذي نفوذ عظيم وشهرة واسعة بين الناس ، وأنا لست بهذا ولا ذاك . أضف الى هذا شعور العداء الذي يكنه العراقيون لبريطانيا بعد الذي لمسوه من معاملة سيئة وازدراء مشين على أيدي رجالها العسكريين .

ل - ربما كنت أنت الواهم ياسيدى فيما ذهبت اليه ، فليس النفوذ والثروة هما كل شيء في الموضوع ، وسيكون المال الذي وعدت به كفيلا بسد احتياجك وعامل على جذب الجمهور اليك . أما النفوذ الذي ذكرته

فليس أهون من تدبير أمره ؛ ذلك بأن تنصب لك خياما عديدة فى جهة من البصرة ، وتلحق بخدمتك عددا كبيرا من الحرس والخدم والتابعين ، وتهيء الزاد للوافدين والضيوف ، وتجزل الهدايا وتمنح العطايا للانصار والمؤيدين . حينئذ سيقبل عليك الناس أفواجا أفواجا ، ويلتف حولك الاعراب ، فتصبح رئيسا مطاعا وسيدا لجيش كبير . أما ما ذكرته من كره الشعب العراقى للانجليز فليس بذى بال ، وهو شعور موقت سيزول حتما فى مدة وجيزة .

س - ان خطتك قد تنجح على شرط ان يقوم بها رجل آخر ، ولعل السيد طالب باشا النقيب يستطيع أن ينجز هذه المهمة على الوجه الاكمل ، فلماذا لا تفاوضه فى منفاه بالهند .

ل - ان الحكومة تفضل بقاء السيد طالب فى الهند . فأرجو أن تعتمد على نفسك وأن تثق بمقدرتك ، واعلم ان للاخلاص والمقدرة أهمية أعظم بكثير من النفوذ والمال .

س - لقد أبنت رأيي صراحة بأنني لا أستطيع القيام بهذا الامر ، فأبحث عن غيرى ، ولك مني الارشاد . أذهب الى أحمد باشا الصانع وفأوضه لعله يقبل ، فهو ذو كلمة مسموعة فى البصرة وذو علاقة متينة بعشائره المنتفك .

ل - ان المقدرة والعلم يؤهلان المرء للقيام بأخطر المهام . فأرجو أن توافق على قيامك شخصيا بهذا الواجب المقدس دون أن ترشدني الى أحد سواك .

س - قد يكون للمقدرة والعلم المقام الاول فى تقدم الرجال عندكم ، أما هنا فالناس يلتفون حول ذوي الالقاب وأصحاب الجاه العريض والغنى الفاحش .

ل - دعنا من الجدل ، واقدم على الامر اقدام الواثق من الفوز ، ولك من المال الذى أضعه تحت تصرفك عوننا وأي عون .

س - لا يخفأك اني أمارس التجارة فى الوقت الحاضر ، ولني مع سائر أنحاء الهند والخليج علاقات تجارية واسعة • أفلا تتصور مقدار الأضرار التي سوف تلحق بي وبعملائي لو اني أقدمت على هذا العمل •

ل - تفضل وقدّر الأضرار التي تتصور انها ستلحق بك ، فأدفعها لك شيكا على البنك حالا •• كعربون • ان الثروة التي تنتظرك لو أقدمت على العمل لعظيمة جدا ، وما أرباح التجارة بالنسبة اليها الا كقطرة فى بحر •

س - هب اني نلت ثروة عظيمة • أفلا تظن ان الترك سوف ينتقمون من أبي وأخوتي وأقربائي فى الموصل ، وربما أصاب السوء أصدقائي ومعارفي فيها أيضا • ان الترك لا يغفرون لي مثل هذا العمل ، ولا أهلي الذين سيذهبون ضحية أقدامي عليه •

ل - ان من يطلب الاستقلال لبلاده ، والمجد لشعبه ولنفسه ، يهون عليه حتى مقتل أبنائه فى سبيل ذلك •

الصراحة أجدى ...

وهنا اعتدلت فى جلستى ، وعزمت على أن أصارحه بوجهة نظرى الحقيقية :-

س - أريد الآن أن أصارحك بالحقيقة كاملة ، اذا ضمنت لي السلامة وكنمان الحديث •

ل - اني أرجو أن تصرّح بكل ما يجول فى خاطرك ، ولك عهد بكنمان السر •

س - اني شخصيا لست أرى مبررا الى الانتقام من الترك ، اذ ليس بيننا وبينهم عداة ، وانما العداة مستحکم بينهم وبينكم فحسب •

ل - عجيب ما تقول • أليس الترك أعداءكم ؟ ألم يستعبدوكم القرون الطوال ؟ ألم تحاربوهم بالسيف وأقلامكم ؟ أما انتظمت فى جمعيات سرية وتآمرتم على حكمهم ووددت لو أخرجتموهم من دياركم ؟

س - لا تعجب مما قلت • فالترك لم يستعبدونا بالمعنى الصحيح ، لقد كان

العربي والتركي سواسية أمام القانون ، وكانت أبواب الوظائف الحكومية ومراتب الجيش مفتوحة للجميع ، فبإمكان التركي أن يرقى في المناصب حتى يصبح واليا أو وزيرا ، كذلك العربي ان هو أثبت أهلية وجدارة ؛ ولم يكن بين الموظفين في البلاد العربية غير القليل من الاتراك ، أما الاكرية فقد كانت من أبناء البلاد . أما نضالنا في السر والعلن ضد الحكومة العثمانية فكان في نطاق الشؤون الداخلية ، ولغرض الحصول على بعض الحقوق المشروعة التي كانت الحكومة قد أنكرتها على الشعوب العربية ، وللمطالبة بالاصلاح الداخلي بعد أن عم الحراب الدولة من أقصاها الى أقصاها . فكفاحنا والحالة هذه كان أشبه باختلاف حصل بين ورثة ، كل يطالب بحصة أكبر . واني أستطيع أن أخلص نقاط الخلاف الرئيسية بين الترك والعرب في : عدم عنايتهم بالمعارف في البلاد العربية ، واستعمالهم اللغة التركية في المحاكم والدواوين الرسمية ، واستغلالهم موارد الاوقاف في بلادنا لاصلاح الاستانة ، وفي بعض الامور الثانوية الاخرى ، فلو ان الترك تساهلوا في تحقيق هذه المطالب لزال الخلاف بيننا وبينهم . وانه لو لم تفاجئنا الحرب لكانت البلاد العربية قد نالت أكثر مطالبها بدون اللجوء الى القوة . فمئلا ان الحكومة الاتحادية يوم شعرت بانتوائى فضح سياستها في الاحساء استرضتني باتخاذ اللغة العربية لغة رسمية في محاكم العراق وذلك قبل نشوب الحرب العالمية بأشهر .

- ل - اذن أنت تحب الترك مع انهم لو ظفروا بك لاعدموك .
 س - تأكد اني لا أحبهم مطلقا ، بل وأنقم عليهم أكثر من ذي قبل بسبب اشتراكهم في الحرب وجرهم المصائب والويلات على بلادنا .
 ل - انك لو علمت ما صنع الترك بأخوانك السوريين لما ترددت في الانتقام منهم . ومهما يكن من أمر فأنتم يا معشر العرب تترجون تحت نير الحكم العثماني ، ولا بد لكم من تدبير حل لنيل حريتكم واستقلالكم .
 واستطرد لورنس يقول بلهجة مشجعة :

لا تستصعبن الاقدام على العمل ، فانه هين ونجاحه مضمون ، واذا شئت فباستطاعتي ان اجلب الى صفك من تعتمد عليهم من الضباط العرب العاملين فى القضية العربية ، وان احداً منهم لن يتقاعس عن الانخراط فى ثورتك لو دعوته الى ذلك . اكتب اليهم وانا اتعهد بايصال كتبك . وثمة طريقة اخرى تمهد امامك السبل لغزو جبهات العدو : المال ابعث الى القائد الفلاني (وهنا ذكر اسمه) بصره من الذهب فيغض عينيه قليلا ، حين تكون قواتك مندفعة صوب خطوطه . .

س - أما القائد فلا أعرفه ، وأما الضباط فلن يصدقوا ما يجيء بكلمي ، ظناً منهم بأنني كتبتها مكرها ، وان هي الا مكيدة انجليزية .

ل - ما رأيك لو ختمت الرسائل بختم الجمعية الاصلاحية الذى بحوزتي الآن . هل ياترى يبقى لديهم أدنى شك فى صحة الرسائل ؟ . ثم هناك الاصطلاحات السرية والاشارات الخاصة بالجمعية ، الجأ اليها ليطمئنوا الى كتبك .

س - لو أسلمنا جدلاً بأنهم آمنوا بدعوتي ، فقدموا الي واشترخوا معي فى الثورة ، فمن ذا الذى يضمن مستقبلهم ، ويصون حقوقهم ، ويعيد اليهم مناصبهم التى ضحوا بها من أجل الثورة .

ل - اذا شئت فاني أقدم اليك تعهداً رسمياً ، وبموجب هذا التعهد تستطيع ان تعدهم بضمان مستقبلهم ومستقبل البلاد .

س - هب انني اختلفت مع الانجليز ، فماذا تفيدني اليهود ؟ . غدا سوف يقولون لي : اذهب الى لورنس فهو الذى تعهد لك .

ل - اني اتعهد باسم الحكومة البريطانية ، وزيادة فى تطمينك ، فسيوقع عليها السير برسي كوكس ممثل حكومة جلالة الملك .

س - لو فرضنا ان حكومتكم اتصلت من وعودها ، فماذا عسانى أفعل بتلك الوريقة التى تحمل توقيع مثلها ؟ وأي سلطة أراجع كي أرغم الامبراطورية البريطانية على تنفيذ أحكام التعهد ؟

ل - انتك سىء الظن فى شرف الحكومة البريطانية وفى صدق عهودها ..
 ثق ان حكومتى اذا قطعت على نفسها عهدا وقت به .. ثم لا تنسى ان
 العمل الذى عهدت به اليك انما هو لمنفعتكم ليس الا .. ولست اُغالى
 اذا قلت ان بريطانيا فى غير حاجة الى معونتكم الحربية .

س - لقد اتفقنا فى بدء الحديث ان نتكلم بمتهى الصراحة ، فدعني أجيبك
 هنا بصراحة بأن مفهوم السياسة لدى السياسيين يعنى (الغاية تبرر
 الوسيلة) وان مفهوم الشرف السياسى لديهم يعنى (المصلحة الحكومية) ؛
 فلا غرابة اذن ان أسأت بكم الذلن . لقد أخذت بريطانيا هذه البلاد
 بالحرب ، ولا يخفى على أحد ما تتطلبه الحرب من دماء وأموال
 وتضحيات ؛ فكيف تريدني أو من على قولك بأن بريطانيا ستعيد هذه
 البلاد الى أهلها بمجرد انتصارها قائمة لهم :- هذه بلادكم خذوها
 وأودعناكم ! .. أتراها تعمل كل ذلك لأن سليمان - مؤشرا الى
 نفسى - قام على رأس سرذمة ضد الترك ! ..

ل - ثق بأن مصلحتنا تقضى بطرد الترك من هذه البلاد واعطائها الى أهلها ،
 وما الثورة التى أريدها الا وسيلة لتحقيق ذلك . لقد قلت ولا أزال
 أقول بأن أكثرية الشعب البريطانى لا تريد استعمارا جديدا .

س - اذا كان الامر كما تقول ، فهذه مصر أمامنا ، وقد مضى عليها سنون وهى
 تناضل فى سبيل استقلالها ، فلماذا تبخلون عليها به ؟

ل - ثق ياسيدى بأن مصر سوف تنال استقلالها قريبا ، وان الحكومة البريطانية
 عازمة على ذلك .

س - حقق الله ذلك . والان كيف توفق بين رغبة الشعب البريطانى فى نبذ
 الاستعمار وبين الوضع الحالى فى الهند والمستعمرات المجاورة لها .

ل - بقاء الانجليز فى الهند أمر ضروري . فالشعب الهندى لا يمكنه الاتفاق
 على حكم واحد أو على تنصيب ملك واحد . فى الهند مذاهب متنافرة

وراجات متنافسون • وفى اليوم الذى تتوحد فيه كلمة الهند ستركتها
بريطانيا بدون تماهل •

س - قد تكون هذه الفكرة حديثة التخمر فى أذهان السياسة الانجليز ، أما
عقلى فمتردد فى تصديقها ••

ل - دعنا من الهند ، ولنعد الى بحثنا الاصلى • فهمت انه يوجد بين الاسرى
هنا بعض الضباط العرب ، فهل تعرفهم ؟

س - أعرف ثلاثة منهم وهم أصحابي : مولود مخلص ، وعلي جودت ،
وعبدالله الدليمي •

ل - اذاً فقد سهلت المهمة • اذا أفعتهم فيكونون فى مقدمة العاملين معك •
س - أعتقد انهم لا يوافقون •

ل - أرجو منك أن تقابلهم الآن وتقتنعهم ، ثم تعود الى فى الساعة الخامسة
فى دار القيادة العامة فتبشرنى بموافقتك على البدء فى المشروع الخطير •

س - تأكد ان رأيي لن يتغير قط ، وليس بوسعى القيام بهذا العمل ولا بغيره ،
كما اني معتقد بعدم موافقة الضباط المومى اليهم على مؤازرتي •

ل - اني لا أقبل لك عذرا أبدا • واني واثق من شهامتك واخلاصك لبلادك ،
ومن رغبتك الاكيدة فى سعادة قومك • فاترك الاصرار جانباً واغتم
هذه الفرصة الثمينة •

س - أما طوعاً فيجوابي الرفض ، وأما اذا أردت الاكراه ، فربما فضلت النفي
أو الحبس •

ل - لا يمكن أن يتحقق شيء بدون الرضى والعقيدة ، ولن أسلك معك سبل
الاكراه • أرجو الآن أن تذهب الى أصحابك الاسرى ثم تعود مساءً
لمقابلتي • أرجوك •• أرجوك ، وألح فى الرجاء •

س - سوف أعود لمقابلتك فأخشى أن يعترضنى الحراس •

ل - هاك توصية مني • ثم تناول قصاصة من الورق وكتب عليها بقلم رصاص ما معناه :-

«يرجى السماح لحاملها بمقابلة الكابتن لورنس في دائرة الاستخبارات في مركز القيادة العامة •

تي • أي • لورنس • كبتن جي • أس •

وبعد أن أخذت منه الورقة خرجت ، فودعني الى خارج الغرفة ، وأكد لي ضرورة مقابلته في المساء •

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة حين وجدت نفسى حرا طليقا في طريقى الى مخزني • فتنفست الصعداء ، ولكنه لم يكن صعداء بالمعنى الصحيح • فالعرض الذى عرضه علي لورنس أقلق بالي وشغل فكري ، وهو وان لم يبدر منه أي تهديد أو وعيد ، الا اني كنت أخشى أن يلجأ اليهما آخر الأمر اذا طال اصراري واشتد عنادي • وجدت كاتبني فى قلق واضطراب ، ففرح بعودتي سالما ، وأرسلته بطلب عمي • وتوجهت توا الى الدار التى يقيم فيها الضباط الأسرى الثلاث ، ورويت لهم الحديث بأكمله ، فلقيت منهم تصويبا لي واستحسانا لاجاباتي • وجلسنا نتداول فى الامر ، حتى آزف وقت المقابلة الثانية ، فخرجت من بينهم فى الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين قاصدا دار القيادة العامة •

خيمة أمل

سمح لي الحراس بالدخول ، ورافقني أحدهم الى قاعة فسيحة يتصدرها الكابتن مور مدير الاستخبارات الذى مرّ ذكره فى مقابلة الصباح • فاستقبلني هاشا ، وأجلسني بجانبه ريثما يحضر الكابتن لورنس • وانكب هو على أوراقه ومنضدته ، بينما رحت أرقب الحركة الدائبة فى القاعة الفسيحة • كان هناك عدد كبير من الكتبة والموظفين بين عسكري ومدني رائحين غادين ، وعدد آخر من الجواسيس الاهلين يدخلون ويخرجون ؛ فمنهم من يسر الى أحد الضباط

بكلمة لا شك انها وشاية بيريء ؛ والا آخر يناول ضابطا آخر مظلوما محتوما لا يعدو ان يكون افتراء على مسكين غافل . وهناك باب كنت أرى خلالها بعض الرجال المخفورين ، جيء بهم للتحقيق بناء على وشايات الجواسيس وتقاريرهم . وكنت قلقا فى مجلسى ، خوف أن يظن بي هؤلاء الفتنون ، فيتصورون اني من عملاء الانجليز يجلسونني فى الصدارة .

وفى الساعة السادسة دخل الكابتن لورنس فحياني ، ثم قبض على يدي بكل لطف وأصعدني الى الطابق الاعلى من الدار ، حيث خذنا مكانينا فى غرفة هادئة ، ودار بيننا الحديث التالى :-

ل - لا شك انك جئت تحمل اليّ البشرى بالقبول .

س - كلا ، مع الأسف ، فاني لا زلت عند رأيي السابق .

ل - لماذا ؟ هل قابلت أصحابك الضباط ؟

س - نعم قابلتهم فاستصوبوا رأيي .

ل - أعتقد انك لو كنت مقتنعا لما عارضوك . انهم يوافقون حتما متى رأوا فيك اقداماً على العمل واطمأنوا الى ثقتك بنجاحه .

س - اسمح لي أن أجمل لك رأيي النهائي . اني لا اوافق مهما حاولت ، فلا تزعجن نفسك باعادة الجدل .

ل - يظهر انك صعب المراس ، وان اقناعك لا يتم بجلسات قصيرة ، وحيث اني قد عازمت على السفر الى جبهة القتال فى عليّ الغربي هذه الليلة ، فأرجو ان تقبل دعوتي لك بالسفر معي ، كى يكون لنا متسع من الوقت لتمحيص الموضوع ودراسته . ولن تستغرق سفرتنا أكثر من ثلاثة أيام .

س - لو تكلمنا أسابيع فلن أتخلى عن موقعي . فلماذا لا تدعني أعود الى دارى حرا طليقا ؟

ل - ماذا يضريك لو رافقتني الى ساحة الحرب •

س - كثيرا جدا ياسيدى • فذهابى بصحبتك سيحمل الناس على الاعتقاد باننى جاسوس وفى هذا الكفاية لتحطيم سمعتى •

ل - لا أرى فى ذلك ما يخل بسمعتك • أما اذا كنت تعنى الاضرار المادية التى تلحق بك من جراء غيابك عن البصرة فهذا ما أستطيع أن أعوضك عنه أضعافا •

س - المال لا يصلح سمعة المرء • ثق بأن دخولي الى دار القيادة اليوم جعل منى فى نظر بعضهم جاسوسا أو عميلا ، فكيف بي اذا ذهبت الى جبهة القتال •

ل - الأولى أن ترسل بطلب فراش لك فتسير الى علي الغربى فورا ، ولا تلتفت الى ما يقوله الناس •

وهنا أجب متضايقا :

س - اذا أرسلت بطلب فراشى بنية السفر فليس الى علي الغربى ، بل الى معسكرات الاسرى فى الهند •

فأجاب لورنس مهدئا ، وكأنه شعر بتضايقى من الحاحه :

ل - معاذ الله أن اكرهك على ذلك • اذاً اسمح لي أن أودعك الآن آملا ان اراك عند عودتى •

س - أرجو لك السلامة ، ولا تنتظرن أن تلقى تبلا فى معتقداتى عند عودتك • وهنا نهض كلانا ، فودعنى الى باب القيادة ، وكان الظلام قد اشتد ، فطلبت منه أن يزودنى بكتاب خشية أن يعترضني الحراس ، اذ كان التجول آنذاك محظورا على الاهلين بعد الغروب بساعة ونصف • فتناول ورقة موقعة من الكابتن مور وناولها لى ، ثم ودعته وانصرف

يعربنى الى البيت •

لم أعلم بعد ذلك متى عاد لورنس من علي الغربي ، ولماذا أحجم عن مقابلتى ، ولكنى سمعت بعد مدة طويلة أنه أصبح العقل المدبر للثورة العربية فى الحجاز . وقد بلغنى من الضباط العراقيين المشتركين فى تلك الثورة انه صرح مرارا بأنه سعى حثيثا لايقاد الثورة فى البصرة فلم يفلح . كما بلغنى ان السير جلبرت كلايتن الذى أصبح فيما بعد مندوبا ساميا لبريطانيا فى العراق والذى توفى مؤخرا ، كان قد كلّف عزيز علي المصرى بالقدوم الى العراق واشعال الثورة فيه ، وذلك بعد نشوب ثورة الحجاز ، غير انه رفض .

هذا حديث ولا كالأحاديث . مرة عليه أكثر من ثلاثين عاما دون أن يفقد من أهميته قليلا أو كثيرا . هذا حديث طالما استعدته كلما خلوت الى نفسي ؛ فأقول لها : أتراني جنيت على البلاد يوم رفضت دعوة لورنس فحرمتها سعادة أكيدة واستقلالاً هنيئاً ؟ أم ترى انني حققت دماء بريئة ووفرت جهودا كادت تذهب أدراج الرياح ؟ . أتراني تجنيت على بريطانيا وعلى صدقها بعهودها ؟ أم اننى كنت فى حكمى عليها من العادلين .

وأنت أيها القلب ماذا دهاك حتى نفرت من دعوة لورنس قبل أن ينبذها العقل الممحص ؟ . أكنت تعلم ما يدور فى الخفاء ؟ أكنت تشعر بأن وراء الستار مكيده تدبر ، ومعاهدة لاقتسام الغنائم تبرم ؟ وما هى تلك الغنائم أيها القلب المرهف ؟ أهى بلاد المغلوبين فى الحرب من هضاب الاناضول وسهول الراين ووادى الدانوب ؟ أم ترى انها بلاد المساكين ، الذين أبى عليهم الدهر الا أن يرزحوا تحت نير العبودية وأن يدوقوا لوعة الحرمان ومرارة الاستعباد ؟ لقد أجاب القلب قبل ثلث قرن . . وأجاب التاريخ اليوم . . فما رأيت بين الجوابين كبير اختلاف .



على هامش الثورة العربية الكبرى

معاهدة سايكس بيكو

فى الوقت الذى كان فيه الثوار العرب يستعدون لحوض معركة الحرية والاستقلال ، وفرسانهم يعدون للانعقاد على قلاع الجيش العثمانى ، دارت فى القاهرة مفاوضات سرية بين الميسو جورج بيكو المندوب السامى الفرنسى والسر مارك سايكس المندوب السامى البريطانى ، لوضع الاسس التى بموجبها تقسم كل من انكلترا وفرنسا البلدان العربية بعد كسبهما الحرب !! . وقد تم فى مايو ١٩١٦ التوقيع على بنود الاتفاقية الاثنى عشر ، والتى نورد ادناه الثلاثة الاولى المهمة منها : -

المادة الاولى - ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان لان تعترفا وتحما دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربى فى المنطقتين (أ) داخلية سوريا (ب) داخلية العراق . ويكون لفرنسا فى منطقة (أ) ولانكلترا فى منطقة (ب) حق الاولوية فى المشروعات والقروض المحلية ، وتفرد فرنسا فى منطقة (أ) وانكلترا فى منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية - يباح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (شقة سوريا الساحلية) ولانكلترا فى المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) انشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة - تنشأ ادارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلى شريف مكة .

جمال السفاح وأحرار العرب

أرسلت الحكومة العثمانية اثر اعلانها الحرب جمال باشا ، وزير الحربية اذ ذاك ، الى سوريا قائدا عام لجيوشها وخولته صلاحيات واسعة . وكان الاحرار السوريون قد تكتلوا لمناصرة الدولة العثمانية فى ظروفها العسيرة ،

وتناسوا الاحقاد التي كانت بينهم وبين الحكومة • ولما أنسوا من جمال باشا
رغبته في الدفاع عن البلاد ضد الغزو الاجنبي ، التفوا حوله وعرضوا عليه
خدماتهم ، فظهر لهم مودته وتقديره بادی الامر ، ثم ما لبث بعد بضعة أيام
ان القى القبض عليهم وساقهم الى الديوان العرفي ، فحكم على صفوتهم بالاعدام
شيقا ، وعلى بعضهم بالسجن والنفي وبشريد عوائلهم •

وفى يوم مكفهر من أيام النضال القومي الخالدة سعدت الى بارئها أرواح
شهادتنا من أجسادهم الطاهرة ؛ فاشهد اللهم اننا نبجل أسماءهم وتقدس
ذكرهم ؛ وأشهد اللهم اننا ببطولتهم مقرّون ولبأسهم خاشعون • واعلم أيها
العربي ان السعادة ، ان رفرفت يوما بأجنحتها عليك ، فهي هبة تقدمها اليك
أرواح الشهداء الخالدة ؛ واعلم انك مدين بالكثير مما تنعم به اليوم ، ومما
سينعم به أبنائك وأحفادك ، الى وطنية الشهداء وتضحياتهم • فأنقش على قلبك
أسماءهم بأحرف من نور ، وترحم عليهم في صلواتك ودعواتك ، وخذ
ذكرهم ما عشت وما عاش أبنائك من بعدك •

أما الشهداء فهم :-

عبد الحميد الزهراوي ، شفيق المؤيد ، شكرى العسلي ، عبد الغني
العريسي ، سيف الدين الخطيب ، محمود المحمصاني ، محمد المحمصاني ،
صالح حيدر ، عبد الوهاب الانكليزي ، رفيق رزق سلوم ، عمر حمد ، عارف
الشهابي ، عبد الكريم القاسم الخليل ، الشيخ أحمد طيارة ، أمير عمر ، علي
الارمنازي ، حافظ السعيد ، ألبير حمصي ، محمود العجم ، نايف تلولو ، محمد
مسلم عابدين ، سعيد الكرمي ، سليم الاحمد العبدالهادي ، سليم الجزائري ،
أمين لطفي ، عبدالقادر الحرسا ، رشدي الشمعة ، محمد الشنطي ، جورجى
حداد ، سعيد عقل ، بترو بلّى ، بيطر علي ، نوري القاضي ، توفيق البساط ،
جلال البخاري •

ولم يسلم حتى بعض الاحرار العراقيين من شر جمال السفاح ، فقد أمر
بجلب أحمد عزت الاعظمي ، ويوسف السويدي ، وعاصم الجلبي ، وابراهيم

حلمى العمر ، الى بيروت وأحالهم الى الديوان العرفى ، الا انه حكم ببراءتهم ، فأطلق سراحهم بعد أن ذاقوا عذاب السجن .

الشريف حسين وفكرة الثورة

أثارت مذابح جمال السفاح فى سوريا حفاظ العرب وحفزتهم على الثورة . وكان وقعها سيئا فى نفس الشريف حسين ، فقد تأثر لتلك الانباء المحزنة أيما تأثر وعزم على إعلان الثورة على العثمانيين فى أقرب فرصة . وكان يحول بينه وبين اعلان الثورة ، عدم توفر المال والسلاح لديه ، ووجود الامير فيصل فى الشام تحت رحمة العثمانيين . لذلك كاتب الانجليز سرا ، وعرض عليهم الحلف على أن يمدوه بالمال والسلاح ، وأن يطلقوا سراح الاسرى من الضباط العرب لينضموا الى صفوف الثوار .

وقد استمرت تلك المفاوضات الكتابية أمدا ، وانتهت بابرام اتفاقية وقعها الشريف حسين من جهة ، والسر مكماهون المعتمد البريطانى فى مصر من جهة ثانية ، والتي كان أهم بنودها :-

(١) تتعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة استقلالا تاما فى الداخل والخارج يحدها خليج فارس شرقا ، والبحر الاحمر وقناة السويس والبحر الابيض غربا ، وحدود ولاية حلب وولاية الموصل شمالا ، والبحر العربى جنوبا ، ما عدا مستعمرة عدن الخاضعة للحكم البريطانى . وتتعهد أيضا برعاية المعاهدات والاتفاقيات التى سبق ان عقدها بريطانيا مع أي فرد داخل هذه الدولة العربية ، أميرا كان أو فردا اعتياديا .

(٢) تتعهد بريطانيا بالمحافظة على هذه الدولة ، وصيانتها من أى تدخل خارجى أو اعتداء على سلامة حدودها البرية والبحرية .

(٣) تبقى البصرة تحت الاحتلال البريطانى حتى تتم تشكيلات الحكومة العربية الجديدة .

(٤) تتعهد بريطانيا بتزويد ربيبتها الحكومة العربية الجديدة بالاسلحة والذخائر والاموال اثناء الحرب ، وبتزويدها بالمال اللازم بعد انتهاء الحرب لانعاشها ريثما تستقر الاوضاع الاقتصادية فيها .

وفى الوقت الذى جرت فيه المكاتبات بين الفريقين كانت الاسلحة والذخائر والذهب الانجليزى تتدفق على الحجاز من مرافىء سرية ، فتوزع على القبائل الحجازية بتكتم شديد .

وبحيلة بارعة تمكن الشريف حسين من استدعاء الامير فيصل من الشام بموافقة جمال باشا . ذلك ان الامير عبدالله على رأس فريق من القبائل تظاهر بمعاودة الجيش العثماني المربط فى المدينة ، مما كان له وقع حسن لدى جمال باشا ، فسمح لاخيه الامير فيصل بمغادرة الشام والتوجه الى الحجاز لمساعدة أخيه . وهكذا توفر المال والسلاح ، ونجى الامير فيصل من قبضة الترك ، وتم التوقيع على الاتفاقية مع بريطانيا لتشكيل الحكومة العربية المستقلة ؛ فلم يبق ما يؤخر اعلان الثورة .

وفى فجر التاسع من شعبان عام ١٣٣٤ هـ الموافق عشرة حزيران عام ١٩١٦ م أطلق الشريف حسين الطلقة الاولى ايذانا ببدء الثورة ، فهاجمت قوات الثوار القلاع العثمانية فقتلت من قتلت وأسرت من أسرت ، ثم نودي بالشريف حسين ملكا على الحجاز . ولا أراني بحاجة الى تفصيل وقائع الثورة العربية الكبرى ، بعد أن أشبعها المؤرخون والبحاث درسا وتمحيصا ، حتى لم تعد أخبارها خافية على أحد .

خداع

كانت المعاهدة التى أبرمت بين الشريف حسين وبين مكماهون خالية من توقيع وزير خارجية بريطانيا ، فقد تعمدت الحكومة البريطانية عدم التصديق عليها لثلاث تعارض بنودها وبنود اتفاقية سايكس بيكو .

وقد جازت هذه الخدعة على الملك حسين ، الذى سارع باعلان الثورة

بالرغم من الغموض الذى جاء فى أكثر بنود الاتفاقية ، وكان فى ذلك مدفوعا بحسن النية وطيب القلب .

وجاء يوم فرغت فيه بريطانيا من مشاغل الحرب ، وشربت كأس النصر مترعة ، فهلل العرب للاستقلال الموعود ، وذهب الامير فيصل الى الحكومة البريطانية يعرض عليها المعاهدة المقدسة ، ويذكرها بوعودها المعسولة ، فما أغرب ان لقي منها انكارا وتجاهلا أنكر وزير خارجيتها أن يكون له علم بالمعاهدة أو بنودها . .

وهكذا خن الخليف حليفه بطرفة عين ، وأستبد القوي بالضعيف ، بعد أن أفاد منه فى ساعة محتته . أما العهود ، وأما المواثيق فأكسیر تمنى به الشعوب المخذولة دون أن تذوق له طعما .

رضى بعد صد

كان من نتيجة رفضي التعاون مع لورنس أن تبلورت الفكرة عني لدى الانجليز بأنني أميل الى العثمانيين ، مما حدا بهم الى مراقبتي والتحذر مني . وفى تشرين الاول عام ١٩١٥ أصبت بالحمى التيفوئيدية ، وأثرت فى صحتي تأثيرا سيئا ، فصحني الاطباء بالسفر الى كراچي ، حيث المناخ الجاف ، لقضاء دور القاهة فيها . وزودوني لاجل ذلك بتقرير رسمي قدمته الى السلطات ، فمحتتي هذه جوازا بالسفر ، وفعلا سافرت على ظهر الباخرة « دراكا » فى ١٠/١/١٩١٦ .

وكان لي فى كراچي أصدقاء كثيرون من الأسر الكويتية المعروفة بتجارتها ، خاصة وان لي فى ميناء كراچي سبع سفن محملة بالتمور بانتظار التصريف على يد اولئك الاصدقاء . فسرهم ان يعلموا بسفري الى كراچي ولبثوا ينتظرون قدومي .

وصلت الباخرة الى الميناء ، فتوقفت قليلا لتسلم رزم البريد وتجري بعض المعاملات الروتينية قبل أن ترسو لتفريغ حمولتها من ركاب وبضائع ، واذا

بمفوض هندي يرافقه ثلاثة من رجال الشرطة يأمروني بالنزول الى البر . فصدعت بالأمر ، وتوجهنا بزورق بخارى خاص نحو الرصيف ، حيث لقيت ضابطا انجليزيا يقف فى انتظارى ، وعلى مقربة منه بعض أصحابي العرب . فما ان رآني هؤلاء حتى أحاطوا بي للسلام عليّ ، واذا بالضابط يمنعهم من الاقتراب مني ، واقتادني الى غرفة التفتيش ، فأجرى تفتيشا دقيقا على أمتعتي . ولما لم يجد فيها شيئا محظورا أجلسني ، وسمح للمستقبلين بالدخول والسلام عليّ . وظننت وظنوا ان الامر لا يعدو ان يكون اشتباها ، وان الاشتباه قد زال بعد تفتيش الامتعة ، فعرض كل واحد منهم ان أنزل فى ضيافته . ولكن الضابط الانجليزى أبى الا أن أبقي فى ضيافة موقف الميناء ريثما تغادر اول باخرة الى البصرة فيعيدنى بها . . . ثم تلتطف وسمح لهم بأن يتناولوا على جلب الطعام اليّ ، على شرط أن لا أبادلهم الحديث . . .

خرج أصحابي مكثيين ، فبادرته بالسؤال عن معنى هذه المعاملة الغريبة ، فأجاب :- ان برقية وردت من البصرة تأمر بوجوب تحرى أمتعتك وإبقائك فى كراجى تحت مراقبة البوليس . ثم جاءت برقية أخرى قبل وصول الباخرة بيوم ، مفادها انك قادم الى كراجى بمهمة سياسية ، وهى تحريض المسلمين على التكر للانجليز ومساعدة العثمانيين . لذلك وجب منعك من الاختلاط بالناس ، وتوقيفك واعادتك الى البصرة مخفورا فى أول باخرة .

قضيت فى الموقف أربعة أيام برعاية الكابتن (دن) الذى أحسن معاملتي ، وأبدى معي بعض اللطف . وكان أصحابى يواظبون على تزويدى بوجبات الطعام . وأخيرا حان موعد سفر الباخرة الى البصرة فأركبت فيها ، يرافقتي مفوض يهودى .

وصلنا البصرة فى مساء يوم ٢٤/١/١٩١٦ ، فأقتادنى البوليس فورا الى الموقف ، فلبث فيه ثلاثة أيام ، ثم أطلق سراحى بكفالة نقدية قدرها ستة آلاف روبية من قبل ثلاثة اشخاص معروفين ، تعهدوا بعدم تجاوزى حدود قصبتى البصرة والعشار .

رضيت بهذا السجن الكبير ، وقفنت بهذا القدر من الحرية ، وتلقيت نبأ
الخسارة المادية الجسيمة التي أصابت تموري ، بعد أن اتصل أصدقائي من مهمة
تصريفها في اسواق كراجي خوفا من السلطة هناك ، والتي أربت على الثلاثين
الف روبية ، أقول تلقيت النبأ بصبر . . . وفوضت أمري الى الله .

بدأ السأم يتسلل الى نفسي من هذا الحجر ، فقدمت شكواي الى السر
برسي كوكس مطالبا برفع الحجر عني ، أو تقديمي الى محكمة عسكرية
أو مدنية لتثبت ادائتي أو براءتي ، اذا كانت هناك تهمة . وبعد أيام على تقديم
العريضة دعاني الميجر ميك الحاكم السياسي في البصرة لمقابلته ، وقال لي :

- أعلم ان كل ما أصابك على يد الانجليز سببه خطتك السلبية ورفضك
التعاون معهم ؟ فلاجل ان تزيل هذا الشك فان السر برسي كوكس يعرض
عليك قبول وظيفة أو منصب لقاء توسيع نطاق الحجر .

فأجبت به باني تاجر ولست أرغب في التوظيف ، انما اذا كانت لدى
الحكومة بعض المهمات التي ينتفع منها أبناء البلاد فاني أرحب بالقيام بها من
دون عوض .

فقال :- ما قولك بعضوية المجلس البلدي ومجلس ادارة الاوقاف ؟
قلت : قبلتهما .

وفي اليوم التالي وردتني ثلاثة كتب ، اولها أمر بتعييني في عضوية
المجلس البلدي ، والثاني في مجلس ادارة الوقف ، والثالث رخصه من البوليس
بتوسيع نطاق الحجر علي ، بحيث يسمح لي بالذهاب الى الزبير ، وابي الحبيب
والهائلة .

واظبت على حضور جلسات المجلسين المذكورين حتى صدور أمر
تعييني في منصب الحاكمية كما سيأتي ذكره . وكان قد بلغ الحاكم السياسي ان
بعض المتولين تصرفوا بأمالك الوقف ، فاستملكوا بعضها وتلاعبوا بحدود
البعض الآخر . فكلفني بأجراء تفتيش عام على أعمال الوقف وتقديم تقرير

ضاف عنها ، ورجا مني قبول مرتب شهرى بالنظر لما تتطلبه هذه المهمة من
كشوف وجهود ووقت . قبلت المهمة ورفضت المرتب ، واشتغلت
بالتفتيش بجد ، فكشفت القناع عن التلاعبات ، وقدمت بها تقريراً مسهباً الى
الحكومة ، فوجهت الي كتاب شكر وتقدير .

حين لمس الحاكم السياسى مني تحمسا لعمال البر والخير ، كلفنى بتنظيم
جمعية لمساعدة الفقراء . وقد تم تأليف الجمعية المذكورة ، التى سميت
بـ (جمعية محتاجى المسلمين) ، وانتخبت رئيساً لها . وكانت مهمتها جمع
التبرعات الشهرية من الموسرين وتوزيعها بشكل رواتب شهرية على المعوزين .
وبلغ من اطمئنان الحاكم السياسى الي انه اناط بي أمر انتقاء المدرسين
للمدارس الاهلية التى أسسها الانجليز فى البصرة .

وفى تلك الفترة عكفت فى أوقات فراغى على جمع الامثال العربية
المشهورة ، فلما تجمع لدى عدد كبير منها طبعتها فى كراسة أسميتها « الف
كلمة وكلمة » ، وتبرعت بإيرادها الى جمعية محتاجى المسلمين المذكورة آنفاً .

الزبير

كان أول ما عملته بعد توسيع نطاق الحجر ان نقلت محل اقامتى الى
الزبير ، لحفاف هوائها وملاءمته لصحتى ، اذ كان التحول الذى أصابنى على
اثر حمى التيفوئيد لا يزال مستمرا بسبب الرطوبة التى يتصف بها مناخ
البصرة . وكنت بالطبع أزاول أعمالى فى البصرة كالسابق ، مما اقتضى أن
أتى اليها فى الصباح الباكر ، وأعود الى دارى فى الزبير عند المساء . وصادف
ان كانت المدرسة الاولى التى أسسها الانجليز فى الزبير مجاورة لدارى ،
فكنت أتردد عليها بين آونة وأخرى ، وأشجع تلامذتها على الدراسة . وقد
لاحظت قلة عددهم ، فاتصلت بالآباء أحثهم على ارسال ابنائهم اليها ، ولكن
الكثيرين أكدوا أن عزوفهم عن ذلك يعود الى اغفال تدريس الدين والقرآن
الكريم فيها ، فرأيت ان الحق بجانبهم ، وخاصة وان الزبيريين يغنون بالأمور
الدينية عناية تتناسب ومركز مدينتهم الدينى والتاريخى . لذلك اتصلت بالحاكم

السياسى فى الزير الكابتن مك كالم ، وهو ارلندى مثقف محب للعلوم ، وأفنعتة بضرورة ادخال درسي الدين والقرآن فى منهاج المدرسة ، وبأقامة الصلاة فيها . فأتت على شرط أن تدفع ادارة الاوقاف راتب معلم المدرسين المذكورين . وما ان أذن المؤذن للصلاة على سطح المدرسة حتى أقبل الطلاب عليها زرافات ووحدانا ، وكان ذلك بداية عهد جديد للزير .

عودة الى القضاء

فى أواخر عام ١٩١٥ أسست الحكومة البريطانية أول محكمة مدنية فى البصرة برئاسة الكرنل نو كس ، الذى كان يجيد العربية ، وبعض الحكام البريطانيين . وكانت القوانين المرعية فيها آنذاك هى القوانين الهندية . وقد اختير مزاحم الباجه جي مترجما فى المحكمة المذكورة .

وفى ذات يوم أرسل نو كس بطليبي ، واقترح عليّ العودة الى المحاماة ، فاعتذرت بانهماك في الاعمال التجارية أولا ، وبجهلى القوانين الهندية ثانيا . الا انه فى أواخر عام ١٩١٨ فاضنى الحاكم السياسى فى البصرة لقبول منصب حاكمية البداءة ، برئاسة حاكم بريطانى وعضوية حاكم آخر ، على أن أقوم بتنظيمها وفق الأصول العثمانية . وقال ان الاقتراح المذكور ورد اليه من الحاكم الملكى العام ومن ناظر العدلية فى بغداد . فاستمهلته ثلاثة أيام للتفكير فى الموضوع .

وكانت أعمالى التجارية فى تلك الآونة قد أصابها الحمول بنتيجة انهماك في تفتيش الاوقاف ، وجلسات المجلس البلدى ، والجمعيات الخيرية . فلم أر مانعا من قبول الوظيفة ، وأبلغت الحاكم السياسى بالقبول .

تشكلت هيئة المحكمة فى اوائل عام ١٩١٩ من المستر فوريس رئيسا ، ومؤلف الكتاب والميرزا محمد خان بهادر^(١) عضوين . والميرزا محمد رجل فاضل أشتهر بسعة اطلاعه فى العلوم ولوعه بالأدب .

(١) محمد أحمد المحامى المقيم فى البصرة حاليا .

استمرت أعمالى التجارية كالمعتاد بإدارة عمى الحاج طه الموصلى • أما
المستر موريس فهو ارلندى حميد الحصال رقيق الجوانب ، وكان هو وزوجه
شغوفين بالمعارف والعلوم • وفى ذات يوم اقترحنا عليه - الميرزا
وعبدالرزاق الحصان والمؤلف - تأسيس مكتبة عامة فى البصرة • ووجه هو
الدعوة الى بعض اشراف البصرة ، فاجتمعوا فى داره وتبرعوا بالمال والكتب ،
حتى تجمع لدينا حوالى الثلاثمائة كتاب ومبلغ لا يستهان به من المال •

استأجرنا دارا ورمناها ونقلنا الكتب اليها ، وبلغ من هوس المستر فوريس
بالفكرة ان طلت جدران المكتبة بالصنع بنفسها • وقبل أن يتم تنظيم المكتبة
زارنى فيها الشيخ أحمد الابراهيم وتبرع بألف كتاب • وقد بر بوعده فأرسل
١٢٢٤ كتابا مجلدا مجلدا مصرىا نفيسا ، وبينها بعض المصاحف الكريمة ذات
القيمة الأثرية ، وبعض المخطوطات التاريخية الفريدة ، والشاهنامة البديعة •
ولما جرى افتتاح المكتبة التى سميت بـ « مكتبة التجدد » كان عدد كتبها قد
جاوز الثلاثة آلاف وخمسمائة • وأقبل الناس على المطالعة فيها ، وسرى بين
روادها نشاط أدبي ، فأقيمت فيها الاجتماعات والقيت المحاضرات والمناظرات •
واستمرت كذلك حتى أواخر عام ١٩٢٠ ، ثم هجرت • وقد نقلت كتبها مؤخرا
الى مكتبة المعارف الحالية •

رفع البوليس الحجر عني منذ تعيينى فى منصب الحاكمية • ولكنه كان
دائم التشكك فى تصرفاتى وأقوالى • فحين طبعت كتاب « الف كلمة وكلمة »
الذى مر ذكره آنفا ، دعانى الحاكم السياسى للتحقيق معى فى معنى أحد
الامثال الواردة فيه ، فأفهمته مغزاها وبرهنت على حسن نيتي ، حتى اقتنع
واعتذر • ثم دعيت مرة أخرى للاستفهام عن مغزى جملة وردت فى « انرواية
الايقازية » التى كتبها وطبعتها وتبرعت بأثمانها الى مستشفى الغرباء فى
البصرة • فلما دفعت الشك عني اعتذر الحاكم السياسى ثانية عن ذلك التشكك
بوسوء الظن •

مرت الايام فى لين وراحة ، نظروا لمزايا المستر فوريس ودماثة خلقه ،

حتى صدر الأمر بتعيينه رئيساً لمحكمة الاستئناف في بغداد ، خلفاً للكرامة
نوكس ، فغادر البصرة مأسوفاً على فراقه ، وعين الميجر كلبرت خلفاً له .

أما كلبرت هذا فكان ، على النقيض من سلفه ، بذيثاً سيئاً إلا أن قليل
المعرفة ؛ لذا كثرت بيننا وبينه المشاحنات ، خاصة عندما كان يستهتر بالقوانين
ولا يلتزم بنصوصها وأحكامها .

وفي منتصف عام ١٩١٩ عين زميلي الميرزا محمد حاكماً سياسياً في
كربلاء ، فسافر إليها وتركتني في وضع لا أحسد عليه مع الرئيس المجنون .
وبخلو مكانه عينت نظارة العدلية السيد عبدالمجيد خلفاً له ، وكان هذا على
جانب كبير من الفضل ودماثة الخلق ، ولكن الرئيس أبي التعاون معه ، ومنعه
من حضور جلسات المحكمة ، واستبدل به شاباً هندياً اسمه المستر ميتد كان
يعمل كمعاون حاكم سابقاً . فعمل هذا في المحكمة كأسير فضل للرئيس ،
وأيده في قراراته المجحفة .

بلغ التوتر بيني وبين الرئيس أشده ، ولم أعد أستطيع العمل معه ،
فقدمت استقالتي في أيلول ١٩١٩ . ووردني الرد من المستر فوربس برفض
استقالتي وبطلب التريث .

وفي ١٦/١٠/١٩١٩ وردني كتاب من ناظر العدلية يقضي بترفعي إلى
عضوية محكمة استئناف العراق التي تنظر في قضايا الاستئناف والتمييز ،
براتب قدره ألف روبية على أن التحق بوظيفتي في ١/١١/١٩١٩ .
انتقلت على أثر ذلك التعيين إلى بغداد مع اسرتي ، وسررتي أن يكون
زميلي في المحكمة داود سمرة الذي عرف بتصلعه في القانون وبخلقه القويم .



شلاشة اعوام في بغداد

ثلاثة أعوام في بغداد

١٩٢٠ - ١٩٢١ - ١٩٢٢

جرت خلال تلك الاعوام الثلاثة حوادث تعد من أخطر ما جرى في تاريخ العراق الحديث . ثلاثة أعوام حافلة بجسام الأمور ، كانت فيها بغداد تغلي كالمرجل وكأنها على أبواب الثورة ، وكانت الطاقة الوطنية في تزايد مستمر تهدد بالانفجار بين لحظة وأخرى . لا حديث للقوم آنذاك الا ما يدور حول وضع العراق ومستقبله ، حول الملكية والجمهورية ، حول الاستقلال والاستعمار ، وحول الكفاح في سبيل حرية البلاد .

لم يشعر العراقيون بحاجتهم الى التآزر والوحدة كما شعروا في تلك الايام ، ولم ينشطوا في ميدان الوطنية كما نشطوا آنذاك . لم تخفهم سياط الاستعمار التي سلطها الانجليز على ظهور المخلصين منهم ، ولم ترهبهم أحكام النفي ووسائل الاضطهاد التي لجأ اليها المستعمر لتثبيت أقدامه في ديارهم .

ومما يثير الإعجاب في طبيعة الشعب العراقي ، نضوج الوعي القومي بسرعة خارقة في أوساطه كلما أحسن توجيهه ، وهزت مشاعره ، وتوافر على قيادته أناس مخلصون . لقد شهدنا الشعب العراقي الغارق في لجة السبات طوال القرون المظلمة يغدو بقدرة قادر شديد اليقظة ، دائب الحركة ، دائم التحفز ، منذ أن تناهت الى اسماعه ترانيم الحرية والحن الجهاد . لقد أخطأ الذين زعموا ان الشعب العراقي خائر العزيمة واهن القوى ، فما كان بالخائر الواهن لولا ما صلتوا على رأسه من حراب ، وما نفثوا في دمه من سموم ومخدرات . وما كان بالضعيف لو لم يقتوا في عضده ، ويدلوا أحراره ، ويفرقوا بين أبنائه في الدين والعنصر والمذهب .

المدرسة الاهلية أو مدرسة التفيض

بعد وصولي بأيام قلائل دعيت لحضور حفلة افتتاح المدرسة الثانوية الاهلية ، لمؤسسها علي البزركان . وفي نهاية الحفلة طلب المؤسس الى الحاضرين

انتخاب هيئة ادارية للمدرسة ، تساعده في تدبير شؤونها • فانتخب الذوات التالية أسماؤهم :

الشيخ عبدالوهاب النائب ، حسن رضا ، خالد الشابندر ، جلال بابان ، بهجت زينل ، ومؤلف الكتاب •

كانت تعقد في هذه المدرسة اجتماعات الهيئة الادارية المذكورة بصورة علنية ، واجتماعات سرية لجمعية الحرس التي تأسست في ذلك الحين • فلما علمت السلطات الانجليزية بالاجتماعات السرية تلك أغلقت المدرسة ، وهرب مؤسسها ، وتبعثر طلابها • فسينا - نحن اعضاء هيئة الادارة - الى اعادة فتحها ، فنجح مساعانا لدى السلطات ، على أن نبدل اسمها • فاقترح الشيخ عبدالوهاب النائب تسميتها بمدرسة (التفيض) نسبة الى اسمي ، اذ كنت أكثر الاعضاء تحمسا لاستئناف تأسيسها • وهكذا فتحت المدرسة أبوابها ، فأقبل عليها طلابها ، ولا زالت قائمة حتى اليوم بعد ان يسر الله لها السيد حسين العاني ، الذي عمل على تقدمها وتوسيعها •

مدرسة الحقوق في بغداد

رغب السير بونهام كارتر ناظر العدلية في فتح مدرسة الحقوق بصفين ، على أن ينتمى الى الصف الاول منهما في بادئ الامر طلاب الصفين الاول والثاني في مدرسة الحقوق العثمانية المغلقة ، وينتمي الى الصف الثاني منها طلاب الصفين الثالث والرابع من المدرسة المذكورة • وبعد ذلك تقبل المدرسة الطلاب الجدد • وقد كلفت في السنة الاولى بعد افتتاحها بتدريس موضوع التطبيقات القانونية « الصكوك » للصف المنتهي ، وموضوع مقدمة علم الحقوق للصف المبتدى • ولما فتح الصف الاول الجديد في السنة الثانية قمت بتدريس موضوع الحقوق الدستورية ، الذي لم يكن قد طبع فيه كتاب باللغة العربية حتى ذلك الحين ، فاضطرت الى طبع محاضراتي وجمعها في كتاب أسميته « الحقوق الدستورية » • وقد أعانني في طبعه عطا أمين^(١) أحد طلابي •

(١) الوزير المفوض في السلك الخارجي الآن •

وكان طلاب الصف الثانى فى السنة الدراسية ١٩٢٠-١٩٢١ هم :

خيرى السنوى ، نجيب الراوى ، فخرى الطبقجلى ، عبدالرسول
عبدالحسين ، علي غالب العزاوى ، علي محمود الشيخ علي ، كاظم الدجيلي ،
يوسف الكبير ، يوسف يعقوب ، عبدالكريم بافي ، عبدالحמיד الكيلانى ،
عبدالرحمن سعيد ، عبدالله الشواف ، مصطفى الانكرلى ، جميل الوسواسى ،
سليمان الشواف ، عبدالعزيز السنوى ، محمود رأفت السنوى ، رؤوف البحرانى ،
عطا أمين ، عبدالهادى الظاهر ، ابراهيم السعدى ، جميل السلام ، طالب
مشتاق ، سلمان أحمد الشيخ داود ، ابراهيم الجيهجى ، أحمد القشطينى ،
أحمد مختار بابان ، عيسى طه ، محمد صالح يحيى .

أما طلاب الصف الاول فى العام الدراسى ١٩٢١-١٩٢٢ فهم :

محمد صالح الكيلانى ، يسن قدورى ، يسن محمد علي ، علي جميل
الخطيب ، عبدالحميد كبة ، ضياء عبدالرزاق ، عبدالعزيز أحمد ، سامى
خونده ، سلمان شينا ، عبدالجليل حسن ، اسماعيل عبدالمجيد ، فائق القشطينى ،
محمود عبدالسلام عزت ، محمد حسن كبة ، جعفر حمندى ، عبدالعزيز
الجميل ، جورج جورجى ، محمد يحيى ، رشيد يحيى الهاشمى ، أحمد
عبدالغنى الراوى ، بدرالدين السويدى ، مكى الجميل ، عبدالرحمن خضر ،
موسى الألوسى ، أحمد السعدى ، خليل أمين المقتى ، ضياء يونس ، عبدالهادى
الاعظمى ، طه الراوى ، يوسف ضياء عبدالوهاب ، الياس خدورى ، سعد
صالح ، صالح جبر ، صادق البصام ، أحمد زكى الحياط ، حسن رفيق
توفيق ، كامل نازو ، ضياء علي ، محمد نجيب عبدالله ، محمد جواد محمود ،
فؤاد خياط ، منير ألقاضى ، يوسف زلحة ، عبدالعزيز الشواف .

وقد يكون هناك آخرون تعذر عليّ الحصول على أسمائهم فمعدرة .

عودة طالب النقيب من منفاه

يجدر بي أن أعود بالقارئ الكريم الى حادثة سبقت حوادث هذا الفصل
بنحو ثلاث سنين . ذلك انني تلقيت فى شباط ١٩١٧ بوقية من السيد طالب

في منفاه بجزيرة سيلان مضمونها : « حول الف ليرة » • ولما كان وكيله في البصرة أحمد الصانع هو المسؤول عن تحويل رواتبه اليه ، فقد راجعته واطلعه على البرقية ، ظنا بأن السيد طالب أبرق الي كي أستحث وكيله في ارسال الألف ليرة • فأجاب الصانع بأنه لم يرده طلب بهذا المبلغ سابقا ، كما انه ليس للسيد طالب مثل هذا الرصيد لديه • ثم كتب اليه مستفسرا عن أمر الألف ليرة • فأجاب السيد طالب بكتاب يقول :

« ان الألف ليرة انما طلبتها من سليمان فيضي نفسه لا منك ، اذ بلغني انه يصيب مكسبا في تجارته » •

أثار هذا الطلب استغراب الحاضرين في مجلس الصانع ، بقدر ما أثار استغرابي • فالكل يعلم ، لا سيما أحمد الصانع ، باني لم آخذ فلسا واحدا من طالب طيلة اشتغالي معه ومرافقتي اياه • ثم اني لم أبلغ من الثراء حدا أستطيع معه أن أهب صديقا مثل هذا المبلغ الجسيم •

استمر السيد طالب في مراسلتي بعد ذلك الحادث ، دون أن يشير اليه بقليل أو كثير ، حتى جرى نقله الى مصر عام ١٩١٧ ، بناء على التماس جلالة الملك حسين من السلطات البريطانية •

هذه حادثة تافهة ، أو قل اني خلتها كذلك ؛ الا انها تركت في نفس السيد طالب أثرا بليغا كما سيأتي ذكره •

نشرت الصحف خبر عودة السيد طالب الى البصرة من منفاه • فاستأذنت ناظر العدلية في السفر الى البصرة للترحيب بمقدمه •

زرتة مساء في قصره في (السيليات) ، فاستقبلني استقبالا فاترا لم أكن انتظره • ولم أطل المكوث عنده ، فانصرفت بالرغم من اصراره على تناولي العشاء معه • وفي اليوم الثاني دعيت الى وليمة غداء أولها عبدالله الصانع على شرفه ، وهناك لقيني طالب بتكلف زائد • ولما دار الحديث عن الوضع القائم في بغداد ، وجه الي الحاضرون شتى الاسئلة ، فوصفت لهم الاحتفالات الدينية

التي تقام في مساجد بغداد ، والخطب النارية التي تلقى فيها لحض الناس على المطالبة بالاستقلال ، ولتحريرهم على طرد المستعمر • وانفضت الدعوة ففقلت راجعا الى بغداد •

لبث بعد لقائي السيد طالب دائم التفكير في أسباب الفتور الذي أعترى صلتى به • وقد عزوت الامر الى أحد سببين : الاول عدم ارسالي مبلغ الألف ليرة التي طلبها مني • والثاني انه ربما ندم على عدم محالفته الانجليز ، فاعتبرني المحرض على تضييع تلك الفرصة الذهبية ! • ويشهد الله انه قد تجنبت علي في الحالين • فأما أمر الألف ليرة ، فليس هناك ما يبرر ارسالها اليه • وأما عن علاقته بالانجليز فلم أكن لأمنعه عن محالفتهم لو اراد هو ذلك ، ولو انه كان قد فعل لكنت تركت البصرة وحدي للإقامة في الكويت أو في المحمرة ، ريثما يجلو الاثر عن البصرة فأسلم من أذاهم •

ولما قدم السيد طالب بغداد ، بناء على دعوة السر ولسن الحاكم العام ، حلّ ضيفا في دار عبدالقادر باشا الحضيري • فزرتة مرحبا ، فأبدى لي هذه المرة توددا ، وطلب أن يتغدى في داري ، كعادته سابقا حين كنا في البصرة • وهكذا تناول الغداء عندي في اليوم الثالث بعد وصوله بغداد ، وقصرت الدعوة - عداه - على المستر فوريس رئيس محكمة الاستئناف •

وصلتني بعد ذلك بيومين رسالة من المس كرتروود بيل طالبة حضوري في دارها • فلما ذهبت جلست في غرفة الانتظار ، ريثما تفرغ من مقابلة أحد الزائرين • ولم يكن ذلك الزائر سوى السيد طالب ، وقد علمت أيضا انه كان دائم التردد على المس بيل منذ قدومه بغداد •

خرج السيد طالب من لدن صاحبة الدار ، ونادت علي ، فالتقيت به في فناء البيت • وبعد أن تبادلنا التحية سألتني عن سبب مجيئي الى المس بيل ، فأخبرته بأن ذلك كان تلبية لطلبها • فقال مازحا :

- لا بد وأن يكون مزاحم الباجه جي قد وشى بك عندها •

فأدركت في الحال انه اذا كان في الامر وشاية فان طالب هو الواشى
وليس مزاحم ♦♦

قالت لي المس بيل : انك حين ذهبت الى البصرة هيجت خواطر أهلها بما
رويته عن الشعور الوطنى في بغداد ، وبوصف الاحتفالات الدينية الوطنية
في مساجدها وصفا مبالغاً فيه ♦

فأجبتها بأننى سئلت فأجبت ، وقد توخيت الصدق في اجابتي ، وليس
يظيرنى ان هاجت خواطر الناس أم لم تهج ، طالما انى رويت الحقيقة دون
مبالغة ♦

فقلت محتدة :- ان الحكومة البريطانية لن تغفر للذين يناهضون
سياستها ، ولن تتوان عن انزال أشد العقوبات بهم ♦♦♦ الى غير ذلك من
عبارات التهديد ♦

فلم أعر كلامها اهتماما وانصرفت ♦

تحقق لديّ حينذاك ان السيد طالب هو الذى وشى بي ، ما دامت
الوشاية قد انحصرت بشأن ما صرحت به فى وليمة عبدالله الصانع فى البصرة ♦

جو مكهرب

بلغ الحماس الوطنى لدى الجماهير فى بغداد شأوا عظيما ، وأمست
الاحتفالات الدينية التى كانت تنظم فى المساجد ، وخاصة فى جامع الحيدر خانة ،
مظاهرات شعبية خطيرة يأمرها آلاف الناس من كل الطبقات ♦ وحين شعر
الانجليز بخطورة الوضع منعوا تلك الاجتماعات ، حتى انهم كانوا يلجأون الى
اطلاق نيران الرشاشات على المجتمعين لارهابهم ♦

وفى احدى الليالى حضرت اجتماعا فى جامع الحيدر خانة ، أنشد فيه
الشاعر عيسى عبدالقادر قصيدة نارية ، عاقبتها السلطات عليها فى اليوم التالى
بابعاده الى البصرة ♦ وأذكر ، من خطباء وشعراء ذلك الحفل عبدالرحمن
البناء ، وطائب مشتاق ، والشيخ مهدي البصير ، وعبدالرزاق الهاشمى وغيرهم ♦

استاء الناس من سياسة الشدة التي اتبعها الانجليز بحق المحتفلين في المساجد ، فغزموا على مقاومة العدوان • وفي ذات ليلة اجتمع آلاف منهم في جامع الحيدر خانة ، فلما أحاطت بهم المصفحات البريطانية داهموها بالحجارة والطوب ، ففتحت عليهم النيران واستشهد منهم رجل أخرس يعمل بائعا للصحف • فما ان أصبح الصبح الا وخرجت بغداد كلها لتشيع جثمانه • وكنت اذ ترى وجوه القوم تدرك ان الثورة ناشئة لا محالة عن قريب •

جئنة المبعوثين

نشر الحاكم الملكي العام بيانا في جريدة « العراق » في ١٢ تموز ١٩٢٠ هذا نصه :-

« قد أعلنت اجازة حكومة ملك بريطانيا في تكوين مؤتمر عام منتخب من أهالي العراق بمنشور مؤرخ في ١٧ حزيران ١٩٢٠ • واذا يجب قبل تكوين المؤتمر المذكور سن قانون للانتخاب وتنظيم الامور المتعلقة بذلك فوضت حكومة جلالة ملك بريطانيا الحاكم الملكي أن يدعو الاشرفين من مندوبي الامكنة المختلفة الى الاشتراك مع الحكومة الملكية في تشكيل المشاريع اللازمة للانتخابات المقرر اجراؤها وتخطيط الساحات الانتخابية واعداد سجلات المنتخبين واحضار مقتضيات الانتخابات • واذا يوجد الآن في العراق من انتدبوا فيما سبق من الايام عن هذه البلاد للمجلسين العثمانيين مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين وكان لهم سابق معرفة في الامور العائدة الى الانتخابات والمصالح العامة فقد دعاهم جميعا الحاكم الملكي العام للحضور ببغداد في يوم غير بعيد لكي تتشكل منهم لجنة تشترك مع الحكومة الملكية في وضع المشاريع اللازمة للانتخابات المقرر اجراؤها وتخطيط الساحات الانتخابية واعداد سجلات المنتخبين واحضار مقتضيات الانتخاب كما سبق • وسيطلب من أعضاء اللجنة المذكورة تعيين أحد منهم للرئاسة عليهم وانتداب أعضاء زيادة على عددهم من الساحات التي لم يحضر منها عضو لموت بعض الذين انتدبوا سابقا أو غياب بعضهم أو لتعذر حضوره لاسباب أخرى • أما مسألة عدد الأعضاء اللازم انتدابهم كما سبق والساحات التي يلزم الانتداب عنها فهذه مسألة ستخاير اللجنة الحاكم الملكي العام عنها وعلى نتيجة المخابرات يصدر القرار • »

وفي العاشر من الشهر ذاته ورد الي كتاب من الحاكم العسكري والسياسي بصفتي عضوا سابقا في مجلس المبعوثان هذا نصه :-

(لي الشرف أن أقدم لحضرتكم مرفقا بهذا التحرير صورة من البيان الذي سيعلن في الجريدة في ١٢ من الشهر الحالي واني أدعوا جنابكم باسم الحاكم الملكي العام راجيا أن تكونوا عضوا في المجلس الذي سيتألف • ولي الأمل الوطيد بأن تبرزوا للحكومة الملكية من فوائد بمشورتكم السامية بخصوص هذه المسألة المهمة • هذا وأرجو قبول وافر الاحترام •

التوقيع : بولارد
الحاكم العسكري والسياسي
في بغداد (

وكان بطى هذا الكتاب البيان المذكور أعلاه • وبعد ذلك بأيام وجهت اليّ وإلى كافة الاعيان والمبعوثين السابقين الدعوة لحضور المؤتمر في يوم ٦ آب في ديوان نظارة العدلية •

ترددت في تلبية هذه الدعوة اثر انقسام الرأي العام في فائدة المؤتمر أو ضرره ، وفي مشروعيتها أو عدوها • وكان يوسف السويدي والسيد محمد الصدر يتزعمان حركة المعارضة لعقد المؤتمر ، بينما يرى فريق غيرهم بزعامة السيد طالب رأيا مخالفا • وكان مندوبو بغداد الذين انتخبهم الاهلون لتمثيلهم في مفاوضة السلطات المحتلة هم :

السيد أبو القاسم ، الشيخ أحمد الشيخ داود ، الشيخ أحمد الظاهر ، جعفر أبو التمن ، رفعت الجادر جي ، الشيخ سعيد النقشبندی ، عبدالرحمن الحيدري ، عبدالوهاب النائب ، علي البزركان ، السيد عبدالكريم السيد حيدر ، فؤاد الدفترى ، السيد محمد الصدر ، محمد مصطفى الحليل ، يوسف السويدي ، الحاج ياسين الحضيرى ، وبقاقر الشيبى •

أقول كان بعض هؤلاء - السويدي والصدر والشيبى وأبو التمن - قد دعوا أيضا الى حضور اللجنة بدلا عن اثنين متوفين من المبعوثين السابقين ، الا انهم تضامنا مع زملائهم مندوبى بغداد قبلوا الدعوة بمعارضة شديدة •

زرت ناظر العدلية في مكتبه ، وطلبت اليه أن يتوسط لدى الحاكم العام لاعفائي من الاشتراك في اللجنة ، واتخذت ذريعة لهذا الاعفاء كونى حاكما

لا يجوز لي منصبى الاشتراك فى أى نشاط سياسى ، حتى ولو كان بتكليف من الحكومة • وقلت له أيضا :- كيف يجوز لي أن أتقاضى راتبين من الحكومة فى آن واحد ؟ • فقابل الناظر طلبى بالرفض ، وقال انه يعتقد ان فى اشتراكى فى اللجنة خدمة وطنية لا تتعارض مع منصب القضاء ؛ أما عن الراتب فقال :- انك تتقاضى راتب الحاكمية من نظارة العدلية ، أما راتب عضوية اللجنة فتدفعه لك دائرة السياسة البريطانية •

ولم يفد معه رجائى المتكرر فى الانسحاب من المجلس ، وكانت اجاباته بالرفض قاطعة •

رغب المعارضون فى اقناع المبعوثين على مقاطعة المؤتمر ، فنظموا اجتماعا فى دار عبدالرحمن باشا الحيدرى • وأذكر من الحاضرين الصدر والسويدى وطالب التقيب وعبدالمجيد الشاوى وبعض المبعوثين الآخرين •

وكان السويدى والصدر يريان فى عقد المؤتمر انحرافا عن مبدأ الثورة المسلحة ، التى كان الشعب يقرب منها رويدا رويدا ، ويلمسان فيه تسيطا لعزائم الوطنيين التى استنهضت وعبئت للنضال فى سبيل الاستقلال • بينما كان المبعوثون يرون ان مطالب الامة لا تحل الا عن طريق ايجاد مجلس تأسيسى بالانتخاب الحر ، يضع الأسس لبناء البلاد ، ويعين شكل الحكومة المقبلة ، ويفاوض الانجليز ، ويعرض عليهم مطالب الشعب • وان عدم وجود مثل هذا المجلس سيساعد الانجليز على الماطلة والتسويق فى مطالب الامة • وانتهى الاجتماع دون أن يسفر عن توحيد الآراء •

وفى عصر اليوم ذاته دعاني الحاج جعفر أبو التمن الى داره ، فلما ذهبت وجدت بعض الاصدقاء ، أتذكر منهم حسن رضا ، وعبدالله ثيان المحامى • فاتحنى جعفر فى موضوع المؤتمر ، وكان متحمسا فى معارضته ، فأبنت له وجهة نظر المبعوثين ، والتى كنت أحبها شخصا ؛ اذ اننى كنت أرى ان نجاح الثورة المسلحة ليس مضمونا ، وانه اذا قدر لها الفشل فسوف ينتجم عنها أوخم العواقب • كما اننى كنت أرى ان الفرصة التى اتاحتها السلطات

المحتلة للوطنيين لتنظيم جهودهم وتوحيد صفوفهم في هذا المؤتمر ، أقول ان تلك الفرصة حري بها أن لا تضاع • ثم هب ان المؤتمر اصطدم بسياسة الانجليز ، هب انهم ارادوا أن يفرضوا آراءهم على المؤتمرين ، وان يسخروهم لما ربههم ، وأن يعاملوهم كدمى أو كمأجورين ، أفليس بمقدور المبعوثين حينذاك ان يطلعوا الشعب على الحقيقة ؟ أفلا يستطيعون اذكاء نار الثورة من جديد ؟ وأي ثورة ستكون تلك ؟ لا شك انها ثورة عنيفة يلجأ اليها الشعب بعد أن عيل صبره وفشلت مساعي مثليه السلمية • ان الثورة ستكون حينذاك أخطر منها الآن وأشد تأثيرا •

خرجت من دار أبي التمن ، وكل منا يحتفظ برأيه •• لا هو اقنع ولا أنا رضيت ••

اللجنة تجتمع



السرويلسن

دخلنا القاعة المعدة للاجتماع ، فاذا بها محاطة بجنود شاكي السلاح • وبعد ان التأم عقد المجتمعين حضر السرويلسن الحاكم الملكي العام ، والمس بيل ، والمستر نورتن أحد الحكام ، وميرزا محمد خان بهادر بصفته مترجما • ألقى السرويلسن خطابا بالانجليزية ، ثم القى ميرزا محمد ترجمته بالعربية (١) ، وهذا نصها :

(١) ان هذا الخطاب ، وخطابي الذي القيته في الاجتماع نفسه ، وكل ما دار من مذكرات وأحاديث في اجتماعات اللجنة مسجل في محضر رسمي موقع من قبل رئيسها السيد طالب ، وهو محفوظ لدي •

دعيت هذه اللجنة لكي تساعد في سن قانون الانتخاب الذي ستجرى بمقتضاه الانتخابات للمؤتمر الذي تريد حكومة جلالة الملك عقده بأسرع ما يمكن عند سنوح الفرصة المناسبة . ولا يخفى عليكم ان على هذا المؤتمر أن يسن قانونا أساسيا لهذه البلاد باستشارة الحكومة الملكية . وأصرح الآن بأن الترتيبات الانتخابية التي سوف تقترحونها انما هي مؤقتة ولها مقصد واحد ألا وهو الانتخابات للمؤتمر العام الاول . وعلى هذا المؤتمر أن يبت في شأن الانتخاب المؤقت وملاءمته لاحتياجات القطر وتعديله اذا اقتضى الامر . ومن المعلوم ان قانون الانتخاب العثماني لا يمكن تطبيقه في الاحوال الحاضرة من دون تعديل لان فيه مواد لا توافق الاحوال الحاضرة مثلا انه كان يشترط على المرشح ان يحسن اللغة التركية .

أما هذا المجلس فيمثل أكثر مواقع العراق وطوائفه ، وبما ان هناك مناطق لم يحضر عنها مندوبون بسبب وفاة بعضهم وتغيب آخرين ، فعلى حضراتكم أن تقترحوا طريقة لانتخاب من يقوم مقامهم في هذه اللجنة التي تتوقع الحكومة الملكية أن تستمد منها كل معونة الآن ، لا فيما يختص بالغرض الذي دعيت لأجله بل في أمور مهمة أخرى يمكن حدوثها .

انى أغتنم الفرصة لأشكركم لتبليتكم دعوتى ومساعدتى في هذا العمل ، وانى واثق بأننا سوف ننال بالتعاون المشترك الأمنية التي تتوخاها حكومة جلالة الملك الا وهي تأسيس حكومة وطنية في العراق . »

بعد فراغ الحاكم العام من القاء خطابه ، غادر القاعة نازكا زملاءه الآخرين ؛ ثم جرى الاقتراع السرى لانتخاب رئيس اللجنة ، فقال السيد طالب النقيب أكثرية الاصوات ، واعتلى منصة الرئاسة . وبعد ذلك طلبت الكلام ، والقيت الخطاب التالى :

سادتى الكرام

غير خاف على حضراتكم ان حق القضاء مقيد بالزمان والمكان ، وكذلك حق التشريع فانه مقيد بهما أيضا . فصفقتا اليوم غير قانونية من وجهتين ، الاولى : من وجهة المكان ، ذلك ان الامة كانت قد انتخبنا لنمثلها في مجلس المبعوثان بالاستانة ، ولما بطل هذا الشرط فقد بطل ما في ضمنه أيضا من صلاحيات وصفات تؤهلنا للتحدث بلسان الامة . أما الوجهة الثانية ، فهي ان الامة قد وكلتنا قبلا لنوب عنها مدة معينة ، وها هي المدة قد انقضت ، فنحن

اذن معزولون عن الوكالة بحكم الطبع أيضا • وعليه فأنى لا أجد لنا اليوم صفة شرعية ولا قانونية لتمثيل الامة •

أيها السادة : ان الحكومة المحتلة قد دعتنا بصفتنا مبعوثين للحضور ، فليتنا دعوتها لمصلحة الامة ، ولكن لا ينبغي أن نسى أو نتناسى ان اعطاء الحكومة صفة المبعوثين لنا لا يكسبها الصبغة القانونية المشروعة مالم تؤيدها الامة بمحض ارادتها •

انا أسلم بان حصولنا على ثقة الامة أجمع غير ممكن فى الظروف الحاضرة حيث لم يتوفر للبلاد بعد قانون للانتخاب • الا اننى لا ارى بأسا فى اجتماعنا طالما ان المهمة الملقاة على عاتقنا ليست بمنزلة تمثيل للامة بالمعنى الصحيح ، بل هى بمثابة رسم طريق يمهّد لاجراء انتخابات المؤتمر العام أو المجلس التأسيسي ، الذى سيكون بدوره حائزا على صفة التمثيل الشعبى والذى سيقوم بتشكيل الحكومة وسن قانون أساسى للبلاد الى غير ذلك من الامور الخطيرة •

انى أعتقد ان مصلحة الامة تقضى بلزوم اجراء انتخابات حرة فى البلاد ، ولهذا أصبح اجتماعنا هنا ضروريا لاجراء بعض التعديلات فى قانون الانتخاب العثمانى بحيث يصبح أكثر ملاءمة للظروف الحاضرة •

أما وقد قبلنا تحمل هذا العبء الثقيل على عواتقنا ، فعلينا ان نعتبر مجلسنا هذا مجلسا أهليا مؤلفا من وطنيين لحل مشكلة وطنية آنية ، مستهدفا خدمة البلاد وأهلها ليس الا • ان الاضطراب والقلق اللذين يسيطران على اذهان الشعب ليجعلان موقفنا فى غاية الحرجة ، وان أى هفوة ترتكبها ستحاسبا عليها الامة ، والحكومة المحتلة الحاضرة ، والحكومة الوطنية المقبلة ، والتاريخ • أمانا طريق واحد ذلك هو طريق الاستقامة فى العمل والاخلاص للبلاد ، يجب أن نضع نصب أعيننا رضى الامة وتأييدها ان لم يكن اليوم ففى الغد ، وان غدا لناظره قريب • ثم غلينا ان نضع التاريخ فى المقام الثانى ، ان التاريخ

قد فتح صفحاته ليسطر فيها أعمالنا ، فطوبى لمن كتبت أعماله بمداد من نور ،
والويل لمن جاءت صفحاته سود .

أيها السادة : ان الشعب اليوم فى وجل من مجلسنا هذا ، فعلىنا أن نبين
له حسن نيتنا وصدق طويتنا ، وان نبرهن له اننا شركاؤه فى المبدأ والغاية
وابناؤه البررة فى السراء والضراء ، وان حياتنا رهينة بحياته وسعادتنا منوطة
بسعادته . يجب أن نؤكد له اننا لسنا آلات بيد الغير ، وان الشقاء اذا أصابه
فسيصيبنا بأوفر نصيب .

انتى أعتقد ان كل فرد من حضراتكم يشعر بنفس شعورى ، وان هذا
الاعتقاد يدفعنى الى مخاطبة الشعب من هذه القاعة قائلا : أيها الشعب المحبوب ،
ان كل فرد من أبنائك يدين برأئك ، يهمه ما يهمك ، ويطمح الى تحقيق ما
تصبو اليه أنت من آمال جسام ، ويسعى الى اسعادك ورفاهك . ومن كان من
أبنائك مخالفا لهذا العهد فتحن براء منه ، وقد حلت عليه لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين . فطب نفسا وقر عينا أيها الشعب الحبيب وأصبر فان الله مع
الصابرين .

سادتى : اذا كنا نبتغى ثقة الامة وان نقوم بمهمتنا على الوجه الاكمل
فعلىنا ان نتوخى تطبيق الفقرات الآتية :

أولا - بما ان الحكومة المحتلة أعطتنا صفة المبعوثية فيجدر بها اذن أن
تسنحنا الصلاحيات والميزات التى تلازم تلك الصفة ، وأهمها الحرية التامة فى
الفكر والرأى والقول ، وان نكون متمتعين بالاستقلال التام فى أعمالنا وأقوالنا
عن كل تأثير أو تهديد ، والا فان القيود ستمنعنا من ابداء رأى سديد أو القيام
بمعمل صالح .

ثانيا - أن تكون جلساتنا علنية يسمح لبناء الشعب بحضورها بدعوة
من الاعضاء كما هى العادة الجارية فى جميع المجالس المماثلة .

ثالثاً - أن تسجل كافة الآراء والمذكرات والمقررات والخطب بأحرف
«الواحد في محضر رسمي بواسطة كتاب معين لهذا الغرض» •

رابعاً - أن ينشر المحضر بدون تحريف في الصحف المحلية أو في
جريدة مخصصة لكي يطلع عليه الخاص والعام من أفراد الشعب العراقي
الكريم ، الذي يهمه معرفة نيات وأعمال الذين القيت بأيديهم زمام أموره
ومستقبله •

خامساً - أن نسمى ما ندخله أو نضيفه من التعديلات في قانون
«الانتخاب» تعليمات وقتية» •

فاذا ما تحققت لنا هذه المطالب وجب علينا الاسراع في العمل بأقصى
ما يمكن لئلا تتدلع الثورة وتراق الدماء •

سادتي : لا شك ان كل ما تقدمت به اليكم سينال قبولكم • فأطلب
اليكم أيها الاخوان أن تشدوا أزرعي وتؤيدوا مقترحاتي ، وان تعتبروا خطابي
هذا نداء الى الشعب ، ينشر في الصحف وفي مناشير مجانية ، ويوزع في
جميع الاوساط لتطمين القلوب وتهذبة الخواطر الثائرة • وبذلك نكون قد
خطونا خطوة واسعة نحو النجاح ، فنخرج من هذه القاعة بيض الوجوه أمام
الشعب والتاريخ • هذا والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام
عليكم •»

فلما انتهت من القاء خطابي اكفهرت وجوه واستبشرت وجوه • ورأيت
الامتعاض على وجه الرئيس وبعض الاعضاء • أما المس بيل فكادت تمزق
ثيابها من شدة الغيظ ، وأخذت منى صورة الخطاب في الحال وخرجت ، ثم
دعت الميرزا محمد لترجمته الى الانجليزية ، وأخذت الترجمة الى ناظر
العدلية تشكوني اليه • ولكن الناظر أجابها ببرودة الدم المعهودة في أبناء
قومه : انه حر فيما يقول ••

انتخبت اللجنة كاتبي الشرف بالاقتراع السري ، ففاز مؤلف الكتاب
وعبدالله الزهير ، وأخذنا مكانينا عن يمين الرئيس ويساره •

كان الذين حضروا الاجتماع الاول من المبعوثين الاصليين هم :-

فؤاد الدفترى ، فؤاد سنية ، مراد سليمان ، الدكتور سامي سليمان ،
جميل الزهاوي ، ساسون حسقييل ، السيد طالب النقيب ، عبدالرزاق النعمة ،
المؤلف ، عبدالله الزهير ، عبدالمجيد الشاوي ، عبدالكريم السعدون ، ناظم
نفضه جي ، داود يوسفاني ، حسن بلك (الموصل) ، الحاج سعيد ، وعبدالوهاب
القرطاس •

ولما كان الحاكم العام قد طلب في منشوره وفي خطابه أن تنتخب اللجنة
أعضاء اضافيين بدلا عن المتوفين أو الغائبين من النواب ، انتخب الحاضرون
الذوات التالية اسمائهم :

السيد داود النقيب ، عبدالرحمن الحيدري ، فخرى جميل ، عبدالجبار
خياط ، عزت باشا ، رشيد العمري ، آصف قاسم أغا ، سيد زيد النقيب ، خضير
ملا فرحان ، خيرالله ، عبدالرزاق الامير ، محمود المعنوق النعمة ، مزاجم
الباجه جي ، ناجي شوكت ، روبين سوميخ ، عبدالغنى كبة ، باقر الشيبسي ، السيد
محمد الصدر ، يوسف السويدي ، جعفر أبو التمن •

اجتمعت اللجنة ثانية وحضر الاعضاء الاضافيون جميعا ما عدا الاربعة
الاخيرين ، وجرى انتخاب نائب الرئيس ، ففاز عزت باشا •

وبعد ان وافقت اللجنة على تسمية نفسها بلجنة الانتخابات العراقية ،
طلبت وضع المقترحات التي وردت في خطابي بالذاكرة •

أجاب الرئيس على النقطة الاولى قائلا ان الحكومة المحتلة آباحت الحرية
التامة في الرأي والكلام •

ووضع الاقتراح الثاني في المذاكرة ، فوافقت اللجنة على علانية

الجلسات ، بالرغم من معارضة بعض الاعضاء . ووافقت كذلك على تدوين ما يدور فيها من الكلام فى محضر رسمى ، وأوصت بتعيين كتاب أربعة لهذا الغرض . كما وافقت على الاقتراح الرابع وهو نشر المحضر فى الصحف المحلية ، ولكن ذلك لم يتحقق ، لان الامر أودع الى المستر نورتن فعاطل فى تنفيذه . أما طلبى فى نشر خطابى فى الصحف فلم توافق عليه اللجنة ، كما ان الحكومة منعت نشره فى الصحف المحلية . غير ان الصحافي الجري عبدالغفور البدرى نشره فى جريدة الاستقلال خلافا لرغبة الحكومة .

ووضع الاقتراح الخامس فى المناقشة فرفض ، وأوصت اللجنة بتأخير تسمية القرارات الى أجل غير مسمى .

مشادة فى اللجنة

جرى انتخاب خمسة أعضاء يعهد اليهم أمر تحضير قانون الانتخاب ، فسميت هذه اللجنة الحماسية بـ (اللجنة الفرعية) ، بينما أطلق على اللجنة الاصلية اسم (اللجنة العامة) . وفاز بالانتخاب كل من : ساسون حسقيل ، المؤلف ، مزاحم الباجه جي ، عبدالجبار خياط ، وناجى شوكت .

وكانت هذه اللجنة تجتمع فى غرفتى الخاصة بدار المحاكم . وأهم ما دار بين أعضائها من نقاش كان حول تحديد سن المنتخب الاول . فقد رأى ثلاثة منا - مزاحم وناجى والمؤلف - أن يحدد بواحد وعشرين سنة لئلا يحرم الشباب - ومنهم أكثر المثقفين فى البلاد - من حق الانتخاب . بينما أصر ساسون حسقيل وعبدالجبار خياط على تأييد وجهة نظر الحكومة بجعل السن القانونية خمسة وعشرين عاما ، لكى يقضوا الشباب والمتعلمين عن ميدان الانتخابات . ثم اختلفنا فى تسمية المجلس القادم ، فرأينا نحن الثلاثة أنه يسمى (المجلس التأسيسى) ، وأصر ساسون وعبدالجبار خياط أن يسمى (مجلس النواب) . بعد هذين الخلافين أصبح من المتعسر تمشية الاعمال فى اللجنة الفرعية ، فاقترحنا أن يعرض الحلافان على اللجنة العامة للبت فىهما . وهمس ساسون حسقيل لرئيس اللجنة العامة وبعض أعضائها برغبة

الانجليز ، فصوت الاكثرية الى جانبه ، وأصدرت اللجنة العامة قرارها
بجعل السن القانونية ٢٥ سنة وبتسمية المجلس الجديد مجلس النواب .

كان لهذين القرارين أسوأ الوقع فى نفوس الشباب . فثارت الضجة
حولهما ، واستقال مزاحم الباجه جي من اللجنة ، وبقيت أنا وناجي شوكت
تكافح وسط تلك الاعاصير الرجعية الجارفة . فلم نأس ، وعمدنا الى الاتصالات
الفردية بأعضاء اللجنة نقنعهم تارة ونحذرهم تارة أخرى من سوء العاقبة ،
حتى انحاز الى جانبنا عدد منهم . فأسرعنا الى رفع تقرير مسهب عن ضرورة
جعل سن المنتخب الاول ٢١ سنة ، وكان الموقعون عليه يشكلون أكثرية
اللجنة ، مما اضطرها الى الرجوع عن قرارها السابق وتعديل المادة . أما
الموقعون فهم :-

المؤلف ، ناجي شوكت ، سيد زيد النقيب ، عبدالله الزهير ، محمود
النعمة ، مراد سليمان ، خضير ملا فرحان ، عزت باشا ، عبدالرحمن الحيدري ،
خيرالله ، عبدالجبار خياط ، السيد قريش ، ناظم نفطجي ، الحاج سعيد ،
وروين سومينخ .

بقي علينا معضلة التسمية . فلجأت الى حيلة ؛ ذلك اننى تلوت على
المجلس نص المنشور الذى أذاعه الحاكم العام ، وخطابه فى اللجنة ، وما ورد
فى تذاكر الدعوة للاجتماع التى وزعتها الحكومة على الاعضاء ، وقد جاء فيها
كلها اسم (المؤتمر العام) فقلت متسائلا :- مالنا نبتدع الاسماء لهذا المجلس
وقد أسمته الحكومة نفسها « المؤتمر العام » ؟ ، وعلام هذا التقاش ما دام الانجليز
أنفسهم قد أطلقوا عليه اسما معنا ؟ . وهنا سمعت المعارضين يقولون ان ذلك
حق فلنسميه اذن « المؤتمر العام » . . . وهكذا وافق المجلس على
ما اقترناه ! .

انتهت اللجنة من تعديل قانون الانتخاب فأصبح جاهزا للتنفيذ . وقبل
ارفضاضها وصل بغداد ، بتاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٠ ، السر برسى كوكس
خلفا للسر ولسن ، فوجه الكتاب التالى الى اللجنة :-

« الى رئيس لجنة الانتخابات العراقية وأعضائها المحترمين

منذ ورودى الى العراق باشرت فى الاطلاع على جريان أعمال لجننتكم فى سن قانون انتخابى للعراق • وكانت هذه هى الغاية المقصودة من انعقاد اللجنة لما افتتحتها السر ارنولد ولسن • فعلى تجديد اجتماعكم أغتنم الفرصة أولا فأبارك لكم على النتائج التى حصلت فى مذكراتكم حتى الآن وثانيا أرجو إن تكملوا العمل المذكور بأسرع ما يمكن لكي لا يحدث تأخير غير ضرورى فى اجراء الانتخابات وعندئذ أرجو من لجننتكم أن تمنع النظر فى المؤتمر الذى تشكلون الترتيبات الانتخابية من أجله سوف يجتمع لكى يبين ارادة الشعب عن الصورة المخصصة للحكومة العراقية فى المستقبل وتعيين أمير على فرض اتخاذ حكومة ملكية أو سلطنة • فهذه المسائل جوهرية ومهمة لمستقبل هذه البلاد لا يمكن اعطاء القرار فيها الا مؤتمر يمثل أهالى العراق جميعهم • وأرجو حضراتكم تجعلوا نصب أعينكم فى تكاليفكم واقتراحاتكم وفى الختام أكرر تشكراتى الخالصة لحضراتكم على ما أبديتموه من الهمة فى أشغالكم وأملى وطيد فى نجاحها • »

ثم انتهت أعمال اللجنة فى ٤ تشرين الثانى ١٩٢٠ •

حزب العهد

فتح حزب العهد - الذى كان قد أسسه عزيز علي المصرى وانتميت اليه فى استانبول - فروعاً فى مختلف البلاد العربية • وكان فرعه فى بغداد دأب النشاط فى عهد الاحتلال • فلما توفي رئيسه الشيخ سعيد النقشبندى اجتمعت الهيئة الادارية للحزب المؤلفة من :

احمد سامى الدبونى (المعتمد) ، عبدالغفور البدرى ، علاء الدين النائب ، الشيخ بهاء الدين النقشبندى ، حسن النائب ، أحمد عزت الاعظمى ، سليمان فتاح ، نورى فتاح ، بهجت زينل ، عبدالعزيز السنوى ، قاسم العلوى ، عبدالله الحاج حمودى ، عبدالواحد محمد ، انور النقشلى ، سامى النقشلى ، ابراهيم الواعظ ، أمين زكى •

اجتمع هؤلاء وانتخبونى رئيساً للحزب ، وأودعوا اليّ وثائقه السرية وقائمة بأسماء اعضاءه ومؤازريه •

دارت قبيل وفاة الرئيس السابق بعض المفاوضات بين حزب العهد وحزب الحرس ، الذى كان يرأسه السيد الصدر ، لتوحيد الخطط وتبادل

الآراء فيما بينهما ؟ فرأى الحاضرون فى ذلك الاجتماع ضرورة استئناف تلك المفاوضات ، وعهدنا الى السيد أحمد سامى الدبونى وبهجت زينل الدخول فيها . وبعد أخذ ورد لم يصل الطرفان الى الاتفاق ، كما ان الثورة العراقية نشبت فى تلك الاثناء وتولى قيادتها حزب الحرس ، فلم يبق مجال للمفاوضات ، فانقطعت دون أن تسفر عن نتيجة مرضية .

على هامش الثورة العراقية

لست أرى حاجة الى الاسهاب فى ذكر الثورة العراقية التى نشبت فى العراق عام ١٩٢٠ م اذ ان معظم أخبارها والاعمال البطولية الخالدة التى أتاها ليوث العراق وأشباله فيها دونت فى مؤلفات عديدة . الا انى سأتى على وصف للحالة العامة فى بغداد فى تلك الفترة .

ما ان اعلنت الثورة حتى انضم اليها عدد كبير من الشخصيات البارزة ، ومن الضباط العراقيين الذين خدموا سابقا فى الجيش العثماني ، أذكر منهم : محمود سامى ، سامى النقشلى ، الحاج طالب ، حسين العلوان ، الحاج شاكر القرغولى ، اسماعيل الآغا ، جميل قبطان ، شاكر محمود (فمبر على) ، الحاج محمود رامز ، شاكر محمود (المسيب) ، سليمان فتاح ، محى الدين السهروردي وغيرهم .

وحين تهاوت انباء الثورة الى الضباط العراقيين المجاهدين فى سوريا أسرعوا بالتوجه الى العراق للاشتراك فيها ، وكان على رأسهم مولود مخلص ، ورمضان شلاش ، وجميل المدفعى ، وتحسين على ، وعبد الحميد الدبونى وغيرهم .

زحف جميل المدفعى وعبد الحميد الدبونى برتلهما على تلعفر ، فاحتلا المدينة واطرافها بمعونة الشيخ ضارى وابنيه خامس وسليمان . وهناك جرت المذبحة الشهيرة التى قتل فيها الكولونيل لجمن ، الكابتن بارلو ، والكابتن ركلى ، واربعة من الملازمين ، وعدد من الموظفين الانجليز . فقم الانجليز على قائلهم ، وساقوا الى تلعفر قوة عظيمة لسحق القوة العربية ، الا ان المدفعى

والدبوني استطاعا الافلات من هلاك محتم ، وانسجبا بكامل قوتهما الى دير الزور .

تأزم الوضع في العاصمة واشتد التوتر بين الاهلين والحكومة ، فلجأت هذه الاخيرة الى استعمال العنف والشدّة . وكان السيد الصدر قد تولى زعامة الثورة ، فعزمت الحكومة على اعتقاله وعدد من اعوانه ، الا انه تمكن من الفرار ، هو وجعفر ابو التمن وعلي البزركان .

داهم الجنود الانكليز دار الشيخ احمد الشيخ داود - المجاورة لدارى - فجراً ، فقيدوه واقتادوه بملابس النوم ، بعد ان نهبوا الحلى والنقود التى وصلت اليها ايديهم ، ثم أبعدوه الى هنجام . وفي اليوم التالى زارتنى عقيلته ام سلمان وسلمتنى امتعتى وملابسه كى اتوسط بارسالها الى منفاه ، فأرسلتها بدورى الى عمى الحاج طه فى البصرة ، فأوصلها بعد لاي اليه .

ثم جرى اعتقال كل من عارف السويدي ، وجلال بابان ، وسامى خوند ، وابراهيم ناجى ، وأبعدوا الى هنجام أيضا .

أغار الجنود على دار يوسف السويدي الواقعة فى محلة خضر الياس لالقاء القبض عليه ، وما ان تناهى الحُبر الى رجال المحلة حتى هرع الغيارى منهم المدافع عنه ، فتحصنوا فى سطوح الدور المجاورة ، وراحوا يناوشون المغيرين لمشاغلهم ريثما يجد السويدي منفذا للهرب . وتبدلت نيران حامية ، ولجأ الانجليز الى القاء القنابل على الدور ، فانهذ بعضها واستشهد عدد من المدافعين البواسل . وفى هذه المعمة تسلل السويدي من داره الى سطوح الدور المجاورة واستطاع النجاة . انسحب المدافعون على اثر ذلك ، فداهم الجنود الدار وفتشوها ، فعثروا على جملة رسائل ، بينها رسالة من الوطنى الشهيد عبدالمجيد كنة الى السويدي ، يشرح له فيها خطة أعدها مع فريق من زملائه لاغتيال الضباط الانجليز . وبناء على هذه الرسالة حوكم عبدالمجيد كنة محاكمة صورية وأعدم شنقا .

نشر السر برسي كوكس بياناً في العدد ١٤٠ من جريدة العراق بتاريخ ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ ، أطلق فيه اسم « المجلس النيابي » على المؤتمر العام المنوي عقده ، مناقضاً لما جاء في توصية لجنة الانتخابات العامة . فنشرت مقالاً في العدد ١٦٢ من الجريدة نفسها عارضت فيه بيان الحاكم العام ، وأوضحت الفرق بين المجالس النيابية والمجالس التأسيسية . ففصب غني ، واستصدر قراراً يقضي بمنع موظفي الدولة من نشر آرائهم السياسية في الصحف بدون تصريح خاص من الحكومة ، وبلغت بصورة منه ..

تشكيل الوزارة النقيبىة الاولى

أصدر السر برسي كوكس أمراً بالغاء الاحتلال ، واحلال الانتداب محله ، وبتشكيل وزارة وطنية . فتألفت على الشكل التالى :

السيد عبدالرحمن النقيب للرئاسة ، السيد طالب النقيب للداخلية ، جعفر العسكري للدفاع ، ساسون حسيقل للمالية ، مصطفى الآلوسى للعدلية ، محمد علي فاضل للاوقاف ، محمد علي بحر العلوم للمعارف . وبعض الوزراء بلا وزارة .

وكانت مهمة هذه الوزارة ادارية أكثر منها سياسية ، عهد اليها بتمشية الشؤون الداخلية للبلاد . وأصبح المستر كارتر ناظر العدلية مستشاراً لوزيرها الجديد .

ومما هو جدير بالذكر ان الوزراء العراقيين بدأوا يتدخلون في شؤون القضاء ويفرضون رغباتهم على الحكم بمجرد ارتقائهم الى مناصب الوزارة . وأذكر حادثتين حدثتا في الاسبوع الاول من تسلم الوزراء الجدد كراسى الحكم . ذلك ان وزير العدلية ارتجى مني ومن داود سمرة ان تجيز في احدى القضايا المعروضة على محكمتنا ، فرفضنا رجاءه وزجرناه . وفي قضية اخرى طلب مني السيد طالب ان احكم لصالح رئيس الوزراء السيد عبدالرحمن النقيب ، وكان طرفاً في نزاع ، فامتعت واصدرت المحكمة قرارها لصالح خصومه .

وأود هنا ان انوه بعناية الانجليز بالقضاء وحرصهم على نزاهته • ذلك ان الحكومة عهدت الى السر كارتر بانتقاء حكام وطنيين ، يحلون محل الحكام السياسيين الانجليز فى بعض الالوية ؛ فكان هذا يستشير من يثق بهم من حكام التمييز ومن الحكام الآخرين فى ترشيح من يرونه كفؤا للمناصب القضاء • حتى اذا تجمع لديه عدد من المرشحين ، عكف على التحقيق فى اخلاقهم ، وسيرهم ، ومعلوماتهم القانونية ؛ وقد تستغرق هذه الدراسة اشهرا • فاذا اطمأن الى احدهم لم يعينه حتى يحصل على تعهد خطى ممن زكاه • هذا هو السر فى نزاهة القضاء العراقى فى بداية عهد الحكم الوطنى • فلما كرت الاعوام ، وآل الامر الى ايدى الوطنيين ، دب الفساد فى دور العدل ، وانتهكت حرمة القضاء ••

مؤتمر القاهرة

عقد الانجليز فى القاهرة ، فى ٩ مارس ١٩٢١ ، مؤتمرا لبحث شؤون الشرق الادنى • وقد حضره المستر تشرشل وزير المستعمرات والكونلونيل لورنس قادمين من بريطانيا ؛ ووفد من العراق يتألف من السر برسى كوكس ، والجنرال هلدين القائد العام للجيش البريطانى فى العراق ، وجعفر العسكرى وزير الدفاع ، وساسون حسيقل وزير المالية ، والمس بيل ، وعدد من كبار ضباط الجيش البريطانى فى العراق • وقد توصل المؤتمر الى قرار بانشاء دولة ملكية فى العراق برئاسة الامير فيصل • فلما عاد الوفد العراقى الى بغداد نشر البيان التالى :-

(كان السبب الاول الذى دعا الى عقد المؤتمر الذى التأم فى القاهرة رغبة وزير المملكة الجديد فى الاجتماع بالممثلين البريطانيين فى المناطق الواقعة ضمن دائرة مسؤوليته كالمندوبين الساميين فى العراق وفلسطين وحاكمى عدن وبلاد الصومال وذلك لكى يطلع الوزير رأسا على مجرى الامور فى الاقطار المذكورة •

اما فيما يخص بالعراق فكانت المسألة الموضوعة على بساط البحث انقاص المصروفات العسكرية انقاصا كبيرا لكى تتمكن الحكومة البريطانية من القيام بأعباء المحافظة على حالة ثابتة الاركان فى البلاد العراقية ريثما تتمكن

الحكومة الوطنية ذاتها من ان تأخذ على عاتقها مسؤولية الدولة العربية التي ترمى الحكومة البريطانية الى تأسيسها وتأييدها .

وقد تمكن فخامة المندوب السامي وجناب القائد العام من ان يقدموا الى المؤتمر اقتراحات ترمى الى اقتصاد بعضه عاجل وبعضه تدريجي مما جعل وزير الدولة شديد الآمال بأنها ستأتى مرضية لآراء حكومة جلالة الملك والرأى العام البريطاني والعربي ، وفي الوقت ذاته احل الاتفاق الذي توصل اليه بشأن المحافظة على الأمن الداخلى وحماية الحدود والترتيبات المالية اللازمة لترقية الجيش العربي محله من الاعتبار .

وسيصدر فى وقت قريب عفو عام يشمل جميع الذين اشتبكوا فى الاضطرابات الاخيرة عدا بعض افراد ارتكبوا جرائم فظيعة كقتل الكولونيل ليمان وما اشبه من الجرائم .

ولما انتهى المؤتمر سافر الوزير الى فلسطين ومنها الى انكلترا لى يقدم بذاته النتائج التى أسفر عنها المؤتمر الى مجلس الوزراء والأمل وطيد ان ترد فى بضعة أيام القريبة برقية بمصادقة مجلس الوزراء عليها فيصدر المندوب السامى بلاغا آخر .)

السيد طالب يرشح نفسه لعرش العراق

زارنى السيد طالب فى المحكمة ذات يوم ورغب فى مكلمتى على انفراد .

قال : انى عزمت على ترشيح نفسى لعرش العراق ، ونظرا لما اعهد فىك من محبة لي ارجو ان تبث لي الدعاية فى الاوساط القضائية ، وتحمل الحكام والمحامين وطلاب الحقوق وموظفى وزارة العدلية على التصويت بجانبى .

قلت له : انك تعلم ان منافسك هو الامير فيصل الذى أجمع الثوار والشعب والحكومة المحتلة نفسها على تأييده ، فمسمعك هذا سيوء بالفشل الذريع . ان صديقك من صدقت لا من صدقت ، واعلم انى ناصح لك .

قال : انك واهم . فالمستر فلبى فى جانبى ، وقد تعهد لي ببذل اعظم الجهود . انه وعدنى باقناع السير برسى كوكس الذى لا يزال مترددا فى أمر الملك الجديد ، ويحمل المس بيل على التخفيف من

تحمسها للامير فيصل ، ثم انه كتب الى الحكام السياسيين في الالوية الجنوبية بوصيهم ببذل المساعدة لي . لذلك عازمت على الطواف في تلك الالوية ، والقيام بدعاية انتخابية واسعة هناك . فأرجو منك ان تقوم أنت بالدعاية في الميدان الذي أخالك متنفذا ومجوبا فيه .

قلت : أود ان أصارحك بحقيقة لا أخالك تجهلها : ان الناس في بغداد لا يعطفون عليك ، بل ويكرهونك أيضا . واني لن أزج بسمعتي وكرامتي في تحريض الناس على اتيان ما يكرهون .

قال : يظهر انك تغيرت عليّ . ثم نهض غاضبا وخرج .
بعد ان قام السيد طالب بجولته في المدن الجنوبية ، التقيت به صدفة عند وزير الاوقاف . فقال لي :

- أريد ان اتغدى عندك غدا .

فأجبت : على الرحب والسعة ، وهل تحب ان أدعو احدا ؟

قال : لا بأس ان يكون رشيد الخوجة متصرف بغداد حاضرا معنا .

فدعوت رشيد ، وحضر في الوقت المعين ، الا ان طالبا لم يحضر . وأرسل الينا رسولا في ساعة متأخرة يعتذر بانه نسي الدعوة وانه آسف لذلك .

وفي مساء اليوم نفسه وردت اليّ برقية من عمى الحاج طه في البصرة ، مفادها ان رجال البوليس تحروا داره ، فلما لم يعثروا على شيء مريب اعتذر مدير البوليس الانجليزى بقوله ان التحري قد جرى بناء على أمر برقي من السيد طالب .

أثارت فيّ هذه البرقية سورة من الغضب . فذهبت في الحال الى السيد طالب وعاتبته عتابا قاسيا ، وذكرته بمعاذتي له ايام محنته ، وبموافقي المشهوده في مناصرته ، وذكرته برغبتي في مرافقته الى منفاه وفاء واكراما له . فهل هذا جزاء الوفاء والاكرام ؟

اما هو فكان يعانقني ، مهدئا ، ويقسم الايمان المغلظة بأنه لم يكن له علم بالتحري . وهكذا خرجت منه غاضبا متألما .

لم أكن أعلم بأن السيد طالب أحاطني بالجواسيس يرفعون التقارير المختلقة ، رغبة منه في الايقاع بي ، حتى زارني صديق يشتغل في دائرة التحقيقات الجنائية ، وأسر الي انه قد كثرت في الآونة الاخيرة تقارير الجواسيس عني ، وان مفوضا يدعى محمد الدليمي قد رفع تقريراً جاء فيه انه في الليلة الماضية اجتمع بعض الاشخاص في داري ، وهم اعضاء في جمعية اليد السوداء التي ترمى الى اغتيال كبار الانجليز في بغداد . وهنا ضقت ذرعاً بهذه الوشائات ، فذهبت الى مستشار العدلية السر بونهام كارتر وقلت له :

- أظنك راضياً عن اعمالي في المحكمة .

فأجاب مستغرباً :- جدا . . جدا . . قلت :-

- وانك تعلم ان الحاكم العادل يخلق له اعداء . وقد بلغني الآن ان احد الاعداء أوعز الى بعض الجواسيس بتقديم تقارير مختلقة عن أمور انا براء منها . فأرجو ان توزع الى أحد ضباط البوليس الانجليز بالتحقيق في أمر هذه التقارير والتأكد من صحتها .

فطمأنني بأنه سوف يتخذ التدابير اللازمة حالا .

اسفر التحقيق عن ان الاشخاص المتهمين بالاجتماع في داري كانوا في اماكن مختلفة في وقت الاجتماع الموهوم ، وان احدا منهم لم يعبر الى جانب الكرخ في تلك الليلة . وهكذا انفضحت المؤامرة ، فطرد المفوض وزج به في السجن .

اقالة السيد طالب وابعداده

وجه المندوب السامي الى السيد طالب دعوة لتناول الشاي في داره مساء يوم ١٦ نيسان ١٩١٢ . فلما خرج من الدعوة ، كان عدد من سيارات الجيش في انتظاره ، فسارت في الطريق الذي انتهى به الى الهند مرة ثانية . . وبعد ثلاثة ايام نشر المندوب السامي بيانا في العدد ٢٧١ من جريدة العراق هذا نصه :-

(يرى فخامة المندوب السامي من المناسب ان يوقف الرأي العام على الاسباب التي اقتضت اقالة السيد طالب باشا من الحكومة واخراجه من بغداد .

ان فخامة المندوب السامي قبل مغادرته بغداد صرح مراراً علانية وفي

اثناء محادثاته مع المأمورين والاشراف بأن رغبته ورغبة حكومة جلالة الملك ترمى الى ضمان الحرية التامة للعراقيين ليعربوا عن رغباتهم بشأن نوع الحكومة التي يطلبونها والشخص الذي يريدون ان يتولى عليهم .

وعند رجوع فخامته من القاهرة « مصر » أكد تصريحاته هذه لعظمة رئيس مجلس الوزراء ، وللسيد طالب باشا لما فاتحاه بشأن المسألة نفسها .
ولكن صباح اليوم السادس عشر من الشهر الحالى بلغ مسامع فخامة المندوب السامى أمر خطاب وجهه السيد طالب باشا الى فريق من الوجهاء فى اثناء مأدبة أقامها فى اليوم الرابع عشر من الشهر الحالى اكراما لوجيه بريطانى اثناء زيارته بغداد زيارة قصيرة .

وبعد ان الح السيد طالب على ضيفه مستقصحا منه ما اذا كان بإمكانه تأكيد تصريحات فخامة المندوب السامى بالنظر الى موقف الحكومة البريطانية فى هذا الشأن ، وبعد ان استفهم عن خير الطرق التى يضمن بها اقالة بعض الموظفين البريطانيين من حاشية فخامة المندوب السامى الذين لم يستحسن خطتهم ، اطرد الكلام بقوله انه هو وبناء بلاده قد عزموا على حمل ذوى الشأن على تنفيذ خطة حكومة جلالة الملك بأمانة حسب التصريحات المذكورة آنفا ، ومن ثم التفت الى أمير ربيعة والشيخ سالم آل خيون اللذين كانا من عداد ضيوفه وقال كمن يقترح اقتراحا ، انه اذا بدرت أي بادرة عكس ذلك فيجب ان يحسب حسابا للامير ربيعة والعشرين الف من رجاله المسلحين وللشيخ سالم آل خيون والقبائل التابعة له . وقد تمادى فى تهوره حتى قرن اسم عظمة النقيب فى هذا التهديد .

ان فخامة المندوب السامى لا يخامره ابدا أقل شك فى الموقف الحى الذى للزعيمين المشار اليهما أو فى استقامة مقاصد عظمة النقيب استقامة تامة .
ولكن فخامته يرى انه والحالة هذه اذا ابدى اقل تسامح فى امر التفوه بكلام ينم فى تهديد شائن باشهار السلاح فى وجه حكومة جلالة الملك ويصدر عن رجل كالسيد طالب باشا الذى يشغل منصبا خطيرا فيكون مقصرا فى القيام بواجبه نحو سكان هذه البلاد والحكومة البريطانية .
فبناء على ما تقدم وجبا بمصلحة القانون والنظام والحكومة الصالحة رأى فخامته من واجبه ان يطلب من القائد العام ان يتخذ التدابير اللازمة لابعاد السيد طالب حالا .

وقد غادر السيد طالب بغداد فى مساء السادس عشر من الشهر الحالى (٠)

طلب المندوب السامى بعد ذلك من فلبى الاستقالة من منصبه ومغادرة العراق . فامثل للامر وغادر بغداد .

استمرت مكاتبتى مع السيد طالب فى منفاه الجديد . وكان يخاطبني فى

رسائله بقوله : اخى العزيز النزيه ، واخى العزيز المصطفى من الذهب الابريز ، الى غير ذلك من النعوت التى لم يسبق ان جاءت فى مكاتباته السابقة . وكنت أجيئه بما تقتضيه المجاملة واللياقة .

العفو العام عن المجرمين السياسيين

فى ٣٠ مايس ١٩٢١ م أعلن العفو عن جميع المجرمين السياسيين ، سواء المحكوم عليهم بالاعدام أو بالحبس أو بالنفى ، والموقوفين والهاربين . واستثنى من العفو كل من جميل المدفعى ، وعبد الحميد الدبونى ، والشيخ ضارى ، وولديه ، ورفاقهم من الذين حكم عليهم بالاعدام . الا انه بعد مدة طويلة أعفى عنهم بوساطة جلالة الملك فيصل .

فى المحكمة

اقترح مستشار العدلية زيادة راتبى وراتب داود سمرة من التسعمائة الى الالف ومئة روبية . فلما تماهلت وزارة المالية فى تنفيذ ذلك الاقتراح ، رفع المستشار تقريراً ذكر فيه ان داود سمرة هو مؤسس المحاكم المدنية فى بغداد ، وبأنتى مؤسسها فى البصرة ، ولذلك فهو يعتقد ان خدماتنا « العظيمة » لا تتناسب وراتبنا الحاليين . فوافقت الوزارة المذكورة على الترفيع حالا .

وفى ١٠ مايس ١٩٢١ م عين كل من الحاج صالح الباجه جي ورشيد على الكيلانى حاكمين اضافيين فى محكمتنا براتب قدره تسعمائة روبية .

رغب السر كارتر بونهام فى اعتزال العمل ومغادرة العراق . فقررت وزارة العدلية ومدرسة الحقوق اقامة حفلة مشتركة لتوديعه ، وعهدوا اليّ بتنظيمها . جاءت الحفلة على جانب عظيم من الفخامة ، حضرها المندوب السامى وعقيلته والمس بيل وكبار الانجليز والوطنيين . وكان من جملة الخطباء والشعراء جليل صدقى الزهاوى ، ونجيب الراوى الطالب فى مدرسة الحقوق بالنيابة عن زملائه . وفى ختام الحفلة قدم نشأت السنوى الى المحتفى به هدية مدرسة الحقوق . وهى صورة لطلاب المدرسة وأساتذتها فى اطار فضى . ثم ارتجلت كلمة الختام وقدمت هدية موظفى العدلية وهى علبة سيكاير ذهبية .

قدوم الأمير فيصل وتوحيجه

وصل سمو الأمير فيصل البصرة في الثالث والعشرين من حزيران ١٩٢١ فاستقبل فيها استقبالا منقطع النظير . ثم توجه الى بغداد بالقطار ، وجرى استقباله فيها بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد كان الناس يأملون في قدومه الى العراق انهاء لحالة القلق والتبيلل التي سادت البلاد عدة سنين ، وفتحا لعهد جديد يخلصهم من سيئات العهود الماضية . وكانت تقام له حفلات التكريم في كل يوم ، فيرد على الخطباء بكلمات بليغة مرتجلة ، مؤكدا اخلاصه للعرب وشغفه بتقدمهم .

ولما جرى انتخاب الملك جاء فوزه ساحقا أشبه بالاجماع . استعدت بغداد ليوم التتويج ، وأرسلت الالوية وفودها للاشتراك في الاحتفال التاريخي . جاءت الحفلة على جانب عظيم من الروعة ، حضرها آلاف المدعوين ، وكانت الطرق المؤدية اليها مزدحمة بعشرات الألوف من الناس .

اعتلى جلالة الملك فيصل الاول المنصة ، وجلس الى يمينه السربرسي كوكس المندوب السامي ، وإلى يساره السيد محمود النقيب نجل السيد عبدالرحمن النقيب رئيس الوزراء ونقيب اشراف بغداد ، الذي أعاقه الم في ساقه عن الحضور فأرسل ابنه نيابة عنه . وبعد ان تليت خلاصة نتائج الانتخاب القى السيد محمود النقيب بعض الدعاء ، ثم تقدم المندوب السامي وهنا جلالة الملك ، فأعقبه نائب رئيس الوزراء والوزراء ، وتعاقب المهثون من بعد ذلك على تهنئته والدعاء له .

انتهزت فرصة وجود وفود الالوية في بغداد فوجهت اليهم دعوة لحفلة شاي ، وأرفقت بكل بطاقة قائمة باسماء المدعوين - الذين أربوا على المائة وعشرين - لكي يتعرف كل منهم على اخوانه وزملائه . أقيمت الحفلة في أو تيل أمبريال في اليوم الثاني من تموز ١٩٢١ ، وكان من خطبائها وشعرائها ابراهيم حلمي العمر صاحب جريدة لسان العرب ، ومحمد حسن كبة بالنيابة عن الشيبية الجعفرية ، وعبدالله النعمة بالنيابة عن وفد الموصل ، وشاكر النعمة

بالياباة عن وفد البصرة ، وعطا أمين • وقد القيت كلمة شكر باعتباري صاحب الدعوة ، ثم ارتجل ناجي السويدي خطابا حماسيا بليغا • وقد أخذت للمدعوين تصاوير مشتركة •

سفرتي الى الموصل مع مولود مخلص

بعد قدوم الأمير فيصل الى العراق اقترحت على صديقي مولود مخلص القيام بسفرة قصيرة الى الموصل ترويحاً للنفس • وصادف اقتراحي هوى في نفسه ، فأخذنا القطار الصاعد الى الشرقاط ، ومنها الى الموصل بالسيارة • وفي الغزلاني وقف مئات المستقبلين في انتظارنا ، فلما وصلنا انبرى الخطباء والشعراء للترحيب بمقدمنا • وكانت اقامتنا في الموصل شيقة ، دعينا خلالها الى حفلات عديدة عبرت فيها الحداثة عن ابتهاجها واعتزازها بابنيها • وفي احدى الحطب التي القيتها هناك بلغت الشعب الموصلى تحيات سمو الأمير فيصل التي حملنيها حين استأذنته بالسفر •

وكانت عودتنا صحبة الوفد الموصلى الى حفلة التتويج التي مرّ ذكرها •

تشكيل الوزارة الوطنية الاولى

بعد ان توج جلالته الملك فيصل ملكا على العراق قدم عبدالرحمن النقيب استقالته حسب الاصول الدستورية ، فقبلها جلالته ، وعهد اليه بتشكيلها مرة اخرى •

جاءني توفيق الخالدي الى غرفتي بالمحكمة ، وكانت غاصة بالزملاء من الحكام ، وبلغني رغبة رئيس الوزراء في قبولي منصب وزارة المعارف في الوزارة الجديدة • فاعتذرت ، قائلا انني افضل منصب الحاكمية الدائم على منصب الوزارة الوقتي •

اني الآن وان لم أكن مقتنعا تمام الاقتناع بصواب ذلك الرأي الا ان شعورا خفيا حملني على التمسك به • ربما كنت في اعماق نفسي أشعر بأن الوزير في تلك الايام كان يعمل بلايحاء من الانجليز ، وكان مجبرا على الحد

من ميوله الإصلاحية مجاراة لما يشتهون ، بينما كان الشعب ينتظر منه خوارق الاعمال ، فإذا ما اصطدمت هذه الرغبة بتلك السياسة أصابه الفشل .

لعل الخوف من ذلك الفشل ، أو لعل حرصى الشديد على الاحتفاظ بسمعتى نقية صافية بين الناس ، ووطنيتى متطرفة جلية أمام التاريخ ، لعل هذا أو ذاك حملنى على الاعتراض عن تحمل مسؤولية الحكم . . .

ومهما يكن من أمر ، فأني اعتذرت ، ورجوت الخالدى ان يبلغ اعتذارى الى رئيس الوزراء بصورة لا تترك لديه ريبة . فقبل الاعتذار ومرّ الامر بسلام .

انفصال البصرة عن العراق

ابتليت البصرة فى ذلك الحين ، أكثر من أي مدينة اخرى فى العراق ، ببطقة مترفة من أهلها لا هم لها الا مصالحها ، ترعاها وتبذل كل شيء فى سبيل المحافظة عليها ، فلا تقيم وزنا للاعتبارات الوطنية والاخلاقية ، ولا يردعها صوت ضمير أو نداء واجب .

خشى المترفون ان تمس مصالحهم بسوء فيما لو تسلم عرش العراق ملك عربى وتولت الحكم فيه وزارة وطنية ، اذ كانوا يجدون فى رضى الانجليز عنهم نعيما ، ويرون فى بقائهم تحت ربة الاستعمار ضمانا لدوام ذلك النعيم . فلما عرض الحاكمون مشروعا لانفصال البصرة عن العراق ، تسابق عبيد القوة الى التوقيع عليه . وكان المعارضون لهذا المشروع من شباب البصرة الذوات التالية اسماؤهم : محمد زكى ، عبدالعزيز المطير ، عمر فوزى ، محمد أمين باش أعيان ، والحاج احمد حمدى الملا حسين ، الذين حين بلغت معارضتهم مسامع رئيس المحاكم المستر براهامس - وهو الذى وضع نص العريضة بالانجليزية - هددهم بالاعتقال .

نص العريضة :-

(الى صاحب الفخامة السير برسى كوكس حامل لوسام امبراطورية الهند من درجة قائد عظيم ووسام القديسين ميخائيل وجورج من درجة فارس ووسام نجمة الهند من درجة فارس المندوب السامى لاراضى العراق المحتلة .

- (١) نحن الموقعين ادناه من فئة الاغلبية الراجحة من أهالى مقاطعة البصرة نرجو بكل خضوع عرض آرائنا الآتية على حكومة جلالة الملك فيما يتعلق بمستقبل مقاطعة البصرة ونوع الحكومة الخاص بها والتي نرجو من حكومة جلالتة ان تسمح بتأسيسها .
- (٢) غير خاف على حكومة جلالة الملك ان احتلال الجيوش البريطانية للبصرة عام ١٩١٤ قد قوبل من أهالى البصرة بمزيد الترحيب ولم يكن اذ ذاك من حاجة الى التأكيدات التي صرح بها فخامة نائب الملك فى الهند يوم ٦ فبرورى سنة ١٩١٥ لاقناعهم بان مصالحهم ستكون موضع العناية الخاصة من حكومة جلالتة .
- (٣) غير خاف أيضا انه منذ اليوم الاول للاحتلال قد سلك أهالى البصرة مسلكا سلميا مطابقا للقوانين كما انهم قبلوا بمزيد الارتياح نوع الحكومة التي أسست والقوانين التي سنت للبلاد .
- (٤) ولا يخفى انه فى خلال الاضطرابات التي حدثت فى العام الغابر لم يحدث فى البصرة ما يعرقل سير الحكومة المحلية أو حكومة جلالتة أو ما يسبب قلقا لهما من السلوك المغاير للقوانين أو نشر الدعوى العدائية ضدهما بل بالعكس كانت هذه الاضطرابات موضع السخط من أهالى البصرة الذين تجنبوا ولا يزالوا يتباعدون عن كل حركة من شأنها ارغام الجيوش البريطانية على الانسحاب ورفع الوصاية من البلاد . وهنا نرجو ان نلفت انظاركم الى قرار مجلس أشراف البصرة بهذا الشأن .
- (٥) فى حين ان أهالى البصرة يقدرّون أو بالاحرى يستحسنون مبادئ تقرير مصير بلادهم بأنفسهم تلك المبادئ التي على وشك ان تنشئ حكومة عربية فى البلاد المحتلة يلتزمون من حكومة جلالتة تطبيق هذه المبادئ بالدقة على مقاطعة البصرة وان تكفل لها ادارة ممتازة .
- (٦) ومن المعلوم جيدا ان الميزات الخاصة بالبصرة كانت سببا فى تباينها منذ اعوام عديدة عن الاراضى العراقية الواقعة شمالها وهى التي سيطلق عليها فيما بعد اسم العراق الى هذه الاعتبارات - ولما كانت البصرة بحسب موقعها الطبيعي تغرا تتبادل فيه التجارة الدولية لذلك أمها منذ اعوام عديدة عدد ليس بالقليل من ابناء الغرب وغيرهم من الاجانب ولا يزال عددهم ينمو نموا متواليا والمرجح ان يزداد ازديادا عظيما جدا فى المستقبل القريب وقد كان من دوام الاختلاط بالشعوب الاجنبية تأثير على اهل البصرة ذهب بهم الى الاعتقاد بان تقدمهم سيكون مخالفا فى نوعه وسرعته لتقدم العراق .

- (٧) ومع علمنا بذلك فالراسخ في الازهان هنا هو ان اهالى البصرة لكونهم فئة الاقلية بين سكان العراق ستكون بحكم الاضطراب حركاتهم بنفس النسبة وفي ذات الاتجاه كباقي اهالى العراق وبطبيعة الحال يرون وارداتهم تصرف على المشاريع التي لا يستفيدون منها شيئا بحيث يصيبهم حيف عظيم وليس من منجد أو حول على منعه .
- (٨) وبهذه المناسبة نلتبس بخضوع أن تصور لكم موقع البصرة وما فيه من وجوه الشبه بينه وبين موقع البلاد التابعة لبريطانيا العظمى والمتمتعة بالحكم الذاتي فان تلك البلاد لبعدها عن مركز الحكومة الرئيسى ووجود الاتحاد في المقاصد السياسية بين سكانها قد سلم بما لها من المطالب الحق في التمتع بحياة سياسية مستقلة اذ بهذه الكيفية وحدها نالت شئونهم ما افتقرت اليه من الاهتمام اللازم .
- (٩) ويستفز أهالى البصرة حكومة جلالته ان تنظر في نقطة جدالهم وهي انه اذا استاء فريق من أهالى العراق وكانت آراؤه السياسية مختلفة عن سائر أهله وسالكا مسلكا مغايرا لباقي أهل العراق فاذا ما اجبر هذا الفريق على الخضوع لأى شكل حكومة حيث لا تكون مصالحه مضمونة ينتج من ذلك نفور يقف في سبيل تقدم جميع طبقات الامة العراقية .
- (١٠) ولا يرغب أهالى البصرة فى شىء غير الخير لأهالى العراق ولا شىء أحب اليهم من ان يسيروا واياهم جنبا الى جنب على اسلوب تعود منه الفائدة على الفريقين وعلى العالم عموما ولكنهم يعتقدون بانه لا يمكن الوصول الى هذه النتيجة الا بمنح البصرة استقلالاً سياسياً منفصلاً .
- (١١) وعليه نتشرف بعرض المشروع الآتى على فخامتكم للتفضل بتبليغه الى حكومة جلالته الا وهو انشاء ادارة سياسية مستقلة لمقاطعة البصرة ولو اننا بالطبع لا نعتبر هذا المشروع تاماً أو غير قابل للتعديل مع الاسهاب .
- (١٢) ورجاؤنا هو ان تصير مقاطعة البصرة مقاطعة منفصلة تحت اشراف أمير العراق أو أي حاكم ينتخبه أهالى العراق وتكون هذه الرابطة بين البصرة والعراق وحدة يطلق عليها اسم ولايتى العراق والبصرة المتحدتين .
- (١٣) ويكون للبصرة مجلس تشريعى منتخب خاص بها يكون لهذا المجلس السلطة التامة فى التشريع المختص بالشؤون المحلية المحضة ولحاكم الولاياتين المتحدتين الحق فى رفض أو طلب تعديل أى تشريع يمس بمصالح أهل العراق .
- (١٤) كل قانون مشترك بين الولاياتين كقانون تسليم المجرمين الفارين وتأبيد

الأوامر التنفيذية وتبليغ الاعلانات وتنفيذ الاحكام ومهاجرة الاعداء والجنسية والتجنس يجب سنه أو تعديله حسبما تقتضيه الظروف بمعرفة مجلس مشترك مؤلف من عدد متساو من نواب كلتي الولاياتين . وفى حالة اختلاف الآراء اختلافا كلياً بين الفريقين يعرض الموضوع على ممثل حكومة جلالة الملك للبت فيه .

(١٥) وتعين بريطانيا العظمى بما لها من حقوق الانتداب شكل حكومة البصرة ومحاكمها ويعين حاكم ولاية البصرة رؤساء الدوائر فيها اما حاكم ولاية البصرة فيعينه حاكم الولاياتين المتحدتين من بين ثلاثة أفراد ينتخبهم مجلس البصرة .

(١٦) وتؤسس الولاياتان نظاماً مشتركاً للطرق وللسكك الحديدية والبريد والبرق وطرق الملاحة الداخلية وتشارك الولاياتان بنفقات هذه المشروعات وعلى المجلس المشترك المذكور أنفاً ان يقرر ما يجب ان تتحمله كل من الولاياتين من النفقات وما يصيب كل منهما من الواردات .

(١٧) ويكون للولاياتين علم مشترك يرمز الى اتحادهما وتشارك الولاياتان فى تعيين نوابهما السياسيين فى الخارج ويعهد اليهم برعاية مصالح الولاياتين معا وتكون الطوابع والنقود والاوراق المالية والضمانات الاميرية الاخرى ووحدة المقاييس والموازين مشتركة بينهما ويقرر المجلس المشترك المذكور أنفاً قيمتها وعباراتها .

(١٨) ويكون للمجلس التشريعى السلطة المطلقة فى وضع الضرائب على المحاصيل والعقارات المحلية البحتة وايضا على السكان المقيمين بالولاية وتدفع الواردات المحصلة من هذه المصادر الى خزانة الولاية وتستعمل تلك الاموال حسبما يقرره المجلس التشريعى .

(١٩) وتوزع أموال الرسوم الجمركية المحصلة من ميناء البصرة على الولاياتين بالنسبة التى يقررها المجلس المشترك .

(٢٠) ويكون للبصرة قوة من رجال الشرطة وجيش خاصان بها ويشترك جيش البصرة مع جيش العراق فى دفع الغارات الخارجية عن أى قسم من أقسام الولاياتين المتحدتين وتدفع البصرة سنوياً مقدارا نسبياً محدوداً لاعالة جيش حكومة العراق ويكون هذا الجيش تحت أمره حاكم الولاياتين المتحدتين .

(٢١) وتدفع البصرة أعانة لائقة للقيام بنفقات ديوان حاكم الولاياتين المتحدتين .

(٢٢) وفى الحتام نرجو بكل خضوع ابداء رأينا بسرعة لزوم منح البصرة استقلالاً سياسياً على الفور ونحن نعلم ان الغرض من الوصاية هو اعداد أهالى العراق للحكم الذاتى التام وانه من الممكن ان يطلب أهالى العراق



المغفور له جلالة الملك فيصل الاول في اجتماع له بالشيخ خزعل خان . وقد ظهر الى اليمين
 ناجي السويدي والى اليسار احمد الصانع

انتهاء مدة هذه الوصاية في حين قد لا يعتبره أهل البصرة في أوامه
وقد يمكن ان لا يكون في ذلك الحين وفاق بين أهل البصرة خلافا لما هم
عليه الآن من الوفاق التام الامر الذي نذكره عن ثقة .

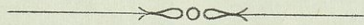
(٢٣) ونلتمس من فخامتكم ان تعربوا الى حكومة جلالة الملك عن طاعة أهل
البصرة وولائهم لها وان أملهم وطيد بتأسيس حكومة مناسبة لهم رعاية
لصالحهم وضمانا لتقدمهم .

لنا الشرف ان نكون

خدامكم المطيعين (

البصرة في ١٣ جون سنة ١٩٢١

رفعت هذه العريضة الى المندوب السامي في بغداد فلم يتخذ بشأنها أى
اجراء الا انها بقيت سلاحا بيده يشهرها في وجه جلالة الملك فيصل كلما
اختلفا في موضوع خطير . . .



وَقُلْ اَعْمَلُوا ...

مجلس المعارف الأعلى

تألف هذا المجلس لتقديم الاستشارات الى وزارة المعارف فى الامور الهامة . وألفت لجنة من اعضائه قوامها :- ساطع الحصرى ، مؤلف الكتاب ، ومعروف الرصافى ، لوضع نظامه . اختلفت اللجنة مع الوزارة فى تحديد سلطات هذا المجلس ، فأصرت الوزارة على ان تكون مهمته استشارية فقط ، وهى مخيرة فى الأخذ برأيه أو عدمه . وعرض الاختلاف على المجلس فأيد وجهة نظر اللجنة ، وقرر حل نفسه والاعتذار عن العمل .

جمعية اخوان الادب

اقامت حفلة أدبية فى قاعة سينما رويال ، فى ١١ تشرين ثانى ١٩٢١ ، كان الغرض منها تأسيس جمعية أدبية تنهض بالادب العصرى وبالصناعة الادبية فى هذه الديار . وقد ترأس الحفلة الشاعر الكبير جميل صدقى الزهاوى ، وجرى انتخاب لجنة لوضع نظام الجمعية المذكورة ، ففاز الذوات التالية اسماؤهم :- جميل صدقى الزهاوى ، ابراهيم حلمى العمر ، الدكتور أمين معلوف ، المؤلف ، ساطع الحصرى ، معروف الرصافى ، والشيخ مهدي البصير .

اما مصير اللجنة والجمعية فمؤسف حقا . ذلك ان الرصافى اغتاض لانه لم يحز من أصوات الناخبين الا عددا ضئيلا ، فانسحب من الجمعية ، أما بقية اعضاء اللجنة فقد تماهلوا فى حضور اجتماعاتها ، وحدث ان اجتمعنا مرتين فى دار الدكتور معلوف - الزهاوى ، وانا ، وصاحب الدار - ولم يحضر الا آخرون . وهكذا انحلت الجمعية من تلقاء نفسها .

المعهد العلمى

تأسس فى بغداد ناد يلهم شتات المفكرين والادباء والصحفيين . وقد ساهم فى تأسيس هذا النادى كل من :- ثابت عبدانور ، صادق جبه ، نورى فتاح ، حسن صائم النقيب ، حمدى الباجه جي ، محمد حسن كبة ، ابراهيم الواعظ ، علاء الدين النائب ، محمد باقر الحلى ، وفائق شاكر . وقد انتميت اليه بعد تأسيسه ، ثم انتخبت عضوا فى هيئة ادارته .

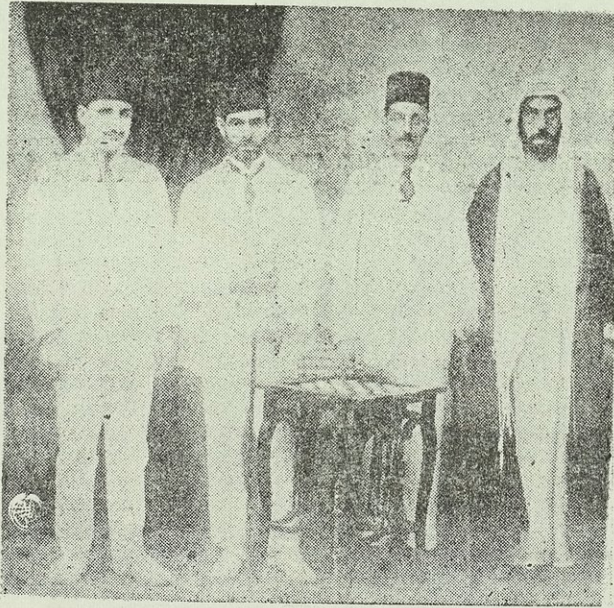
وواظبت على التردد عليه في اوقات فراغى ، حتى مغادرتى بغداد بعد استقالتى من الحاكمية •

أول مدرسة للاناث فى الكرخ

كان جانب الكرخ حتى ذلك الحين يفتقر الى مدرسة ابتدائية للاناث ، وكانت الطالبات من ذلك الجانب يعبرن الى الرصافة للدراسة فى مدارسها • فراجعت وزارة المعارف مطالبا بفتح المدرسة المذكورة ، فأشير عليّ بتقديم عريضة بهذا الشأن • نظمت العريضة وحصلت على توقيع يوسف السويدى عليها ، ثم أسلمتها بيد الشيخ كاظم الدجيلي ، فطاف على وجهاء الكرخ وأعيانه للتوقيع ، ثم أعادها اليّ بعد ذلك • فقدمتها الى وزارة المعارف ، ولم تمض أيام قليلة حتى فتحت المدرسة أبوابها واستقبلت طالباتها •

سوق عكاظ

أقامت الشبيبة العراقية فى بغداد مهرجانا أدبيا كبيرا أسمته « سوق



وفد الموصل فى سوق عكاظ وهم من اليمين : سعيد
الحاج ثابت • المؤلف • مولود مخلص • مصطفى العمري

عكاظ « تشبها بما كان يجري في زمن الجاهلية ، حيث يتطارع الشعراء بدائع القريض ، ويتبادل الخطباء درر البلاغة وآيات الفصاحة • وقد طلب القائمون بالمهرجان من الاولوية ارسال وفود عنها للاشتراك فيه ، فانتخب اهل الموصل وفدا مؤلفا من :- مولود مخلص ، ومصطفى العمرى ، ومؤلف الكتاب ، وسعيد ثابت •

وقد أصاب المهرجان نجاحا كبيرا ، وحضره جلالة الملك فيصل ، واشتركت فيه كل المدارس الحكومية والاهلية ، وقامت الآتسة صبيحة الشيخ احمد الداود بدور الخنساء ، فاعتلت ظهر الناقة وأدت دورها خير اداء •

وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ••

ان أول من فكر في تأسيس ملجأ في بغداد يأوى اليتام المعدمين هو عبدالحميد صالح بابان أحد موظفي الطابو في بغداد • وقد أفضى بفكرته هذه الى زمرة من أصدقائه ، فاستحسنوها وأبدوا استعدادهم لمؤازرته في اخراج المشروع الى حيز العمل • وانكبوا هو ، وعبدالله العبايجي ، وعبدالقادر التكرلى ، وتوفيق المختار ، على وضع النظام الاساسى لما أسموه « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، ثم تقدموا بطلب رسمى الى وزارة الداخلية لتأسيس الجمعية المذكورة ، مرفق بالنظام الاساسى • وكان ذلك في ٣١ آب ١٩٢١

وبعد ثلاثة اشهر من تقديم الطلب أجابت وزارة الداخلية بكتاب جاء فيه ان البلدية أخذت على عاتقها اسعاف الفقراء ، لذلك فالوزارة تنسب أن تكون اعمال هذه الجمعية مشتركة مع اعمال البلدية الخيرية وتحت اشرافها • فلما وصلهم هذا الكتاب أسقط في ايديهم • الا ان عبدالله العبايجي ، وهو من اصدقائى القدماء ، اقترح على زملائه ان يستعينوا بي لعلى أجد لهم مخرجا •

وفى ذات ليلة زارنى أربعتهم ، ورووا لى الحكاية ، وطلبوا معاضدتي لهم فى تحقيق هذا المشروع الجليل ، فليت طلبهم بكل سرور •

اتصلت بالحكام والمحامين ، واقنعتهم بالانتماء الى الجمعية وبالتبرع
لصندوقها براتب شهرى ضئيل ، فألفتهم معجيين بالفكرة ، ودفعوا ما قسم الله
عن طيب خاطر .

شجعتنى هذا النجاح على توسيع الحركة ، فنشرت بيانا فى الصحف
ومنشورا يدويا وزعت منه آلاف النسخ فى سائر أنحاء العراق . وما هى الا
ايام قلائل حتى انهارت عليّ التبرعات من كل حذب وصوب ، وجاء بريد الالوية
بمئات الرسائل يطلب أصحابها الانتماء الى الجمعية ، ويقدمون اشتراكاتهم الشهرية
الى صندوقها ، وعاضدت الصحف المحلية الجمعية بنشر بياناتها وقوائم التبرعات
لها ، وأخص بالذكر منها جريدة « لسان العرب » لصاحبها ابراهيم حلمي
العمر ، وجريدة « الاستقلال » لعبد الغفور البدرى ، وجريدة « العراق »
لصاحبها رزوق غنام ومحررها روفائيل بطى . وانبرت الطوائف غير المسلمة
لموازة الجمعية الخيرية الاسلامية ، فوجه المطران اثنا سوس جرجس دلال
رئيس أساقفة السريان فى بغداد ، وعزرا مناحيم دانيال ، والحاخام باشى فى
بغداد ، وسيادة المطران عمانوئيل الثانى ، وجهوا نداءات الى طوائفهم ومللهم
يحضونهم على المساهمة فى المشروع .

ودعانى جلالة الملك فيصل لمقابلته ، فاستفسر عن الجمعية وعن نظامها
وغايتها ومدى النجاح الذى اصابته ، ووجه اليّ اللوم لاغفالى اطلاق جلالته
على أمر الجمعية فى بداية تأسيسها ، وأبدى جلالته رغبته الأكيدة فى تبنيها ،
فأمر ناظر الخزينة بدفع ألف روبية آتيا ، وراتبا شهريا قدره أربعمائة روبية
تبرعا لصندوقها ، وأصدر جلالته أمره الى موظفى البلاط للمساهمة فيها ،
وأمر كذلك بالاياعاز الى جميع الوزراء ليحثوا موظفيهم على مساعدتها بنسب
معينة من رواتبهم ، تستوفى من امناء صناديق الوزارات مباشرة . فخرجت
من لدن جلالته شاكرا فضلا ، داعيا بدوام عزه .

زرت رئيس الوزراء ، وقدمت له نظام الجمعية الداخلى ، بعد ان أدخلت
عليه بعض التعديل ، فلقيت منه تشجيعا ، وصدر الاذن بتأسيس الجمعية رسميا ،
وبالموافقة على افتتاح الميتم الاسلامى .

كانت الجمعية فى ذلك الحين قد أصبحت من الشهرة بمكان ، وكانت الإيرادات الشهرية تأتىها بانتظام ، فتجمع لديها المال الكافى للمباشرة بالعمل . وكنا فى الحقيقة قد سبقنا صدور الاجازة الرسمية ، فاستأجرنا دارا واسعة فى جانب الكرخ قرب بيت النواب ، زدناها بالاسرة والفرش ورحلات الصفوف ، وغيرها من لوازم المدرسة وقسمها الداخلى . وأدخلنا فيها عددا من اليتامى ، فاكسيناهم وعيناه بهم . فلما حصلنا على الاجازة ضاق الميتم بطلابه . وفى ذلك الحين انضم الى الهيئة الادارية السابقة للجمعية السادة :- الحاج عبداللطيف المدلل ، الشيخ احمد الظاهر ، قاسم العلوى ، وعبدالرزاق منير .

كنت أزور الجمعية كل يوم واقضى فيها الساعات الطوال ، فقد كان المشروع بحد ذاته يحتاج الى جهود كبيرة . وكنا نحارب فى جبهتين : فى الاوساط الشعبية لجمع المال اللازم ، وفى الميتم للعناية بصحة الايتام وتدريبهم وتنشئتهم نشأة صالحة .

وفى ذات يوم زرت حجة الاسلام الامام الشيخ مهدي الخالصي مستصجبا عشرة من طلاب الميتم ، فسر لما رآه من نظافتهم ونظامهم وحسن أدبهم ، وشكرنى والجمعية على جهودنا ، ووعدنى بحث الناس على مساعدتنا ، ورحب بأن يصبح نجله الشيخ محمد الخالصي عضوا فى هيئة ادارة الجمعية .

عينت الجمعية يوم ٦ كانون الثانى ١٩٢٢ م موعدا لافتتاح الميتم .

افتتاح الميتم الاسلامى

غصت ساحة الدار وشرفاتها بالمدعوين ، يتقدمهم فهمى المدرس رئيس الديوان الملكى مندوبا عن جلالة الملك ، والسيد محمود النقيب بالنيابة عن والده رئيس الوزراء . وافتتحت الحفلة بتلاوة آى من الذكر الحكيم من قبل قاسم البزركان الطالب بمدرسة التفيض آنذاك . ثم تعاقب الخطباء والشعراء فى القاء خطبهم وانشاد قصائدهم وكانوا :- توفيق المختار ، الشيخ مهدي

البصير ، عبدالرحمن البناء ، ضياء يونس ، عطا أمين ، الرصافي ، ومؤلف الكتاب .

وبعد ذلك تقدمت ابنتى الصغيرة من منصة الخطابة فنزعت سوارين ذهبيين من يدها وقدمتهما الى أحد الحضور قائلة :- اعطوها للايتام . فافترح الحاضرون وضعهما بالمزايدة . وفتحت المزايدة بعشر ربيات ، واختتمت بمبلغ ٤٥٥٠ روبية . وقد اشترك فيها مندوب جلالة الملك ، فضم على السوارين بألف روبية نيابة عن جلالته . ورسى العطاء أخيرا على عباس أفندى المتعهد ، فتناولهما من يد المنادى وقدمهما ثانية الى ابنتى ، مما كان له أطيب الوقع فى نفوس الحاضرين .

وقبل انتهاء الحفلة جرت انتخابات الهيئة الادارية ، ففاز السادة :-
المؤلف ، الحاج جعفر ابو التمن ، الشيخ احمد الظاهر ، عبدالله العبايجى ، الحاج نجم المدرس ، عبدالرزاق منير ، الشيخ محمد الخالصى ، عبداللطيف المدلل ، الشيخ احمد الشيخ داود ، قاسم العلوى .

ثم جرى انتخاب الرئيس ففزت بأكثرية الاصوات .
وفى اثناء اشتغالى بالجمعية الخيرية رأيت من كرم الشعب العراقى امثلة رائعة ، ومن تهافت ابنائه على عمل الخير الشئ الكثير . ان ما يحتاج اليه العراقى هو ان تحضه على عمل الخير فتجده يدفع بسخاء منقطع النظير .

دخلت طفلة دون العاشرة الى مكتب الجمعية ، وقدمت روبية قائلة انها جمعتها من يومياتها وانها ستجهد فى تقديم روبية اخرى فى كل شهر . واستوقفنى ذات يوم رجل بملابس رثة ، وسألنى عما اذا كنت رئيس الجمعية الخيرية ، فلما أجبته بالايجاب أخرج من صرة ثلاث روبيات قدمها اليّ ، ورجاني ان أدون اسمه عندى كمشارك . فسألته عن مهنته ، فقال انه (قفهجى) . فقلت له : ان هذا كثير عليك وانت رجل فقير .

فأجاب باصرار : (آنى راس الشهر أجيبها عود جنابك لا تقبلها ٠٠٠)
فشكرته ودعوت له بالرزق والبركة .

وساهمت المرأة فى المشروع بأوفر نصيب ، فكانت الاشتراكات ترد من السيدات بانتظام ، وكن يرسلن الملابس والبطانيات وغير ذلك .

ولم يتوان الاطباء عن القيام بخدمة الجمعية ، فوردنى هذا الكتاب موقعا من قبل الدكتورة صائب شوكت ، فائق شاكر ، هاشم الوترى ، اسماعيل الصفار ، وسامى شوكت :-

(نبدى رغبتنا فى الانتساب الى جمعيتكم الجليلة الخيرية الاسلامية مع تقديم الراتب المقنن . ونرجو قبول تعهداتنا أيضا بمعالجة الايتام وكذا الفقراء والذهاب الى منازلهم من الذين بيدهم وثيقة من رئاسة الجمعية مجانا وبتوسطنا بادخالهم المستشفيات عند الايجاب) .

وقد هيات الجمعية صيدلية جمعت فيها الادوية اللازمة .

ونظرا للتوسعات التى طرأت على المؤسسة فقد انتقلت الى بناء كبير محاط بحديقة واسعة فى محلة الجعيفر ، وعينت السيد عبداللطيف العلوى مديرا للميتم ، وكان ذا دين ومروءة وخلق رضى ، فأحسن تربية طلابه وحنا عليهم حنو الأب الشفوق .

وبأمر من جلالة الملك عينت وزارة المعارف المعلمين اللازمين . كما ان ادارة الجمعية ، رغبة منها فى توجيه الايتام توجيهها صناعيا عمليا ، أدخلت درس التجارة فى مناهج المدرسة واستخدمت لهذا الغرض عددا من التجارين ، وكانت مصنوعات الجمعية تباع بأسعار طيبة .

ولما كان الكثير من طلاب المعهد غير محتونين ، فقد تبرع اطباء الجمعية بختانهم مجانا . وفى ليلة الحتان حضرت جماهير غفيرة من أهل الكرخ تتقدمهم الاعلام وفرقة الموسيقى والطبول ، وطفافوا بهم فى الشوارع وهم ينشدون الاهازيج والهوسات ، مما أدخل السرور الى قلوب اليتامى .

زار الجمعية المحسن المعروف مناحيم صالح دانيال ، وطفاف فى أرجائها ، فسر لما رآه ، وتبرع لها بمقدار كبير من الرز والدقيق .

وقد ابدى رغبته في ان تحضى الجمعية ببناء تستملكه ، اذ انها لا تستطيع الصمود طويلا ان هى استمرت فى دفع بدلات الايجار الباهضة • واقترح علي ان اسعى للحصول على ارض من وزارة الاوقاف ؛ وقطع على نفسه عهدا ، ان انا حصلت على الارض ، ان تبرع بألف ليرة ذهبية لانشاء مبنى للميتم عليها • فشكرته على شعوره الفياض ، ووعدته بالسعى •

ذهبت كل محاولاتي للحصول على أرض موقوفة عبثا ، بالنظر الى معارضة المستر كوك - مستشار وزارة الاوقاف - وتعبته • الا انه بعد استقالتى من رئاسة الجمعية وسفرى الى البصرة ، كما سيأتى ذكره ، انتخبت الجمعية صبيح نشأت - أمين العاصمة فى ذلك الحين - رئيسا لها ، فجدد المساعى لاستملاك الارض ، وواتته الظروف بسفر المستشار الانجليزى ووجود عبداللطيف المنديل فى منصب وزارة الاوقاف ، فتمكن من الحصول على بستان فى العواضية أنشئ عليه الميتم القائم حتى اليوم •

وحالما سمع مناحيم دانيال باستملاك الارض سارع الى الوفاء بتعهدده ، فأرسل الي صكا بمبلغ الف ليرة ذهبية لامر الجمعية • وكلما رجاء هو ان يكتب اسمه على حجر يوضع فى مدخل المبنى • فأجبتة شاكرافضلته ووعدته بتفيذ رغبته ، كما انى حولت المبلغ الى الجمعية للتصرف به •

قدمت استقالتى الى الجمعية لاعتزامى السفر الى البصرة ، بعد ان قبلت استقالتى من الحاكمية • وقد انتخب من بعدى صبيح نشأت رئيسا ، فوجه الي كتاب شكر بتاريخ ١ تشرين الاول سنة ١٩٢٣ لا زلت احتفظ به ، وفيه يعرض علي قبول العضوية الدائمة فى الجمعية • وكان دأبا على مراسلتى ، يحيطنى بكل ما يجد من أمورها •

لم آل جهدا ، حتى بعد عودتى الى البصرة ، فى مساعدة الجمعية ؛ فكنت أجمع لها التمور والاشترابات من البصرة والكويت والالوية الجنوبية ، واستطعت مرة الحصول على تبرع من الشيخ خزعل بمبلغ الف روبية •

ثم أصبح ناجي السويدي رئيسا لها من بعد صبيح نشأت ، فلم يكف عن الكتابة الي بين الفنية والاخرى • وقد وصلني منه بتاريخ ٨ ميس ١٩٢٥ هذا الكتاب :

« بعد عرض التحية والتكريم •

بناء على ما لكم من الايادي البيضاء والمساعدى المشكورة المشحونة بالرافة والحنان تجاه الايتام منذ احداث هذه المؤسسة ، وبذل قصارى جهدكم نحو اعلاء شأنها بالمعونة المالية والبدنية ، فقد قررت هيئة الديوان العام للجمعية باتفاق الآراء على ان نعرض على سيادتكم عضوية الشرف الدائمة فى الجمعية المذكورة • فالرجاء ان تفضلوا بقبولها وان تلاحظوا ايتام الجمعية بعين عنايتكم ونسأله تعالى ان يوفقكم الى مساعدة كل مشروع خيرى وان يجعلكم قدوة حسنة لامثالكم من المحسنين المخلصين • مع قبول فائق الاحترام »

ابعاد بعض الوطنيين

بعد استقالة وزارة النقيب أصدر الحزب الوطنى وحزب النهضة بياناً مشتركاً فى جريدتى (المفيد) و (الرافدين) اعتبرته الحكومة الانجليزية معادياً لها ، فاتخذت اجراءات سريعة بالقاء القبض على كل من جعفر ابى الثمن ، وحمدي الباجه جي ، والشيخ مهدي البصير ، وسامى خوندتة صاحب جريدة الرافدين ، والحاج أمين الجرجفجى ، وعبدالرسول كبة ، والشيخ حبيب الخيزران رئيس قبيلة العزة ، وابعادهم الى هنجام • وقد أصدر المندوب السامى هذا البيان بتاريخ ٢٦ آب ١٩٢٢ :-

(انه حتى والى أن تعقد المعاهدة فان حكومة العراق والمندوب السامى البريطانى مشتركان فى المسؤولية معا أمام حكومة بريطانيا فيما يتعلق بالامن والهدوء فى البلاد • وانه فى الوقت الحاضر بالنسبة لاستقالة وزارة النقيب قد أصبحت وظائف مجلس الوزراء فى حالة التعطيل بينما فى ذات الوقت قد اعترى صاحب الجلالة الملك فيصل فجأة مرض الزائدة الدودية وأخطر لاجراء عملية جراحية عملت أمس وحسب المفهوم انها نجحت • فقد نشأت فى بغداد روح الفتنة بسبب منشورات فئة من أرباب السياسة ، فاقضى اتخاذ اجراءات سريعة للمحافظة على السكينة • ولما كان قد صدر

قرار من اللجنة المشتركة من هيئة الحزب الوطني وحزب النهضة ونشر في جريدتي المفيد والرافدان المتضمن العداء للحكومة والدعوة للفتنة . فاضطرت أنا المندوب السامي للقيام بواجبات مسئوليتي أمام حكومة بريطانيا لاتخاذ التدابير الآتية : القاء القبض على جعفر أبو التمن وحمدي الباجه جي والشيخ مهدي البصير وابعادهم من بغداد وعلى أربعة آخرين واقفال الحزبين الوطني والنهضة مؤقتا وتعطيل جريدتي المفيد والرافدان وابعاد مديريهما . (الخ) .

ابن عبدك

ابن عبدك تآثر شعبي من عامة الاكراد ، اشتهر بالشجاعة والاقدام ، وكان له في اثناء الثورة العراقية مواقف مشرفة ضد الانجليز في لواء ديالى . وانك لتجد في كل ثورة شعبية أقرانا لابن عبدك رجال يأتون من الاعمال ما يجعلهم في طليعة الثوار ، دون ان يكون لهم ادنى اتصال بقيادة الثورة ، أو علم بخططها وأهدافها . فتراهم يبدأون جهادهم ويختمونه بالشكل الذي يختارونه ، وفي الوقت الذي تحدده لهم الظروف والمناسبات ، دون ان يحرصوا على ربط هذا الجهاد من حيث الزمان والمكان والاسلوب بالحركات الواسعة التي تجري في سائر انحاء البلاد .

ابن عبدك متمرّد ، يرأس عصاة متمرّدة ، ارتكب من جرائم القتل العدد العديد ، ويقول الناس انه لم يقتل ضعيفا ولا رجلا صالحا . فلما نشبت الثورة العراقية وأخلى الانجليز بعقوبة دخلها ابن عبدك ، ونصب نفسه مديرا للامن فيها ، وبطش بالجواسيس ، فقتل بعضهم وأحرق دورهم ، مما أثار حقد الانجليز ونقمتهم عليه .

وفي عهد الحكومة الوطنية أُلقي القبض على ابن عبدك ، وسيق الى المحكمة الكبرى في بغداد بتهمة قتل موظف رسمي اثناء تأدية واجبه . فحكم عليه بالاعدام شنقا . ميّز ابن عبدك الحكم لدى محكمة التمييز ، فبين لنا ان القتل لم يكن موظفا رسميا ، وانما هو أحد الاهلين المأجورين كان الانجليز قد عهدوا اليه بالتجسس على الناس لحساب دائرة الاستخبارات ، وان القانون لا يعاقب على مثل هذه الجريمة بأكثر من الحبس خمسة عشر عاما .

اختلف حكام التمييز في اصدار القرار على هذه الجريمة ، فاتفق الرئيس

وعضوان على تصديق حكم الاعداء ، وعارضته أنا ورشيد على . أجلت الجلسة عدة مرات ، وكانت تأتينا التوصيات المتكررة من المندوب السامى بتصديق الحكم ، فلم نأبه لها . وقد شغلت هذه المحاكمة رأى العام ، فكنت ترى قاعة المحاكم وفسحتها مكتظة بالآلاف الناس ، وكانوا كلما خرجت أو خرج رشيد على هتفوا لنا وأكبروا موقفنا لانقاذ ابن عبدك من المشقة .

صدر الحكم بتصدير قرار الشنق بأكثرية الاصوات ، ودونت معارضتنا الشديدة انا ورشيد فى نص القرار . فلما اطلع جلالة الملك فيصل عليها امتنع عن تصديقه ، وأمر بتخفيف العقوبة الى الحبس لمدة خمس عشرة سنة . وقد علمت بعد ذلك ان ابن عبدك قضى مدة الحبس ثم اطلق سراحه .

خلاف يؤدى الى الاستقالة

عزمت الحكومة على تشكيل الجيش الوطنى ، وعلى التوسع فى ملاكات الدوائر ، مما حمل الميزانية عبئا ثقيلا ؛ لذلك ارتأت - تخفيفا لهذا العبء - تخفيض رواتب الموظفين . علمت ان راتبى ورواتب زملائى حكام التمييز سوف يخفض الى ثمانمائة روبية ، وهو مبلغ لم يكن يكفى لسد نفقاتى الكثيرة ، فقدمت بالاشتراك مع الزملاء اخطارا الى وزارة العدلية باستقالتنا بعد شهر واحد ان هى أصرت على اجراء التخفيض الآنف الذكر . انقضى الشهر دون ان تستجيب الوزارة لطلبنا . فعزمت على تقديم استقالتي ، بينما فضل زملائى البقاء فى مناصبهم والانصياع للامر الواقع .

أصبت فى ذلك الحين بصداع مستمر ، فنصح لي الاطباء بالخلود الى الراحة ، لذا طلبت اجازة لمدة شهرين . وعلم عبدالمحسن السعدون - رئيس الوزراء آنذاك - بعزمى على الاستقالة فدعانى اليه ورجا منى التريث حتى يجد مخرجا للامر ، وعرض عليّ ، كسوية مؤقتة ، قبول منصب متصرفية المنتفك بالراتب الذى أنسبه لنفسى . فشكرته واعتذرت قائلا له بصراحة بأننى لا استطيع ارضاء الاهلين ، والحكومة ، والمفتش الادارى الانجليزى ، فى آن واحد ، اذ لا مندوحة من الاصطدام باحدى تلك الجهات الثلاثة ، وهذا مالا يسرنى كما انه لا يسره هو أيضا .

وهكذا غادرت بغداد مع عائلتي ، وحضر لتوديعي الى الباخرة جمع من
 الاصدقاء بينهم عبدالمحسن السعدون وناجي السويدي وغيرهم .
 وفي ١٤ تشرين ثاني سنة ١٩٢٢ رفعت استقالتى الى وزير العدلية ،
 وكتبت فى الوقت نفسه الى المستر دراور مستشار العدلية ، والى رئيس محكمة
 الاستئناف أعرض لهما اسباب الاستقالة ، وأرجوهما ان يتوسطا لدى الوزير
 لقبولها . كذلك قدمت استقالتى من التدريس فى مدرسة الحقوق للاسباب
 ذاتها . وفى ٢٢ منه وردت اليّ البرقية التالية :

« سليمان فيضى . بصرة

يخزنى ان اراكم صمتم على الاستقالة وأرجو نظرا للاحوال الحاضرة
 ان تفكروا فى المسألة مليا وتسحبوا استقالتكم .
 محسن رئيس الوزراء »

فأجبتة فى ٢٦ منه ببرقية هذا نصها :

« فيخامة رئيس الوزراء الأفخم

اعرض ان لسانى عاجز عن اداء الشكر لفخامتكم على اللطف الذى
 تفضلتم به فى برقيتكم . وأكد لفخامتكم باننى اعتبر نفسى سعيدا اذا خدمت
 الحكومة التى يرأسها دولتكم ولكن بعض الاسباب الخاصة والصحية تضطرنى
 الى ترك الوظيفة والاشتغال بالمحاماة تخلصا من الاشغال الكثيرة التى انهكت
 قواى وأثرت فى صحتى كما تبين بنتيجة الفحوص الطبية هذا واننى فى كل
 الاحوال رهن اشارتكم فأكرر رجائى بقبول عذرى واعفائى من الوظيفة
 والامر لفخامتكم دام عزكم .

سليمان فيضى »

وهكذا قبلت استقالتى . وارسل اليّ المستر دراور رسالة رقيقة يعرب
 فيها عن أسفه البالغ وقد جا فيها :-
 (اني واثق بأنكم سوف تجنبون أرباحا طائلة من المحاماة ، ولكن ربحكم
 الشخصى سيكون فى الوقت نفسه خسارة لا تعوض للقضاء وللحكومة)

ثم جاءتني رسالة من رئيس الاستئناف مرفقة باجازة المحاماة • وعلى أثر ذلك عين عارف السويدي حاكم صلح بغداد في محلي الشاغر •

صدقت نبوءة دراور ، فقد أصبت في مهنة المحاماة نجاحا منقطع النظير ، وجنيت منها ارباحا تكاد الرواتب الحكومية لا تكون الى جانبها شيئا يذكر •

مشكلة الموصل

برزت في تلك الآونة مشكلة خطيرة أفلقت بال العراقيين ، تلك هي مطالبة الاتراك بالموصل • وكان الاتراك يستندون في دعواهم على ان جيوش الحلفاء لم تكن قد احتلت الموصل عند وقوع الهدنة ، بل دخلتها بعد الهدنة • ويقول الانجليز من جانب آخر ان الموصل جزء لا يتجزأ من العراق من جميع النواحي ، سواء كانت جغرافية أو عنصرية أو قومية • فلما استعصى على الطرفين المتنازعين حل الخلاف رفعاه الى مؤتمر لوزان •

الترم اهل الموصل السكوت في هذا الخلاف ، فلم يرتفع صوت واحد للتعبير عن أمانيتهم ورغباتهم ، كأن الامر لا يعينهم ، وكأن بلادهم سلعة تباع وتشترى • كانت حالهم اشبه بالعييد في سوق النخاسين ••••• يرقبون المزايدة باستسلام وانقياد ، حتى اذا ما أوما اليهم سيدهم الجديد تبعوه الى حيث يريد • عزّ على بعض أبناء الموصل المقيمين في بغداد هذا السكوت ، فصمموا على العمل • وكنت قد جئت الى بغداد للمرافعة أمام محكمة الاستئناف في احدى الدعاوى ، فدعاني ثابت عبدالنور الى اجتماع يعقد في داره • ذهبت فوجدت هناك أكثر الموصليين البارزين في بغداد ، والقي موضوع الموصل على بساط البحث ، فقرر الحاضرون تحرير التعهد التالي والتوقيع عليه :-

(قد اتفقت آراؤنا نحن اصحاب التواقيع بالنظر الى المرحلة الخطيرة التي وصلت اليها قضية الموصل على ان يحرر كل منا الى اصدقائه واقربائه بصورة شخصية ومنفردة ، وان يكتب حضرة الاستاذ الفاضل الحاج سليمان فيضي باسم جميع الموصليين القاطنين في بغداد الى الذوات البارزين في الموصل ، رسائل تحثهم على انتخاب ممثلين عنهم ليدافعوا عن مصالحهم وليعبروا عن أمانيتهم في

في الاوساط الوطنية والاجنبية ولحضور المؤتمرات الدولية اذا اقتضى الامر .
حرر في ١٥ كانون ثانى ١٩٢٣ .

التواقيع

مولود مخلص ، ثابت عبدالنور ، عبدالآله حافظ ، شاكر سليم ، توفيق
النائب ، محمد سليم الجراح ، محمد علي مصطفى ، محيى الدين ابو الخطاب ،
وتواقيع اخرى لم استطع معرفة اصحابها)

ثم وافق الحاضرون على صورة الكتاب الذى كلفت بتوجيهه الى اهل
الموصل نيابة عن المجتمعين وهذا نصه :-

« سيدى

بعد التحية والتبجيل . نظرا الى حراجه موقف الموصل فى هذه الآونة
كلفى فريق من الموصليين المقيمين فى بغداد بأن أوجه اليكم هذا النداء
لتذكيركم بواجبكم تجاه مدينتكم والدفاع عن مصالح ابنائها والمحافظة على
حقوق أهلها . لذا فانى اقترح عليكم ان تسارعوا الى انتخاب وفد يتراوح عدد
اعضائه بين الثلاثة والخمسة ممن تتقون بقدرتهم ونواياهم وذلك ليكونوا فى
العاصمة على اتصال دائم بالحكومة الوطنية وليعبروا عن آمانيكم ورغباتكم
وليقيموا بتشكيلكم فى المؤتمرات الدولية اذا اقتضى الامر . ونفضلوا بقبول
مزيد الاحترام »

أخذ ثابت عبدالنور النداء ، فطبع منه مئات النسخ ، بينما استغل
ابو الخطاب فى اعداد الغلافات وكتابة العناوين عليها . فلما وقعتها ختمها
وأخذها بنفسه الى الموصل ، حيث وزعها على أصحابها .

أثارت هذه الرسائل اهتمام الموصليين ، ففقدوا اجتماعات عديدة لانتخاب
ممثلهم ، ولست أدري لماذا أحاطوا اجتماعاتهم بالتمكيم ، مما أثار شكوك
الحكومة حولها ، فأصدرت أمرا بمنعها . وحاول المتصرف رشيد الحوجة
الحصول على نسخة واحدة من النداء فلم يفلح . . . فذهبت الظنون بالمسؤولين

مذهبا بعيدا عن الواقع ، واعتقدوا ان فى الامر سرا . ولعب الحظ دوره فى المسألة ، فاكشفت الحكومة فى تلك الآونة أمر البرقية التى أرسلها فريق من الموصلين المتألمين من الانجليز الى مؤتمر لوزان ، يطلبون فيها انضمام الموصل الى تركيا ؟ فتولد لدى الحكومة اعتقاد راسخ بأننى كنت المحرض على ارسالها . ويشهد الله ان احدا من الذين ارسلوا تلك البرقية لم يكن ممن وجهت اليهم ندائى الوطنى ، وان الاستياء الذى اتنابنى من أمر تلك البرقية كان شديدا جدا الى درجة لا يمكن وصفها ولكن تجرى الرياح بمالا تشتهي السفن . . .

دعائى عبدالمحسن السعدون الى مكتبه ، فلما حضرت بدأ يعاتبنى أشد العتاب كقوله : نحن اصدقاء ، وكنا دائما كذلك ، فما الذى جرى بينى وبينك حتى ناصبتنى العدااء على حين غرة ؟

فاستغربت من قوله هذا ، وسألته أن يفصح ، فقال :-

أنا أعلم أنك غاضب منى ، لأننى لم ادخلك فى وزارتى ، وأنت لم تقدم استقالتك من الحاكمية الا لهذا السبب ثم لما رجوت منك سحب الاستقالة أصررت عليها . وأخيرا كتبت الى الموصلين تحرضهم على الالتحاق بالترك . ولكن ثقب بأننى كنت قد ادخلت اسمك فى الوزارة غير ان المندوب السامى حين عرضت عليه الاسماء كتب حذاء اسمك « غير مرغوب فيه » . ومن هذا ترى انه لم يكن بيدى فى الامر حيلة .

فأجبت بأنه لو لاحظ تاريخ كتاب استقالتى لوجده يسبق تشكيل الوزارة بثلاثة ايام . أما بشأن قضية الموصل ، فقد رويت له قصتها من البداية : الاجتماع ، والرسائل ، والنداء ، والمطبعة . . . ثم ابرزت له نسخة من النداء ، الا اننى امتنعت عن ذكر اسماء المجتمعين فى دار ثابت عبدالنور والذين وقعوا على التعهد ، خشية ان يصيبهم أذى ، ورضيت بأن أتحمّل المسؤولية كلها وحدى .

كان عبدالمحسن يعرف جيدا مقدار تمسكى بالصدق والصراحة ، فاطمأن بعض الشيء الى أقوالى . ورجا منى أن أكتب الى الموصلين ثانية أناشدهم اعلان

رأيهم في الانضمام الى العراق بصراحة تامة ، وتوجيه عرائض الى مؤتمر
لوزان للافصاح عن تلك الرغبة ، فوعده بتلبية طلبه عن طيب خاطر .

أثبتت الحوادث التي جرت بعد هذه الحادثة ان عبدالمحسن السعدون لم يعد
ذلك الصديق المحب ، وان حقه عليّ - نتيجة اعتقاده بعدائي له - بقي مناصلاً
في نفسه . أما أنا فكنت ولا أزال أعتقد - بالرغم من حقه عليّ في سنيه
الاخيرة - بأنه كان رجلاً طيباً ووزيراً صادقاً ، وان حبه لبلاده
واخلاصه لقومه أمر محقق . ويكفي انه صرح في وصيته الخالدة بقوله :
« الأمة تطلب الخدمة والانجليز لا يوافقون » طيب الله ثراه ، وغفر له ، ورحمه
برحمته الواسعة .



امارة عربستان

اتق شر من أحسنت اليه

بينما كنت أزاول المحاماة في البصرة إذ حدث خلاف بيني وبين حاكم كنت قد سعت الى تعيينه في منصبه ، وتقدم الحاكم المذكور بالشكوى عليّ ، فصدر الحكم في مايس ١٩٢٣ بمنعني من مزاوله المهنة مدة شهرين ونصف • فعولت على العودة الى المتاجرة •

وفي هذه الآونة اتصل بي عبداللطيف باشا المنديل ، وبلغني رغبة جلالة الملك ابن السعود في التحاقني بمعيته في منصب اداري كبير • وفي الوقت نفسه أرسل الشيخ خزعل أمير عربستان وكيله العام ميرزا محمد خان بهادر يعرض عليّ قبول منصب معتمد الامارة ، وهو منصب أحدثه الشيخ ليكون صلة الوصل بينه وبين جلالة ملك العراق وابن السعود وأمراء العرب الآخرين • ونظرا لقرب عربستان من البصرة ، وتيسر تعليم اولادى فيها ، فضلت التوظف لدى أمير المحمرة على الذهاب الى نجد •

ركبت مع الميرزا محمد الى الاهواز ، وفي طريقنا مررنا بالمحمرة ، فرغب رفيقى في زيارة السر ويلسن مدير شركة النفط العام والحاكم الملكى العام في العراق سابقا • فاعتذرت عن مرافقته في هذه الزيارة ، لعلمى بان الرجل يحقد عليّ منذ القيت خطابى العنيف ضده في لجنة الانتخابات ، ولمعارضتى العلنية لسياسته في العراق طيلة حكمه فيه • ولكن رفيقى ألح ، فدخلنا لزيارته ، وكان استقباله لنا حافلا ، ولما علم بتوظفى عند الشيخ استبشر وقال : تأكد لو ان الشيخ خزعل استشارنى في انتخاب معتمد له لما أشرت عليه الا بانتخاب سليمان فيضى ، نظرا لما أعهده فيه من المقدرة والاخلاص في العمل • وفي هذا القول ما يدل على ان الانجليز يكنون في أعماق نفوسهم الاحترام للوطنيين المخلصين حتى ولو كانوا خصوما •

الامارة العربية

تمتد اماره الشيخ خزعل في الضفة الشرقية من شط العرب • ويحدها جنوبا خليج فارس ، وشمالا لواء البصرة والعمارة ومقاطعة شستر ، وشرقا

مقاطعة دزفول • أهم حواضرها المحمرة ، عبادان ، وناصرية الاهواز • جل سكانها من العرب ، خلا عدد قليل من العجم بين تاجر وصانع • ويتنسب هؤلاء العرب الخالص الى القبائل العربية التالية :- بنى كعب ، بنى تميم ، الخنافرة ، الشريقات ، بنى سالة ، بنى طرف ، الحياذر ، الحميد ، الباوتية ، ابو بعيش ، خزرج ، كنانة ، وغيرها ••

تقع هذه الامارة ضمن الدولة الايرانية • وكان أمرها قد اوكل منذ قديم الزمان الى اجداد الشيخ خزعل بنظام المقاطعة ، كما كانت الحال فى المقاطعات الايرانية الاخرى كامارة الاختيارية • ويقضى نظام المقاطعة فى ذلك الحين على ان يدفع الامير الى الحكومة المركزية فى طهران اتاوة سنوية معينة ، وان تعود ضرائب الكمرك الى الدولة أيضا ، وما عدا ذلك فان الامير هو الحاكم المطلق فى امارته ، يفرض من الضرائب ما يشاء ، وله جميع واردات الامارة ، وعليه جميع مصروفاتها ، وهو المسؤول عن أمنها وادارة شؤونها الداخلية ، وله الحق فى ان يعين من قبله حكاما على المناطق والمدن التى تقع ضمن امارته •

قابلت الشيخ خزعل فوجده طيبا ، كريما ، ميالا الى المرح والمزاح ، ينظر الى الحياة نظرة متفائل • وكان يعيش فى قصره الفخم محاطا بكل مظاهر العز والسلطان ، غارقا فى جو من الترف والبذخ •

بين يدي جلالة الملك فيصل

أصدرت الحكومة العراقية فى ذلك الحين أمرا بابعاد حجة الاسلام الشيخ مهدي الخالصى ، فرغب الشيخ خزعل فى ان ينزله بضيافته ، نظرا للمكانة الرفيعة التى يتمتع بها ، وتأمينا لراحته فى شيخوخته • فحرر كتابين الى جلالة الملك فيصل ، يستأذنه فى الكتاب الاول باستضافة الحجة عنده ، ويرجو من جلالته فى الثانى الموافقة على اشتغالى فى امارته • وكلفنى بحمل الرسالتين بنفسى الى جلالة الملك •

توجهت الى بغداد ، وتشرفت بمقابلة جلالة الملك ، وقدمت اليه الكتابين ، فأبدي جلالته الموافقة على تعيينى ، ثم أظهر أسفه الشديد على عدم امكانه تلبية

دعوة الشيخ لحجة الاسلام ، لأنه كان قد غادر بومبي متوجها الى جدة التي اعتبرت منفى له . وأمر جلالته بتحرير كتابين الى الشيخ بتاريخ ٨ تموز سنة ١٩٢٣ ، أحدهما يتضمن الاعتذار كما ذكر ، وثانيهما بالموافقة على تعييني ، ثم وقع الكتابين وسلمهما اليّ .

وقبل ان اغادر ذكر لي جلالته ان بعض عشائر البصرة التابعة الى الشيخ خزل كانت قد امتنعت عن الاشتراك في انتخاب الملك ، وأبدى جلالته رغبته في ان احث هذه العشائر على المساهمة في الانتخابات المقبلة للمجلس التأسيسي ، فوعده ببدل جهدي لتنفيذ رغبته السامية .

وحين عدت الى الاهواز أبلغت سمو الشيخ تحيات جلالة الملك ومودته ، وقدمت اليه الكتابين ، وأخبرته برغبة جلالة الملك في اشتراك كافة عشائر البصرة التابعة للشيخ بالانتخابات . فأرسل الشيخ رسله الى العشائر المذكورة يحثها على الاشتراك في الانتخابات وعدم مخالفة أوامر حكومة العراق . قضيت في معية الشيخ خزل أياما طيبة ، وكان للراحة التي أصبتها هناك أثر كبير في تحسين صحتي ، بعد الاجهاد الذهني والبدني الذي انتابني في السنوات الاخيرة .

وكان الشيخ يبلغ في اكرامى وتأمين راحتي . فاصطحبني في سفرته الى سوس للاصطياف ، ونزلنا بالقلعة الكبيرة التي أنشأها الفرنسيون لاقامة البعثات الاثرية ولحفظ الآثار المستخرجة من الحفريات في تلك المنطقة ، بينما نصب رؤساء العشائر خيامهم حول القلعة في السهل الاخضر الجميل . وفي اثناء اقامتنا هناك قدم السيد قطب الدين ، نقيب أشراف دزفول ، ودعا سمو الشيخ لزيارته . فذهبنا الى تلك المدينة الجميلة ، وأقمنا في قصر النقيب المشيد على سفح الجبل . وبعد ان قضينا هناك سبعة أيام عدنا الى قلعة سوس لقضاء بقية أيام الصيف فيها ، ومن ثم قفلنا راجعين الى ناصرية الاهواز .

التباس

قصد الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وأحد أعوانه مدينة الأهواز ، للحصول على هبة من الشيخ خزل لترميم المسجد الأقصى . وشاءت الصدفة .

ان أكون متغيباً عن المدينة لقضاء ايام العيد في البصرة • فلما سأل المفتي عني قيل له اني متغيب ، وكان يحمل رسالة اليّ من البلاط الملكي لتسهيل مهمته لدى الشيخ • فاضطر اذ ذاك ان يطلب مقابلة الشيخ نفسه ، وساق الحظ له موظفاً في القصر أدمن على تناول الافيون ، فسأل المفتي عن هويته ، فأبرز له بطاقته ، وقرأها الموظف ، ثم دسها في جيبه كأنه استوعب اسم صاحبها ••• ثم ذهب الى الشيخ ، واخبره بأن رجلين ملتجئين ، يتزيميان بالعمامة والجبّة قد حلا ضيفين في القصر ، وان أحدهما يدّعي انه مغني فلسطين ••• فضحك الشيخ وقال :

- بلغ هذا المغني اننا تركنا سماع المطربات والغانيات منذ زمن بعيد •• فليس بنا حاجة اليوم الى غناء المعممين والملتجئين •• ادفع لهما ألف روبية واعتذر عن المقابلة •

عاد الحشاش الى المفتي ، وقدم المبلغ ، وبلغه اعتذار الشيخ عن مقابلتهما • فاستشاط المفتي غيضا وألقى الدراهم على الارض قائلاً : ما جئنا مسمولين • وحمل هو ورفيقه أمتعهما وغادرا القصر مسرعين •

التقيت بالمفتي في البصرة ، بعد عودته من الاهواز ، فأخبرني بالحكاية وهو منزعج غاضب ، وسلمني الكتاب الذي أرسله اليّ رستم حيدر رئيس الديوان الملكي وبداخله كتاب من جلالة الملك فيصل الى الشيخ خزعل راجيا منه ان يحظى الوفد بمعونته وعطفه • فطمنته الى ان الشيخ لو علم باسمه وعرف مكانته لاحفل بمقدمه ولا أكرمه • وأكدت له ان في الامر التباس ، وانه لا يعدو ان يكون سوء فهم •

فلما عدت الى الاهواز ، قدمت رسالة جلالة الملك الى الشيخ ، وأبدت استغرابي من تلك المقابلة • فتألم الشيخ حين علم بحقيقة الامر وقال :

- هل تصدق اني اقابل هذا الرجل المحترم بالاستخفاف المشين لو كنت عالما بحقيقته ؟ •• لعن الله الحشيش ••

وتدارك الشيخ الأمر ، فأعطاني تسعة آلاف روبية لارسالها الى المفتي ، وكلفني بكتابة رسالة اعتذار اليه عن لسانى ، وكتابا وديا عن لسانه الى جلالة الملك ، وكتاب توصية الى الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت ليقوم بدوره بمساعدة المفتي واكرامه .

رضا بهلوى والشيخ خزعل

بعد ان تقلد رضا شاه بهلوى منصب وزارة الدفاع فى ايران فكر فى فى الغاء الامارات الاقطاعية فى البلاد . وقبل ان يقدم على تحقيق هذه الفكرة ، قام برحلة فى المقاطعات الجنوبية ، تصحبه هيئة اركان حرب الجيش الايرانى وعدد من الضباط والجنود . فلما قارب ركب حدود اماره عربستان ، أوفد رسولا الى الشيخ خزعل يرجو منه ارسال أحد انجاله ليكون بمعيته عند دخول الامارة . فأجابه الشيخ الى طلبه ، واختار ابنه عبدالكريم لمرافقة الوزير .

دخل رضا بهلوى الامارة دخول الملوك العظام . واقام له الايرانيون الاحتفالات والمهرجانات فى كل مكان . حتى ان الجالية الايرانية فى البصرة اشتركت فى استقباله فجاء افرادها على بواخر خاصة الى المحمرة لهذا الغرض . وطاف فى المدن والقرى فأقام فى الاهواز يومين ، ثم توجه الى المحمرة وكان الشيخ فى استقباله هناك ، فأنزله فى قصر الفيلية . وكان فى حله وترحاله يحاط باكرام الشيخ وتودده ، وبحراسة شديدة من قبل رجاله للمحافظة على حياته .

ولما اعتلى رضا بهلوى عرش ايران ، أرسل جنوده الى سائر أنحاء الامارة بحجة المحافظة على حدود المملكة . فلم يبد الشيخ معارضة ، لا سيما وان الانجليز راحوا يؤكدون له ضمان سلامته وسلامة امارته ، وينصحون له بعدم ابداء أية مقاومة . ثم أرسل الشاه موظفين مالىين لجباية الرسوم والضرائب والواردات ، فلم يحرك الشيخ ساكنا . واخيرا أرسل حكاما عسكريين تولوا ادارة المدن باعتبارها محتلة احتلالا عسكريا مؤقتا لاغراض

وطنية • جرت كل هذه التدخلات ورسائل الشاء لم تنقطع عن الشيخ يؤكد له فيها اعتزازه بصداقته ، وحرصه على سلامته ، وحفظه لمقامه ومنصبه •

بعد ان تقلصت سلطة الشيخ لبث مقيما في قصوره بالفيلية ، لا يتركها الا نادرا للذهاب الى البصرة ، حيث يمتلك قصورا وأملاكا كثيرة • وبينما كان في احدى زياراته للبصرة ، اذ قدم عليه الحاج محمد علي رئيس التجار ، أقرب المقربين اليه ، ودعاه لحضور سهرة في يخت خاص أمام قصور الفيلية • فتردد الشيخ في قبول الدعوة ، وأشار عليه بعض أصدقائه برفضها ، اذ كانوا قد أوجسوا خيفة من أمرها • ورأى البعض الآخر عدم وجود مبرر لهذه المخاوف ما دام الحاج رئيس هو الداعي •

وأخيرا قبل الشيخ الدعوة ، فتوجه هو وبعض أصحابه الى اليخت • وما هي الا ساعة حتى أحاطت به الزوارق الحربية التي صعد ضباطها فأبلغوا الشيخ أمر الشاء باعتقاله • وأخذوه وابنه ولي العهد عبد الحميد مخفورين الى طهران ، وأسكنوه في قصر حوالى المدينة ، قضى فيه بقية أيامه • وقد لاقى الشيخ في سجنه الجميل من الحكومة احتراما واکراما ، حتى ان الشاء نفسه زاره هناك أكثر من مرة •

وبهذا انطوت آخر صفحة من تاريخ هذه الامارة العربية العريقة •



خاتمة المطاف

العودة الى البصرة

على اثر تدخل الحكومة الايرانية فى اماره عربستان انشغل الشيخ خزعل عن مراسلة ملوك العرب وأمرائهم ، فأصبحت أشبه بالعاطل أتقاضى واتبى دون أن أقوم بأى عمل . لذلك أبدت للشيخ رغبتى فى الاستقالة والعودة الى البصرة ، فلم يقبل ، وقال انه يعز عليه أن أفارقه . واقترح علي القيام بادارة أملاكه فى المحمرة وما جاورها . فوافقت وانتقلت الى المحمرة ، وأقيمت فى دار جميلة تطل على النهر . ثم بدأت فى تنظيم الاملاك وحساباتها ، فارتفع ايرادها الى ضعف ما كان عليه فى السابق . واستمرت وكالتى على أملاك الشيخ حتى بعد اعتقاله ، الى ان حدث بينى وبين أحد اتباعه خلاف على التصرف بأموال أبيه . فلم يكن هذا ليكتفى براتبه المقنن ، وكان يلح فى طلب المزيد بدون رضى أبيه . فأصرت على الاستقالة وقبلها الشيخ . وهكذا عدت الى البصرة واستأنفت الاشتغال بالمحامة .

نقطة التحول

كان عام ١٩٢٤ بمثابة نقطة تحول فى حياتى . فبعد عودتى من المحمرة واشتغالى بالمحامة ، الفيت نفسى رجلاً آخر يختلف عما كنت أعهد فيه من قبل . كانت هناك عوامل كثيرة تدفعنى الى تغيير خططى فى الحياة . اذ كنت قد أصبحت رب عائلة كبيرة ، وأباً لعدد لا يستهان به من البنين والبنات ، تتطلب تربيتهم استقراراً دائماً وعناية متواصلة . ثم انى بعد ان خضت غمار الحياة السياسية الجديدة فى العاصمة الناشئة تعذر عليّ المضى فى مجاراة الذين احترفوا السياسة فيها ، فاحتكروا المناصب واستأثروا بالخيرات . . . لم يكن بمقدورى السير على خطواتهم ، وانتهاج سبلهم الغامضة . . ولم أكن راضياً عن هذا الاتجاه الجديد الذى لحظته فى الطبقة الحاكمة المستحدثة . فعزمت على أن أكون معارضاً مزمناً . وكان أمامى أحد سبيلين ، فاما المعارضة الايجابية أو السلبية . أما الاولى فتتطلب الكثير من الجهود ، وتكتنفها المخاطر والاصواب ، وهذا ما لم يعد فى طاقتى تحمله ، أنا الذى لقيت من الاوصاب

اشقها ، وتعرضت للمخاطر منذ حدثتي •• فقد بدأت جهادى صيبا ، وما زلت ماضيا فيه ، ولو انه استنزف من صحتى وهمتى قسطا كبيرا • فلا غرو اذن ان اتخذت سبيل المعارضة السلبية ، وحصرت جهودى فى المساهمة بالاعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية ، لعلى أؤدى عن طريقها خدمة لهذا الشعب ، بعد ان عدلت عن خدمته بطريق السياسة •

وكانت حياتى اليومية لا تتعدى الذهاب الى المكتب والمحكمة ، ثم العودة الى البيت • وكنت فى أوقات فراغى أنكب على المطالعة أو التأليف ، فتجمع لدي عدد كبير من الكتب نظمته فى مكتبة خاصة • وألفت عددا من الكتب والرسائل • وكنت أقوم باعلاء عدد من الجمعيات فى آن واحد •

ولا ارانى فى حاجة الى سرد الحوادث التى وقعت فى العراق من بعد ذلك التاريخ ، لانها لم تعد خافية على أحد ، تتناقلها الألسن ، ويسهل الاطلاع عليها فى المؤلفات السياسية الحديثة وعلى صفحات الجرائد والمجلات • الا انه يجدر بي ان أشير الى بعض الحوادث التى كان لها تماسا مباشرا فى حياتى • ذلك اننى كنت ، بين الفينة والاخرى ، أحنث بالعهد الذى قطعت على نفسى فى اعتزال السياسة ، فتتأبى نزوات الى العودة الى ذلك الميدان المصطخب ، وما أعتم ان أُلجّه حتى أعود من حيث أتيت ••• ناقما مغضبا • كنت أجد فى كل مرة دليلا جديدا على اعوجاج الامور فى هذه البلاد ، وعلى خيبة ابنائها ومستقبلها القاتم •

وحين ابرمت المعاهدة العراقية - البريطانية عام ١٩٣٠ جاهرت بمعارضتها والتنديد بنودها المجحفة • فكان جزائى على ذلك اعتقالى فى عنه ، أربعة أشهر فى عام ١٩٣١ بحجة واهية اتخذتها الحكومة ذريعة للتشكيل بي كما ورد ذكره فى فصل سابق •

فى مجلس النواب

وفى عام ١٩٣٥ انتخبت نائبا فى المجلس النيابى فى عهد وزارة ياسين

الهاشمي • فانتقلت وعائلتي الى السكنى فى بغداد • وحدث ان حملت لسوء المعارضة ضد الحكومة بشأن بعض القوانين والمشاريع • وفى هذه البلاد تسمى الحكومات سكوت المعارض بأى ثمن • لذا عرضت علي الحكومة قبول منصب رئاسة تسوية من الدرجة الاولى فرفضت •

وجاهدت فى ندوة البرلمان ، وفى مكاتب الوزارات المختلفة ، لخدمة البلاد بصورة عامة والبصرة بصورة خاصة • وكان من جملة المشاريع التى تحققت بجهودى الشخصية انشاء جسر كرامة علي ، وجسر القرنة ، وكري نهر الصالحية الكبير ، وتبليط طريق الزبير - بصرة ، والاسراع فى مشروع اسالة الماء الى ناحية الزبير • ولا زلت احتفظ بمئات الرسائل والبرقيات التى انهالت علي من البصرة والزبير تقديرًا وشكرًا •

وفى خلال اقامتى ببغداد ساهمت كعضو فى لجنة الدفاع عن فلسطين التى كان يرأسها سعيد الحاج ثابت ؟ وفى جمعية الطيران العراقية التى كان يرأسها مولود مخلص ؟ وفى جمعية مشروع الفلس بزماله نصرت الفارسى ، وبهجت الانرى ، وعلي حيدر سليمان • وكنت دائب النشاط فى هذه الجمعيات ، أقوم بخدمتها بكل ما أوتيت من قدرة •

انقلاب بكر صدقي

ثم حدث ما لم يكن فى الحسبان • اذ جرى انقلاب بكر صدقي ، واستقال الهاشمي وتشتت شمل وزرائه ، ولقي الشهيد جعفر العسكري حتفه • وفى مساء يوم الانقلاب ذهب والعالم الفاضل هبة الدين الشهرستاني لزيارة الهاشمي والتخفيف من كربه • فألفينا داره محاطة بالرعا ع يقذفونها بالحجارة والاقذار ، ويقذفون صاحبها بأقذع السباب ••• رأيت بينهم بعض الذين كانوا بالامس خدامه الطيعين يحرضون الغوغاء ويلقونهم • شققنا لأنفسنا طريقا بين هؤلاء وطرقنا الباب ففتح لنا ، ولشد ما استبشر بنا يسر فى تلك الساعة العسية •

وطلعت الصحف وهى تتدد بالوزارة المستقلة ، بعد ان كانت تمجدها وتسبح بحمدها ، وقلب الاصدقاء لاصدقائهم ظهر المجن ، ولبس الاخ لاخيه جلد النمر ، وتسابق الناس فى عرض طاعتهم وخضوعهم للحاكم المستبد الجديد . وكانت الايام التالية مليئة بالمرعجات . فقد توفى محمد زكى رئيس مجلس النواب ، وكان رحمه الله من أعز اصدقائي .

ثم اغتال رجال بكر صدقى المرحوم ضياء يونس سكرتير مجلس الوزراء ظلما وعدوانا . وكان ضياء فى حياته مثال النبل والاخلاق والنضوج العقلى ، حتى ان الصحف حين كانت تنشر خطبه فى البرلمان تبدأ بهذا العنوان : « العقل يتكلم » .

جاءني ضياء بعد الانقلاب بأيام قلائل ، وهو بادى القلق والارتباك ، وقال لي ان بعض الضباط دخلوا مكتبه ، وطلبوا منه احضار اضبارة تتعلق بالتهمة التى نسبت الى بكر صدقى فى عهد الوزارة السابقة والتحقيق الذى جرى بشأنها ، بقصد اتلافها . فلما أخبرهم بأنه لا يعلم من أمر تلك الاضبارة شيئا ، توعده بالقتل ان هو لم يحضرها ، ثم خرجوا . وسألنى عما يجب عمله ، فقد كان الرجل صادقا فيما رواه عن جهله بأمر الاضبارة . فنصحته بالاقامة فى دارى هو واطفاله ريثما ينجلي الموقف .

قضى ضياء يونس ثلاثة أيام لم يغادر فيها غرفته ، وحرصنا على ان يبقى أمر وجوده عندى سرا مكتوما . الا ان ضياء لم يرض بهذا الحال ، وكان يخشى ان يصيبني الضرر بسببه . فصنم على الخروج رغم معارضتى الشديدة ، فأرسل أهله الى الموصل وعاد الى داره .

ومرت أيام دون أن يحدث حادث مكدر . وفى ذات مساء تربص له أربعة رجال فى سيارة ، بالقرب من داره فى السعدون . فلما خرج ماشيا انهال عليه الرصاص من كل جانب ، وتقدم أحد القتلة والقى بالحنة فى الساقية المحاذية للشارع ، وخبا « ضياء » الى الأبد .

انتهى دور ضياء وجاء دورى • فوصلتني رسالة تهديد بالقتل من «الجمعية السرية» ، ولم تكن هذه الجمعية فى الحقيقة الا زمرة من أعوان الدكتاتور • أمهلتنى الجمعية الموهومة فى رسالتها ثلاثة أيام ، تكفى لحمل حقائبى ومغادرة بغداد ، وفى حالة رفضى فأننى سوف ألقى حتفى كما لقي ضياء حتفه على يد ابطالها ... كذا •

مرت الايام الثلاثة وأنا أروح وأغدو بعناد ، بعد ان أحطت نفسى بحراسة لا بأس بها • وفى مساء اليوم الرابع دوت طلقات بالقرب من بيتى ، فهممت بالخروج لاستجلاء الامر ، ولكننى سرعان ما عدت ادراجى ، اذ خشيت ان يقودنى الدوى الى كمين نصبوه لى • وتكررت من بعد ذلك المحاولات • فلما حلت الحكومة المجلس النيابى ، ولم يعد ثمة مبرر لبقائى فى بغداد ، غادرتها الى البصرة ، فارتحت وأرحت طالبي رأسى ••

عدت الى البصرة وانا أشد ما أكون مقتا للسياسة ، وازدراء بالمناصب ، وزهدا فى الشهرة • وأقسمت ان لا أعود ثانية الى طرق هذا الباب المشؤوم •

هدوء واستقرار

قضيت السنوات العشر التالية ما بين عام ١٩٣٧ - ١٩٤٧ بهدوء واستقرار • وعكفت على مزاولة المحاماة وبعض الاعمال التجارية ، ودأبت على المطالعة والدرس • وكنت فى حياتى الخاصة أقرب الى الانزواء والعزلة • يجدر بي أن أعود قليلا الى الوراء لآتي على ذكر الجمعيات التى ساهمت فى اعمالها فى البصرة ، والتى لو قدر لها البقاء لأثمرت وأنتجت •

الجمعية الزراعية الملكية

عندما زار جلالة الملك فيصل البصرة فى ١٣ كانون الاول ١٩٢٨ ، دعاني للمثول بين يديه لبحث مشروع ري كنت قد أعددت من قبل وقدمت به اقتراحا الى الحكومة • ويتلخص المشروع فى شق ترعة ما بين نهر كرمه علي وخور عبدالله ، تروى مساحات شاسعة من الاراضى المهملة • وبعد ان فرغت

من تلخيص دراساتي للمشروع ، انتقلنا الى بحث الاجوال العمرانية والاقتصادية في البصرة فقال لي جلالتة :

— لقد تشكلت في بغداد جمعية زراعية تحت رعايتي ، وأرغب في أن تقوم أنت بتأسيس فرع لهذه الجمعية في البصرة ، وانك قد تحتاج الى من يساعدك في تأسيسها ، فانتخب واحدا من كبار الملاكين ليكون في عونك •
فوقع اختياري على عبداللطيف المنديل • فأردف جلالتة قائلا :

— اذن سوف أوعز الى رشيد عالي بتوجيه كتاب رسمي اليكما للبدء بالعمل •

وهكذا تأسست الجمعية الزراعية الملكية في البصرة ، وانتخب لرئاستها السيد هاشم النقيب ، وانتخبت أنا للسكرتارية • وبعد عام من تأسيسها انحلت ، على أثر انحلال الجمعية المركزية في بغداد •

جمعية الشبان المسلمين

وفي ٢٥ كانون الاول سنة ١٩٢٩ انتخبت رئيسا لجمعية الشبان المسلمين في البصرة • وبعد ذلك بسنة استقلت منها بسبب خمول أعضاء هيئة الادارة وتقاعسهم في انجاز واجباتهم •

دار العجزة

أعلنت بلدية البصرة ذات يوم عجزها عن ادارة دار العجزة ومواصلة الصرف عليها ، فأغلقت الدار المذكورة ، وألقت بساكنيها في الطرقات • فجمع المحامون مبلغا من المال ، وأعادوا فتح تلك المؤسسة على حسابهم ، وأدخلوا الساكنين اليها ، وعهدوا اليها بادارتها • فقامت بذلك العمل الانساني مدة ثلاثة أشهر • ثم عادت الى البلدية حميتها ، فاستلمت مني الدار وكفلتها كسابق عهدها •

جمعية حماية الاطفال

وفي ١٦ نيسان ١٩٣٨ انتخبت عضوا في جمعية حماية الاطفال في البصرة ، وعملت فيها الى ان قرر غلقها بعد حوالي سنة واحدة من تأسيسها •

غرفة التجارة

انتخبتى غرفة تجارة البصرة عضوا فى هيئة ادارتها ، فساهمت فى أعمالها مدة ست سنوات ، ومثلتها فى مؤتمر الغرف التجارية العراقية المنعقد فى بغداد عام ١٩٤٧ • ثم انسحبت منها عام ١٩٤٨ بسبب حالتى الصحية •

مجلس ادارة اللواء

وفى ١١ مارت ١٩٤٥ انتخبت عضوا فى مجلس ادارة لواء البصرة ، ثم جدد انتخابى فى ١٦ نيسان ١٩٤٧ • وقد انسحبت من المجلس المذكور عام ١٩٤٨ لاسباب صحية •

لجنة مساعدة فلسطين

وعندما أعلنت الحرب الفلسطينية تألفت فى البصرة « لجنة مساعدة فلسطين » فانتخبت عضوا فى لجنتها الدائمة • وكان زميلاي فى هذه اللجنة الثلاثية حسن عبدالرحمن المحامى وسعود الصالح • وبعد مدة سافر الزميلان المذكوران فبقيت أقوم بأعبائها وحدى ، ولبثت كذلك حتى سفرى من البصرة فى ٦ تموز ١٩٤٨ • ان ماقدمته هذه اللجنة من المساعدات لفلسطين كان زهاء ٦٣ الف دينار حوِّلت الى لجنة مساعدة فلسطين فى بغداد ، وكميات من الاسلحة أرسلت مباشرة الى المجاهدين العرب فى فلسطين •

جمعية التمور

وفى ٢٧ مارت سنة ١٩٤٠ اخترت لآكون ممثلا لوزارة الاقتصاد فى جمعية التمور التى كان يرأسها فى ذلك الحين المستر لويد • وأود بهذه المناسبة أن أعرف القارئ الكريم بالمستر لويد • فقد كان الرجل ضابطا فى جيش الاحتلال ، ثم عين حاكما سياسيا فى لواء ديالى ، وقد حدث مرة ان تعقبه ابن عبدكه لقتله ، الا ان الشيخ حبيب الحيزران أخفاه عنده ، فنجوا من الموت • وعين بعد ذلك رئيسا للمحاكم فى البصرة • فلما انتهت مدة عقده مع الحكومة عاد الى انجلترا • وهناك فشل فى كسب قوته وانتهاز فرصة وجود أحد رؤساء الوزارات العراقية فى لندن فقام بخدمته وقضاء حاجاته فيها • • فكافأه هذا بتعيينه

مديرا عاما لجمعية التمور براتب ضخيم ومخصصات دسمة! •• ولم يكن لويد
 في كل المناصب التي أشغلها بالرجل الطيب • كان معوجا في سلوكه
 الشخصى ، واستعماريا فظا في سياسته وعمله • لم يكن يقترح أمرا الا وفيه
 فائدة الامبراطورية ، ولم يكن ليوافق على قرار الا ومصلحة الشركات
 المحتكرة نصب عينيه • لذلك كان اصطدامى به منتظرا • وفي الواقع انني لم
 أرحب بقيامى بهذا التمثيل لولا رجاء صادق البصام وزير الاقتصاد وقتذاك •

ثم وقع المخذور ، فانسحبت من الجمعية بعد معارضتى لعقد صفقة فاشلة ،
 أسفرت عن خسارة تناهز الستين الف دينار ، دفعتها الجمعية من صندوقها ••
 أو بعبارة أصح من جيوب صغار الملاكين فى البصرة ••



نهایة النخبة

لكل قصة نهاية •• ولكل حديث خاتمة •• وللأحياء
آجال محتومة ••

والمرء قادر على ان يحدثك عن حياته كما رآها ،
ويحدثك عن مولده كما روي له ، بيد انه عاجز عن
ادراك خاتمته •• وهو لا بد ان يلوذ بالصمت والنصّة
لما تتم بعد ••

اما النهاية ، فيشهدها الذين من حوله •• ومن هنا
جاءت ضرورة اضافة هذا الفصل ، الذى هو بمثابة
الحُتام من حديث ابي •• حديثه الذى توقف عنه ليعهد
الى غيره باتمامه •• ففساني اوفق الى نظم الحجة الاخيرة
من هذا العقد ••

الناشر

فى بغداد ، ذات يوم قائظ من صيف ١٩٤٨ ، وفى طريقه الى مصائف
لبنان ، داهمت أبي حمى طارئة •• وكان قبل ذلك موفور الصحة ، سليم
البنية • فلما اشتدت وطأتها أدخل المستشفى ، ولبت فيه سبعين يوما •

تصرم الصيف ، وعاد المصطفون الى ديارهم •• وعاد هو الى البصرة
معتلا سقيما • لقد قيل له انه شفي •• وعما قريب سيستعيد عافيته ، غير ان
الامر سار من سيء الى اسوأ • فكانت الحمى تتخلل فى هجومها •• فهى تارة
تنقضى فى النهار ، وتارة فى الليل •• وهى حينما شديدة قاسية ، وآخر فائترة
هينة ••

وما زال الداء يتفاقم ويتفاقم حتى شاع فى جسمه الهزال •• وعلا وجهه
النحول •

وبلغه ان العلاج اذا استعصى فى الحاضرة الصغيرة ، فلعله يتيسر فى العاصمة الكبيرة • فودع البصرة وأهلها ، وشد الرحال الى بغداد بحثا عن علاج يخفف وطأة الداء •

وفى بغداد عز الدواء ، وألمح الاطباء الى عجزهم عن التشخيص ، واهابوا به أن يقصد لندن لعله يجد فيها ضالته •

اصطفانى أبى لمرافقته • فطرنا من بغداد فى الرابع والعشرين من شهر آذار ١٩٤٩ • ولما حلفت بنا الطائرة فى أجواز الفضاء استولى عليه الضعف ، بيد انه كان يخفي هذا الضعف وراء ابتسامة مشرقة وثبات عجيب • • فما أن أدرك قلقى على صحته حتى انبرى يشجعنى ويسري عني • • رأيت يلاطف الركاب كما لو كان معافى وكانوا معتلين • •

ولم تكد تمر سويعات حتى غدونا - أبى وأنا - صديقين حميمين • • فكنت له بمثابة ابنه ، وطيبه ، وصديقه ، بل وكل شئ له • •

حطت بنا الطائرة فى مطار لندن فأخذنا طريقنا الى مستشفى ويستمنستر • وفى غرفة أنيقة بالطابق التاسع من هذا المستشفى الكبير قضى أبى ستين يوما ، استرد خلالها بعض عافيته ، وأفاد من العلاج فائدة يئنة • فبعد اسبوع من دخوله فيه توصل الاطباء الى اكتشاف العلة • • وهى نمو غير اعتيادى فى غدة لمفية ، أسفر عن تضيق فى مجرى القصبة الهوائية ، وعن حمى متأرجحة لغير سبب جلي • • اتفق رأى الاطباء على معالجة الورم باشعة رونتكن ، والاستغناء عن الجراحة ، مما أشاع الاطمئنان فى نفس أبى • • فتحسنت معنوياته ، وازداد اشراقه ، واستعاد رفته المعهودة • • ولمس أطباؤه فيه هذه الرقة فأحبوه ، وأعجبوا به • • وعرفه الجميع : الاطباء ، والمرضات ، والمرضى ، والخدم • • وحتى عامل المصعد • • وكثيرا ما نوه الاطباء بصبره على الآلام ، وتحمله الاوجاع ، وترفعه عن التأفف والشكوى • • وكان بادىء الامر يحييهم بالفرنسية لجهله الانجليزية • • غير انه عمد الى دراستها ، فكان يتعلم كل يوم كلمات جديدة يدونها فى كراس صغير ، حتى استطاع آخر الامر أن يعبر عن مقاصده بالانجليزية على خير ما يرام • •



وفى العصارى كانت عرفته
تضيق بالزائرين من أبناء العراق ،
وبينهم الشيخ والشاب .. ومنهم
الطالب والتاجر . وسعى اليه بعض
العراقيين الذين استوطنوا لندن منذ
عشرات السنين ، واندمجوا فى
عمارها ، وقطعوا صلاتهم بأبناء
جلدتهم .. سعوا اليه ، تجذبهم
حرمة يكونها له منذ القديم ..
وشوق الى شمائله الطيبة .. فجددوا
ذكرياتهم وقد أوشكت ان تصبح
عوذتهما الى العراق
كسبا ..

ولما بلغ سمو الامير زيد خبر وجوده فى المستشفى زاره فيها .
وكان خليل ابراهيم^(١) أكثر الاصدقاء ملازمة له ، وأشدهم عناية به .
وكثيرا ما صحبه فى جولات شقة الى متزهات المدينة وحدائقها ، بعد
استئذان أطبائه .

وما زالت صحته آخذة فى التحسن ، حتى صرح له الاطباء بمغادرة
المستشفى ، والاقامة فى الريف لقضاء دور النقاهة فيه . فانتقل الى «ميدن هيد» ،
وهى قرية فى غاية الجمال ، تقع على بعد أربعين ميلا من العاصمة . وهناك
اقام فى دار للتمريض توفرت فيها وسائل الراحة والمتعة .. فهى محاطة
بأروع المناظر الخلابة .. وكانت هناك شجرة « اليلاق » العملاقة ، تزاحم
ازهارها أمام نافذته .. ومن خلالها يبدو السهل المنبسط بكسائه السندسى حتى
مجرى التمس ، حيث تقوم القصور البيضاء ذات السطوح القرمزية المائلة ..

(١) الملحق بالسفارة العراقية الملكية فى لندن سابقا ووكيل مدير الدعاية
العام لاحقا .

وفى هذا الجو الساحر قضى أبى زهاء شهر • فكان يقتل الوقت بالمطالعة ،
أو بالتريض فى شوارع القرية ، وكان فى تجواله يردد قول أبى الطيب :

مغاني الشعب طيباً فى المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وكنت أصحبه أحياناً فى نزعات نهرية ، حيث يطيب له الجلوس الى جانبى
فى الزورق البخارى المعد للاجرة • وما مرت أيام حتى تعرف على أهل
القرية • • فكانوا يحيونه من زوارقهم ، فيجيبهم برفع القبة • • ويوصيني
بتخفيف سرعة الزورق لئلا تؤرجح الامواج التى يثيرها زوارقهم الصغيرة • •
لقد عرفت أبى فى أوج عافيته • • وعرفته فى أسوأ أيام مرضه • •
وعرفته وهو يسير نحو الصحة بخطى وثيدة • • فلم أجد فيه - قيد أنملة -
تغيراً أو تطوراً • • لقد كان معلماً فى الحياة ، ورائدى فى المعرفة • • • معلم
لا ينضب معين علمه • • ورائد لا يسبر غور فطنته • • فتح قلبه للناس فوسعهم
جميعاً • • •

مر الشهر سريعاً ، فعدنا الى لندن ، حيث أجرى له فحص نهائى أثبت
شفاء التام • • وكان هذا ايذاناً بالعودة الى العراق • • فى الخامس عشر من
حزيران غادرنا لندن بالطائرة ، ونحن أشد ما نكون سروراً بالشفاء ، وشوقاً
الى الوطن •

عم الأسرة والاصدقاء موجة من الغبطة والسعادة بعودة أبى معافى
مشافى • وقضى الايام الاولى بعد رجوعه فى نشوة وانتعاش •

ولكنها هى ذى الحمى تعود • • لعلها أصابته من شدة الحر • • أو لعلها
حمى زائرة لا تطيل المكوث • • وكثرت الاسئلة المحيرة ، وساور النفوس
قلقها القديم • • واتفق الرأى على سفر أبى الى تركيا تخلصاً من الحر • • وفى
استانبول عاودته الحمى ، ثم أثقلت وطأتها عليه ، وأطالت مكوثها بين أضلعه • •
فوهى جسمه ، وخشي أصدقاؤه أن يصيبه الضرر فى ديار الغرب ، فنصحوا بالعودة • •
ويوم رأيته على رصيف القطار أيقنت ان العلة قد استحسنت فيه ، وانه
لن يبرأ منها • • لقد أصبح أسيرها تتحكم فيه تحكم الطائش المستبد • •

لزم أبي بيته لا يخرج منه ، وكان يقضى معظم الوقت في قراشه • كان مريضاً ولا كالمرضى • • فهو دائم المرح ، شديد التفاؤل ، دائم التفكير • • يكثر من المطالعة ، والكتابة ، والمراسلة • • ويستقبل زائريه كل يوم تقريباً ، فيروي لهم الاحاديث الطلية - وهو المحدث اللبق - والنكات الشيقة التي يحفظ منها العدد العديد •

وكان يتفقد أفراد أسرته واقرباءه وأصحابه ، ويعينهم على حل مشاكلهم ، ويبدل لهم ما يفتقرون اليه من مساعدة ، ويلطف صغارهم ، ويداعب أطفالهم • وكان يحرص على ان لا يكون مرضه سبباً لحزن الآخرين ، ومصدراً للأساهم • • فلم يشك ولم يتأفف • حتى انه كان ينكر وجود الحمى اذا سألناه ، فاذا كشف المحرار عنها ، قال : ما فائدة الشكوى ؟ وهل يجدي التذمر نفعاً ؟ • وكان حين تعصف به الاوجاع في الليل يأن آثناً خافتاً ، فاذا أحس باقتراب شخص من غرفته قطع الآنين ، لئلا يحزن أهله ويتألموا • •



وفي هذه الفترة القائمة من حياته كتب أبي مذكراته ، ووجد في كتابتها بعض السلوى والعزاء • ولم يكف عنها حتى قيل وفاته ، بالرغم من الاعياء الذي كان يتنابه من فرط الاجهاد •

وتفاقم المرض ، ثم تفاقم • • حتى أصبح أبي شبحاً هزيباً • • وخفت صوته • • الا انه احتفظ بذهنه متوقداً ، وتفكيره سليماً ، وبحافظته حادة ، وبإتسامته مرتسمة على شفثيه يشوبها ألم ومرارة •

وفي أيامه الاخيرة كثيراً ما سمعناه

يردد الآية الكريمة :

المؤلف في أيامه الاخيرة

« يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية »

وفي اليوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٥١ أنذرت حالته
يدنو أجله . فتجمع حوله جميع أهله واقربائه الذين وفدوا من مختلف الانحاء ،
فسر لمرآهم ، وراح يباركهم ، ويدعو لهم .

وفي صباح يوم الجمعة ، التاسع عشر ، سرت فيه نفحة من نشاط ، فطلب
احضار المجموعة الفريدة من التصاوير التاريخية التي يحتفظ بها في مكتبته ،
وأهاب بنا أن نريه التصاوير واحدا فواحد ، ليعرفنا على أصحابها ، وتواريخها ،
ومواقعها من هذا الكتاب . وهكذا بدأنا بعرضها عليه ، وهو مسجى على فراشه ،
حتى فرغنا منها جميعا . وكان صوته يزداد خفوتا وتهديجا ساعة بعد ساعة . .
وشاع في وجهه شحوب . . وأجهد في تنفسه . . غير ان ابتسامته لم تفارق
شفتيه . وكان يتقل بنظراته الفاحصة بين وجوه ابنائه وذويه . . كأنه يريد
أن يستوعب في ذاكرته أشكالها قبل الفراق الأبدي . . وكان اذا التقت
نظراته بنظراتهم انفرجت أساريره عن ابتسامة مطمئنة ، تغني عن الوداع
قبل الرحيل الى العالم الآخر . وأغمض جفونه . . فتوهم النسوة انه فارق
الحياة ، فكنن مولولات . . فتفتحت عيناه وترقرقت منهما دمعتان ، وأشار أن
اصمتوا . . فسكوا كأن على رؤوسهم الطير . . فأوصى وصيته الخالدة وهو يحتضر .
قال بالحرف الواحد وهو يجود بأنفاسه :

« لا تبكوا علي » ، فقد شبت من الدنيا . . لم يبق لي فيها مطعم . .
شبت منها بعد أن ذقت حلوها ومرها ، وقضيت ما لي وما علي . . واني غير
أسف على الحياة . .

اني لم أترك لكم ثروة مادية كبيرة ، ولكني أعتقد اني تركت اسما نظيفاً
انا راض عنه . . اسم لا يضيركم ان تتسبوا اليه ، وان تتسموا به . . لقد
جهدت قدر امكاني ان احفظ هذا الاسم نظيفا ، فأرجو ان تحرصوا على
المحافظة عليه . .

اوصيكم بوالدتكم خيراً ، وأرجو أن لا تذل بعدي . . فقد جهدت أن
أبقيها عزيزة ، فأؤمل ان تبقى كذلك بعدي . .

أوصيكم بأخواتكم خيراً .. وبأخيك الصغير ، وأرجو أن ينال من
التعليم ما قدرت له ..

أوصيكم جميعاً بالتكاتف والمحبة .. لا تفرقوا .. ولا يأخذكم الطمع
بعضكم بعض .. فالدنيا أبخس من أن تستحق ذلك ..

ادفنوني في تربة الزبير بجوار جدكم ..

بقيت لي أمنية واحدة ، يهمني تحقيقها أكثر من غيرها .. وهى اني
ادعوا الله عز وجل ان يغفر لي ذنوبي ويرحمي .. وهنا تلى الآية الكريمة :-

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله

ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » .

ولما فرغ من وصيته أسدل جفونه ليصيب راحة .. وجفت شفتاه ..
فتناوب أبناءه وبناته على بلّهما بالماء ، فكان كلما مس الماء شفتيه فتح عينيه
ليقول : أشرك ..

وبعد دقائق أسلم الروح .. فصعدت الى بارئها الكريم .

وكان ذلك في تمام الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة ، التاسع عشر
من كانون الثاني عام ١٩٥١ م .

وحمل جثمانه الى البصرة ، ومنها الى الزبير ، حيث ووري التراب ..
وكتب على قبره :

« المغفور له الحاج سليمان فيضي

عاش شجاعاً كريماً ألياً وفيّاً عالماً

مؤمناً صادقاً شفوفاً عفيفاً نزيهاً

نصر الحق على الباطل . وجاهد في سبيل امته وبلاده

فكان في حياته مناراً يهتلى بنوره

وكان بعد مماته في عداد الخالدين

ولد في الموصل عام ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٥ م

وتوفي في بغداد عام ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م »

فارحمه اللهم برحمتك الواسعة ، واكرم مثواه ، انه كان من الصالحين ..

الفهرس

فصول الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	الاعضاء
٤	المقدمة
٧	تمهيد للناسر
٩	بداية البداية
٣١	رمل ودم
٤٣	فى عهد السلطان عبد الحميد
٦٣	فى عهد جمعية الاتحاد والترقى
٨٩	رحلة تقدر زناد العصيان
١٠٧	البصرة تتمرد على السلطنة
١٣٩	مجلس المبعوثان
١٦٩	بينى وبين نورى السعيد
١٨٧	الحرب العالمية الاولى
٢٠٧	لورنس فى العراق
	على هامش الثورة العربية
٢٢٧	الكبرى
٢٣٩	ثلاثة أعوام فى بغداد
٢٧٥	وقل اعملوا ..
٢٩٣	امارة عربستان
٣٠١	خاتمة المطاف
٣١١	نهاية النهاية

صور الكتاب

الصفحة	الصورة
٨	المؤلف عام ١٩٤٥ ازا
١١	الحاج داود القصاب
	المغفور له جلالة الملك فيصل
١٦	الاول ازا
١٩	الحاج طه الموصلى
	الامير عبدالعزيز الرشيد
٢٤	وفخرى باشا
	جلالة الملك عبدالعزيز
٣٢	آل سعود ازا
	الامير عبدالعزيز السعود
٣١	والشيخ مبارك الصباح
٤٨	السلطان عبد الحميد
	هيئة المدرسين والتلاميذ فى
٦٩	مدرسة تذكرا الحرية
٩٦	السيد طالب النقيب ازا
٧٧	سليمان نظيف
١١٣	عبد الجليل الشالجى
١١٩	يوسف السويدي
١٢٠	مولود مخلص
١٢٣	ياسين الهاشمى
١٢٦	سعيد الحاج ثابت
١٢٦	ابراهيم عطار باشى
١٦٦	ثابت السويدي
١٧٢	نورى السعيد باللباس العربى
١٩٢	المؤلف عام ١٩١٤ ازا
١٩٩	السر برسى كوكس
٢٠٥	عبد الله صائب
٢١٠	لورنس
٢٤٩	السر ولسن
	المغفور له جلالة الملك فيصل
٢٧٢	والشيخ خزعل .. ازا
٢٧٧	وفد الموصل فى سوق عكاظ
٣١٤	المؤلف والناسر فى مطار لندن
٣١٦	المؤلف فى أيامه الاخيرة

Miss Laila Faidhi

OCT 7 1953

كتب ورسائل للمؤلف

شرح قانون حكام الصلح - جزآن
الحقوق الدستورية

تعريب القانون الاساسى الاميركى
التمهنة الايقاظية فى الرحلة الحجازية
الرواية الايقاظية

الف كلمة وكلمة فى الامثال - طبعان
سر النبوغ

المنتخب من أشعار العرب - الجزء الاول
أصول التبعات وأحكامها فى البصرة

كتب لم تطبع

المنتخب من أشعار العرب - الجزء الثانى
الفرق بين الاجارتين والمقاطعة فى الوقف
البصرة - نخيلها وتمورها وأنهارها

DATE DUE

SEMST FEB 15 1987
 GL JUN 11 1987
 SEP 23 1992
 SEP 30 1992

GLX FEB 15 1996

BLIRec MAY 24 1996

GLX FEB 17 1997 MAY 13 1997

FEB 15 2005

JAN 06 2005

201-6503

Printed
in USA

956.7
F147

13165593
COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0113165593
BUTLER STACKS

BOUND

SEP 29 1935

